وضّاح صائب

قَتلُ الإسلام
وتقديسُ الجُناة





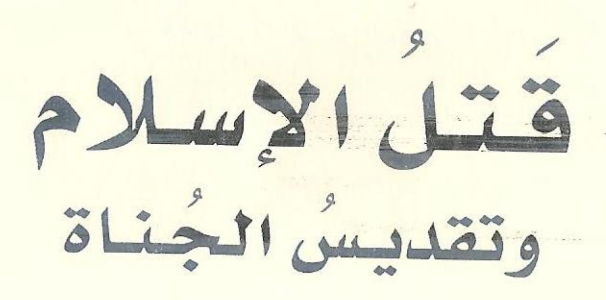
وضّاح صائب

قَتلُ الإسلام

وتقديسُ الجُناة



Arab Diffustion Company



قَتلُ الإسلام وتقديسُ الجُناة

وضّاح صائب

البريد الإلكتروني للمؤلف

waddahsaeb@hotmail.com



ص.ب: 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.com

بيروت - لبنان

هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

لوحة الغلاف للفنان: محمد شمس الدين

ISBN 978-614-404-132-1

الطبعة الأولى 2011

الفهرس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾



الإهداء

أيُّها الغرُّ قد خُصِصتَ بعقلٍ

فاسألنهُ، فكلُّ عقلٍ نبيّ

أبو العلاء المعرّي

«أمَ على قلوبٍ أقفالها»

قرآن كريم



براءة محمّد من الأتباع

«أيّ منقلب ينقلبون»

«على رأس كلّ مائة سنة هجريّة، يلتقي رسول الله ونبيّه محمّد بن عبد الله محمّداً نبيّ المسلمين، في غار حراء، فيتجادلان طويلًا، ثمّ يلتفت محمد الرسول إلى محمد نبي المسلمين، ويقول قبل أن ينصرف: يبدو أنّنا لن نتفق أبداً.. أبداً...»

اقتباس بتصرّف عن جبران

مقدمة تختزل النص

«لا تكفي الملاحظة الصرف.

ولا يكفي أيضاً نشر الوقائع من أجل تلبية متطلبات الفكر والروح.

إنَّ العيون ليست وحدها التي ترى.

والآذان ليست وحدها التي تسمع.

يريد الفكر والروح أن يريا ويسمعا بدورهما.

لكنَّ هذا يعني أنهما يريدان المشاركة في الإحساس والتفكير.

والمشاركة في حدث والتفكير فيه يعنيان ملأه بالمعنى وجعلَه قابلاً للإدراك.....

مادام تأويل الأحداث هو الذي يعطيها معنى»[1].

(1) ديتر تسمرلنغ - النهايات، ترجمة ميشيل كيلو.



الإضاءة الأولى

قتل الإسلام



لا تتجلى عظمة الإسلام في توسّع الفتوحات، وتمدّد الدولة من حدود الصين إلى الأندلس، فهذا التوسّع الإمبراطوري، مرّت به كل القوى العظمى، عبر التاريخ، مستندة إلى معطيات ترتبط بالزمان والمكان، وضعف الآخرين، فكان للجميع إمبراطورياتهم المتداولة، يوناناً ورومانا وفرساً وعرباً ومغولاً وتتاراً، الواحدة على أنقاض الأخرى، في إطار لعبة الأمم بعيداً عن الأساس العقائدي...

عظمة الإسلام وعبقريته تتجليان في البدايات، الأسس، واللبنات الأولى التي كوّنت المجتمع الإسلامي الأول في حدود الجزيرة العربية، أما ما بعد هذه الحدود، فكان بداية النهاية للإسلام كدين ذي خصوصيّة وتميّز، وبداية القيامة للدولة ككيان إمبراطوري يشابه سابقيه ولاحقيه.....

عبقرية البدايات....... بضع كلمات يوحي بها الله في غارٍ منعزل لرجلٍ ليس ذا شأن أو حولٍ أو عزوة، في مجتمع تسوسه أرستقراطيّة تجاريّة مهيبة، وتقسو معادلاته على أفراده، ويضع خطوطاً لا تتكسر بين شرائحه ومكوناته، وتحكمه معتقدات إشراكيّة غير قابلة للمساس، منحته مكانته بين الآخرين بحكم حيازته للكعبة، بيت أصنام العرب ومقصدهم على مدى العام...

ومن تشكيل الخلية الأولى، إلى توسيعها، إلى التصريح العلني

بالدعوة، إلى تحمّل الرفض والتنكيل، إلى الهجرة وتأسيس دويلة المدينة، إلى الحروب المتتالية مع الجوار وتطويع قريش والجزيرة، إلى صياغة الشريعة الكاملة، اكتملت دورة العبقرية والعظمة التي بدأت وانتهت قائمة على نص إلهي ورجل بشر حمل النص وأطلق الثورة..

وكان للآخرين أدوارهم المتفاوتة في هذه الثورة، وكانوا ككلّ مكوّنات المجتمعات الأخرى، بصالحهم وطالحهم، بشراً عاديين، تحكمهم خلفيّاتهم القبلية، وإن شذّب الدين الجديد ما طاف على السطح منها...

وبموت الرجل، لم يتيسّر لما طاف على السطح، أن يُخلص لما جاء به، لأكثر من خمسة عشر عاماً.... وبين عامي 610 و650 م كانت البداية والنهاية.....

في العقد السادس من القرن السابع، تمَّ وأد الإسلام، والتأسيس للدولة التي توزعت قيادتها بين آل أمية وآل العباس ثم آلت لغير العرب...

كان تولّي عثمان بن عفّان، صهر النبي ورفيقه، بداية النهاية لدين محمّد السماوي، عملاً بوصيّة أبي سفيان بن حرب له: (*قد صارت إليك بعد تيّم وعدي - قبيلتي أبي بكر وعمر- فتزقفوها تزقف الكرة، واجعل أوتادها بني أميّة، فإنّما هو الملك، وما أدري ما جنّة ولا نار*)

(رواها الحسن البصري، وأوردها المسعودي بصياغة أخرى «*يا بني أميّة تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنَ إلى صبيانكم وراثة*»)...

وقد أثبت عثمان التزامه هذه الفلسفة وعمله بها، إبّان الفتنة الكبرى، وهو دفع حياته ثمناً لهذا الالتزام، فإذ آلت الخلافة إليه، من بين الستّة الذين اختارهم عمر، استناداً إلى التزامه للمحكّم عبد الرحمن بن عوف بالعمل وفق كتاب الله وسنّة نبيّه وسنّة الشيخين اللذين سبقاه، أبي بكر وعمر، إلاّ أنّه انقلب على التزامه هذا لمصلحة التزامه بتلك الفلسفة، ففي حين قال أبو بكر في خطبة خلافته *«أيّها الناس، ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أسأت فقوموني»*، وقال عمر في خطبة خلافته *«إن رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوّموني»*، *وهو مفهوم واضح صريح لديهما أنّ خلافة أو إمارة كلّ منهما جاءت من الناس، وليس من الله، وأنّ لهؤلاء الناس «الأمّة أو الشعب» أن يقوّموا الخليفة إن حاد عن جادّة الصواب، أو انحرف عن سداد الحكم، نجد أن الأمر اختلف تماماً عند عثمان عندما أراد معارضوه أن يعزلوه، فقال لهم «كيف أخلع قميصاً ألبسنيه الله؟...» وهو قول يصدر عن اعتقاد بأن الخلافة جاءته من عند الله، وأنّه ليس لغير الله أن يعزله منها*[1]، مؤسّساً لانحراف خطير في مفهوم الخلافة / المُلك سيطبع مستقبل الأمّة الإسلاميّة لأربعة عشر قرناً....

وتحوّلت ثورة محمد من دين لهداية البشر وحماية المستضعفين إلى باب للملك والسلطان وتكديس الثروات..

ولم تفلح محاولات ابن عم النبي، علي ابن أبي طالب ومَن حوله، ولا الثورات التي قاد إحداها ابنه الإمام الحسين سبط رسول

---

(1) محمد سعيد العشماوي - الإسلام والسياسة.

الله، ثم تبعه آخرون، في وقف الانهيار، فأرستقراطيّة قريش كانت بالمرصاد للثأر من محمد، واستعادة ما سلبه منها، مطوّعة كلّ الوسائل الممكنة، في ميكيافلية فائقة، حيث «*كان منحى العمل عند معاوية يتمثّل في فن استغلال العالم، أمّا عند علي فكان يتمثّل في فن تحرير العالم*» كما يشير أدونيس. . .

مستنداً إلى ما أسّست له مرحلة عثمان، انطلق معاوية في الثأر لانكسار أبيه أبي سفيان بن حرب، وأمّه هند بنت عتبة، كاهنة اللاّت وآكلة كبد الحمزة عم النبي، وللطبقة التي انتمى إليها ذووه، وبدأ كاتب بعض رسائل النبي (لا كاتب الوحي، كما تحاول بعض الكتابات إيهامنا) مشروعه الكبير المستند إلى وصية أبيه لعثمان، فسنّ سنّة سار عليها خلفاؤه من ذريّة أميّة، ثمَّ جلادوهم العباسيون، في هدم الدين وتعزيز الدولة والسلطان المتوارَث. .

هذا السلطان الذي لم يكتفِ بإقامته على أنقاض الدين، بل استخدم الدين لتسويغه وتمكينه، فهو ردّد مقولة أبيه بأنّه المُلك، ومقولة عثمان بالقميص الذي ألبسه الله، قائلاً: «*إنّ خلافتنا أمرٌ سابقٌ في قضاء الله وقدره*»، مكرّساً مبدأ الجبريّة المخالف لرسالة محمد، ومطبّقاً هذا المعنى حين كان يردد: «*الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذتُ فلي، وما تركتُهُ للناس فبالفضل منّي*». . .

وقد لخّص ابنُهُ، (خليفة رسول الله) يزيد بن معاوية، حفيدُ أبي سفيان، الأمر برمّته، حين قال، (على لسان ابن الزبعري) لدى قتله الحسين سبط رسول الله:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا   جَزَعَ الخزرج من وقع الأسل

لعبت هاشمُ بالمُلك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزَل

في شماتةٍ فجّة بأتباع محمّد، وإنكار لرسالة إلهيّة أوصلت الملك إليه، وترديد وقح لمقولة جدّه (*وما أدري ما جنّة ولا نار*)، التي تأكدت كنبراس لبني أميّة في حكمهم للأمّة بعد انتقامهم من محمد، ووأدهم لدينه، فها هو عبد الملك بن مروان (خليفة رسول الله الآخر) الذي *كان من أشهر فقهاء المدينة، ما إن أفضي إليه أمر الخلافة وكان المصحف في حجره، حتّى أطبقه وقال «هذا آخر عهدي بك»، ثم خطب في المسلمين من على منبر النبي «والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربتُ عنقه»*(1) . . . . . .

ثم ها هو الوليد بن يزيد، (خليفة رسول الله الآخر)، من بعدهما، يخرّق القرآن بالنبال ويخاطبه:

أتوعد كلَّ جبّار عنيدٍ فها أنا ذاك جبّارٌ عنيدُ

إذا لاقيت ربّك يوم حشرٍ فقل يا ربّ خرّقني الوليدُ

وهو كان لخّص رؤيته ورؤية أسلافه لدين محمد، بقوله:

تذكّرني الحسابَ ولست أدري أحقاً ما تقول من الحسابِ

فقل لله يمنعني طعامي وقل لله يمنعني شرابي

ليختصر هذه الرؤية بالقول:

سجد الساجدون لله حقاً وجعلنا سجودنا للقناني

(1) المرجع السابق.

ولعلّ قراءة سيرة عمر بن عبد العزيز، الأموي الاستثناء، تمنحنا المثال الأسطع على وأد آل أميّة لدين محمد ولسنتّه الصحيحة، فإذ أعاد عمر العمل بالسنّة الصحيحة لمحمد، والتزم كتاب الله، وردّ المظالم، وأقام العدل، ومنع نهب آل البيت الأموي لبيت مال المسلمين، في ثورة على سنّة أسلافه وفجورهم، بادرت الأسرة إلى تسميمه وإزاحته عن الطريق بعد أربعة عشر شهراً من تولّيه الخلافة التي شكّلت نكوصاً عن الرؤية الأموية للدين والحكم، أي الرؤية التي تأسست على تثبيت أوتاد الدولة ودقّ المسامير في نعش الدين الذي جاء به محمد. . .

وخلال فترة قياسية بمعادلات التاريخ، تمَّ تشويه صورة الإسلام الصحيح، وعمَّ الكذب على لسان النبي، وساد قتل الأتباع بعضهم لبعض، وأسّست مدارس لتحريف الشرع الإلهي، وفتحت دكاكين لوضع شرع جديد يخدم السلطان ويبرّره، ويكرّس عودة الإقطاع للسيطرة على المجتمع، وشرع جديد آخر، يعارض هذا السلطان ويكفّره، مؤسّسين كليهما لأكثر من فقهٍ بديلٍ قاتلٍ للفقه الإسلامي الذي جاء به محمد. . . .

وفي جريمة تتعدّى جريمة أهل الكتاب في تحريف كتابيهما، كما أشار القرآن، قام قاتلو الإسلام بإطفاء كلام الله وتشويه رسالة محمد، مستندين إلى مدرسة تأسّست أركانها على ابتكار مفهوم عدالة الصحابة كلّهم، ومفهوم الناسخ والمنسوخ، ونسب أحاديث كاذبة إلى النبي، وتدوينها في كتب حلّت محلّ القرآن، وابتداع مذاهب متعارضة ضمن

الدين الواحد، تقوم كلّها على الشرك بالله، من خلال تقديم الإيمان بالأحاديث المختلَقة وبفقه الأئمة والأولياء على شرع الله..

وانطلت اللعبة على الجميع على امتداد أربعة عشر قرناً، وتكفّل الجهل بإقناع الأمّة بتقديس قتلة دينها، والدعاء لهم برضى الله، والاكتفاء بالحسرة على عزّ زائل واجترار فقه مشوّه، وتكفير العقل...

ولم تتكفل السنون الألف والأربعمائة في إصلاح الخلل، وإن تخللتها بعض حركات الإصلاح المتباعدة، والمتنافرة، وبدا أن الزمن يلعب لمصلحة أعداء الدين الصحيح.

ووصل المسلمون إلى قرنهم الهجري الخامس عشر بأسوأ حالٍ ممّا كانوا عليه في أيّ مرحلة من مراحل تاريخهم.....

جوقات متناثرة.....

بعضها تجترّ فقهَ السلف، الذي لم يكن كلّه فقيهاً موفّقاً، وتستحضر أحاديث كاذبة نُسبت إلى النبي، بانتقائيّة جاهلة، فتُطلق فتاواها المضلّلة للشعوب، وتحلّل وتحرّم، وتشوّه مفهوم الجهاد والعلاقة مع الآخر، معمّمة حمّامات الدم في بلاد الإسلام، رغم أنّ بعض فقهائها هم مَن بارك الصلح مع العدو، الذي سبق أن دعانا للجهاد ضدّه والتضحية تحت اسم الإسلام، كما تزوّد أتباعها بفتيا مخجلة وأحكام يندى لها الجبين، كوجوب إرضاع المرأة العاملة لزملائها في العمل تيسيراً للاختلاط، وابتكار أشكال جديدة للزواج ما أنزل الله بها من سلطان، كزواج المسيار، والوناسة، والإنجاب، والفريند، والمصياف، وتخرج عليهم بقراءة غبيّة لوقائع تاريخهم، فتحاول

إقناعهم أن صحابة النبي كانوا يتبركون بشرب بوله والتمسّح بنخامه ومخاطه، ثمّ هي بعد ذلك تكفّر مَن خالفها رؤاها القاصرة..

وبعضها تمتهن تنظيف سيَر الأولين، وإضفاء هالة من قداسة كاذبة عليهم، مخالفة كلَّ كتب السير والتواريخ التي تركها السابقون، في مسعى غير موفّق لتبرير ما لا يعقل تبريره..

هاتان الجوقتان *حوّلتا الفكر الإسلامي من أن يكون صياغة للواقع وترشيداً له، إلى أن يكون تبريراً لهذا الواقع،* يمنحه *غطاءً ايديولوجياً ومشروعية دينيّة زائفة، كما يشير أبو زيد..* وخلطتا الأعراف والممارسات الاجتماعيّة السابقة بالنهي أو التحريم، في إطار «شرع مَن كان قبلنا»، أو «الاستحسان»، أو «المصالح المرسلة»، ومفهومي «المندوب» و«المكروه»، ومبدأ «سدّ الذرائع» السقيم، وهي اجتهادات لم يقرّها القرآن الكريم...

﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[1].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2].

﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[3].

على أنّ الجريمة الأكبر لهاتين الجوقتين كانت تكفير الآخر، المخالف *لأي اجتهاد تعوّدوا اجتراره، متجاهلين أنّ القرآن خاطب العقول قبل أي شيء آخر، وهو لم يطلب التسليم بما جاء به لمجرد أنّه*

(1) سورة الشورى، الآية: 21.

(2) سورة الزخرف، الآية: 37.

(3) سورة المائدة، الآية: 77.

جاء بحكايته، بل ادّعى وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين، وردّ عليها بالحجّة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحّة ما دعا إليه، وهما الجوقتان اللتان عناهما الإمام الشيخ محمد عبده بقوله:

«ولقد تجرأ بعض المتأخرين على تكفير مَن يتأول بعض الظنيّات، أو يخالف شيئاً ممّا سبق الاجتهاد فيه، أو ينكر بعض المسائل الخلافيّة، فجرؤ الناس على هذا الأمر العظيم، حتّى صاروا يكفّرون من يخالفهم في بعض العادات، وإن كانت من البدع المحظورات، ثمّ هم على عقائد الكافرين، وأخلاق المنافقين، ويعملون أعمال المشركين، ويصفون أنفسهم بالمؤمنين الصادقين»...

وبعضها دفعت به ردود الفعل إلى أقاصي الطرف الآخر، فانبرى للتشكيك والتكذيب، وعمل على إسقاط الأسس والمرتكزات، واستنباط الدلائل لتصوير الإسلام بدعة محمديّة لا علاقة للخالق بها، وهي دلائل تستند لا إلى القرآن، ولكن إلى ترهات الجوقتين السابقتين وكتبها وتفاسيرها المضلّلة.....

أمّا البعض الآخر، على قلّته وصعوبة مهمته، بحكم تعرّضه للتهديد بالتكفير شمولاً له مع الفئة السابقة، وهو منها براء، فيسعى لقراءة واعية، مدقّقة، متوازنة، تفرز الغث من السمين، وتؤسس لإعادة صياغة وعي أتباع محمد بدينهم وتاريخهم، عملاً بقول الحق ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾(1) ..

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 24.

وبين هؤلاء وهؤلاء، يضيع المسلم الفرد، وينشأ الإحساس بالفراغ الذي يؤدي إلى فشل ذريع في معالجة مشكلات المجتمع المتجددة والمتصاعدة زمنياً، فتضطرب مجتمعات المسلمين التي تجد نفسها متراجعةً حيث يتقدّم الآخرون، وتعاود العصبيات المذهبية ممارسة أبشع إفرازاتها، بعد أن هدأت لقرون. . . .

ويثور السؤال في العالم غير الإسلامي، منذ عدّة قرون، لماذا يرتبط التخلف بالإسلام حيث وُجد؟، وهو سؤال يتيه عن صياغته الصحيحة، لماذا يرتبط التخلف بالمسلمين؟ لا بالإسلام. . .

ولماذا تخلّف المسلمون وتقدّم الآخرون؟. . . . .

وحيث لا يجادلنّ أحدٌ في وجود عيب في الإسلام، أو قصور فيه، فثمّة حاضنة أخرى للعيب والقصور، طبعت العقل الجمعي للمسلمين، وحكمت آفاق وعيهم، أسمها الموروث الذي اصطلح على تسميته بـ «التراث»، الذي لم يكن في معظمه، إلاّ أفكاراً واجتهادات لفقهاء سخّرهم السلطان، وساقتهم المصالح، للابتعاد عن المضامين الصحيحة للدين الذي جاء به محمد. .

هذه الحاضنة المعيبة، أي المنظومة الأصوليّة التي كانت في أغلبها نتاجاً لعصور الانحطاط، لا عصر محمد، وشكّلت دائماً محرقة لحواضر المسلمين ومستقبلهم، هي ما يتوجب غربلتها وشطفها والإمعان في النظر فيها، ومراجعة مسلّماتها وبديهياتها، وصولاً إلى قطعها واستئصالها - إن تطلّب الأمر- والانطلاق مجدّداً من البدايات الأولى، كما لو كنّا اليوم شهود عصر الرسالة، وكما لو كان محمد بن عبد الله لا يزال بيننا. . . .

إنَّ إعادة صياغة الوعي الإسلامي، في عصر انتشرت فيه المعارف واضمحلّت الأميّة، وكثرت الجامعات ومراكز الأبحاث، وبات الإنترنت وسيلة للطواف اللحظي حول العالم وأفكاره وتجاربه، تستلزم إعادة النظر في مفاهيم كثيرة، بعيداً عن انغلاق الفكر، والموقف المسبق، وتكفير الآخر، بِدءاً من إدراك المفهوم الصحيح للدين كما أراده الخالق، ودراسة مجتمع الصحابة الذين نهضوا بهذا الدين، وإبعاد القداسة عن أفراده وإرجاعهم بشراً حقيقيين لا ملائكة، ودراسة تجربتهم، وقراءة النصوص قراءة عقلانية في ضوء النص الإلهي المعجز، وتنظيف الموروث من أكاذيب انطلت، واجتهادات لم تكن موفّقة، أو هي لم تعد صالحة، مع التأكيد على الجوانب الايجابيّة فيه، وتجديدها وصوغها بلغة مناسبة لعصرنا تتسق مع إصرارنا على صلاحيّة هذا الدين لكل زمان ومكان. . . .

وهنا، بعض الإضاءات في محاولة متواضعة لإعمال العقل في فهم ما جرى وضعه في خانة الثوابت، وما هو كذلك، مع الالتزام بالنصوص في إطار إرجاعها إلى النص الإلهي الكريم كمرجعيّة وحيدة بمعزل عن المرجعيات الزائفة التي أُقحمت لاحقاً، في عودة إلى جذور الرسالة المحمّديّة الصحيحة القائمة على كتاب الله ونهج رسوله الكريم فقط ودون التحريفات اللاحقة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

(1) سورة المائدة، الآية: 104.

وانفتاح على الآخر المطالب بالرد من خلال النقاش الموضوعي، الهادف، وتحكيم هذا العقل الذي كرّمنا الله تعالى به ودعانا لإعماله:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

إن نفض الغبار عن عقولنا، وإزالة الصدأ المتراكم في أفكارنا، *وفك الارتباط بين النص الإلهي والنص البشري برفع القداسة عن البشري كمدخل لإعادة امتلاك الإلهي*، وحده الكفيل باستعادة دين محمد وإخراجنا من القرن الثاني الهجري، ونقلنا إلى حيث يجب أن نكون، وحيث أراد لنا الله الذي قال:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

آملين أن لا تبقى «كنتم» فعل ماضٍ أبدي ....

(1) سورة محمد، الآية: 24.
(2) سورة آل عمران، الآية: 110.

ما هو الإسلام؟
أيُّ إسلام أراده الله؟

- «إنَّ الدينَ عند الله الإسلام»
- «ومَن يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبل منه»
- «ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون»



في الموروث الإسلامي المستند إلى (السلف الصالح)، بشِقّيه السني والشيعي أنَّ الإسلام هو الدين الذي بلَّغه محمد (ص) فقط، فمّن اتبعه كان مسلماً، ومّن لم يتبعه كان كافراً، وأن ديانات التوحيد الأخرى كاليهودية والمسيحية لم تعد مقبولة لدى الله عزّوجلّ بمجرد بدء الرسالة المحمدية، مما يستتبع مآل أتباعها إلى جهنّم، في حين ستبقى الجنّة محجوزةً لأتباع الرسالة المحمديّة فقط...

وقد أصَّل هذا الفهم لمفهوم (الجهاد) الذي نلمسه اليوم، وبات يطلُّ علينا بعد أن اندثر ونام....

وهو المفهوم الذي يقوم على الجهاد ضد (الآخر)، وهذا (الآخر) يشمل كلّ الناس خارج دائرة أتباع الشريعة التي جاء بها محمد..

أكثر من ذلك، وأخطر من ذلك، تختلف الفرق الإسلاميّة فيما بينها، وتدعي كلٌّ منها امتلاكها للإسلام الحقّ، وحدها دون غيرها، في تقزيم هائل لمفهوم الإسلام....

ما مدى صحّة هذا الفهم؟

هل سيذهب أربعة أخماس سكان الأرض، على امتداد الزمان، منذ عام 610 م، عام البعثة، حتى يوم القيامة إلى جهنّم، حتّى لو آمنوا بالله حسب معتقداتهم، وعملوا صالحاً؟ ألا يتعارض هذا مع عدل الله جلَّ وعلا؟.. أليس:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[1]؟..

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2].

ما ذنب سكّان سيبيريا، أو الصين، أو غيرهم ممن لم تصلهم دعوة محمد؟ هل يُحشرون في النار لمجرد أنَّهم لم يخلقوا في الجزيرة العربية أو جوارها؟ ولم تتح لهم فرصة معرفة هذا الدين، بغياب الفضائيّات والإعلام منذ القرن السابع، وحتى العشرين الميلاديين؟

ألم يقل الله في محكم كتابه:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[3].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4].

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾[5].

وما جدوى الصلوات التي يتوجه بها أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية إلى ربِّهم؟ هل يقبلها الله أم يعرض عنها، وهو القائل:

﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[6]؟

وهل سيذهب الكتابيون الصالحون الذين توفاهم الله قبل البعثة

(1) سورة الزلزلة، الآية: 7.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 47.

(3) سورة الأنعام، الآية: 131.

(4) سورة الإسراء، الآية: 15.

(5) سورة الشعراء، الآيتان: 208/ 209.

(6) سورة غافر، الآية: 60.

المحمدية بسنة واحدة إلى الجنَّة، في حين يذهب مَن مات بعد سنتين أو ثلاث إلى النار، لمجرد أنَّ الله مدَّ بعمره بضع سنين فعاصر الدعوة؟؟.

وهل كلُّ الكتابيين كفرة؟.. وقد قال الله فيهم:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)﴾[1]..

هل سيذهب باستور وغاليليو وأديسون والعلماء الآخرون الذين عملوا الصالحات وأبدعوا لقاحات الأمراض والأوبئة، والاختراعات الأخرى التي أفادت البشريّة وأنقذت الملايين من الموت والهلاك، وأضاءت العالم، إلى جهنّم، لمجرد أنّهم لم يكونوا مسلمين على شريعة محمد، في حين يذهب بعض الدراويش الجهلة ممّن لم يقدّموا لعباد الله أيّة منفعة إلى الجنّة، لمجرد أنّهم (مسلمون) بالوراثة؟.

وإذا كان الله (علّم الإنسان ما لم يعلم)، فلماذا علّم هؤلاء الذين نسمّيهم (كفرة) كلَّ هذا العلم النافع، وحرم (المسلمين) منه قروناً؟.... (سمعت جواباً غبيّاً مستفزّاً من أحد مشايخ الفضائيات الذين ابتُليَ بهم العالم الإسلامي، يقول - لا فُضَّ فوه -: *إنّ الله*

(1) سورة آل عمران، الآيات: 113/ 115.

علّمهم كل هذا العلم، ليسخّرهم لخدمة المسلمين، فهم يبدعون ويخترعون، ونحن نستهلك. . .؟؟. . .)، دون أن تفوتنا ملاحظة أنّنا نتهم هؤلاء المخترعين والمبدعين بالكفر والإلحاد والانهيار الأخلاقي، متناسين ما أوصلنا إليه تديّننا الكاذب وأخلاقنا العالية (؟).

كان محمد خاتم الأنبياء، أي آخرهم. .

فإذا كان ما بشَّر به محمد فقط، دون غيره من الديانات، هو وحده الإسلام، فكيف نفهم كلام الله عن كلِّ أنبيائه ورسله منذ نوح أنَّهم مسلمون؟ مع أنَّهم جميعاً سبقوا الدعوة المحمدية؟.

لنتابع:

* نوح:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ (٧٣)﴾[1].

* إبراهيم:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[2].

* لوط:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)﴾[3].

---

(1) سورة يونس، الآيتان: 72/ 73.
(2) سورة آل عمران، الآية: 67.
(3) سورة الذاريات، الآيتان: 35/ 36.

* يعقوب:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (1).

* يوسف:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (2)

* موسى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ (3).

* سحرة فرعون يخاطبونه بعد أن اتّبعوا دين موسى:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (4).

﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (5).

---

(1) سورة البقرة، الآية: 132.
(2) سورة يوسف، الآية: 101.
(3) سورة المائدة، الآية: 44.
(4) سورة الأعراف، الآية: 126.
(5) سورة يونس، الآية: 90.

* عيسى المسيح:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

كل هؤلاء ومَن تبعهم سمَّاهم الله مسلمين ورضي عنهم، وجعل مآلهم إلى الجنَّة، فهل غيَّر الله (حاشاه) موقفه منهم ومن تابعيهم بدءاً من العام 610 م؟

بالطبع لا... يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

إنّ كلمة إسلام في لغة القرآن لا تشير إلى دين واحد، بل إلى جميع الأديان منذ مولدها في فجر الحضارة، وإطلاق الحنيفيّة على يد إبراهيم، «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان مسلماً» أي حنيفياً، والإسلام ليس ديناً إضافياً، بل هو نظام شامل يحتوي جميع الأديان السماوية، التي تتشارك في أسس توحيد الخالق وبناء الإنسان والعالم، ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، وما كانت رسالة محمد إلاّ تجديداً للتوحيديّة العتيقة، وإن جاءت إلى مجتمع مشرك لا يأبه بهذه التوحيديّة...[4]

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 52.

(2) سورة البقرة، الآية: 62.

(3) سورة غافر، الآية: 66.

(4) هشام جعيط - الوحي والقرآن والنبوة.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(1)

وهذا هو الإسلام الذي لن يقبل الله سواه:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(2).

فإذا كان الدين عند الله هو الإسلام، ولا يقبل الله إلاّ الإسلام ديناً، وسمّى الله كلَّ هؤلاء مسلمين، دون أن يقصره على أتباع محمد، فما هو التعريف الصحيح للإسلام؟ ومَن هو المسلم؟

هو ما حدّده الله في الآية التي سبق ذكرها في:

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾(3) والمسلمون هم مَن عرّفهم الله بالمتقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾(4) معتبراً أنّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(5) من أتباع موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، وربّما أنبياء آخرين لم يقصص الله قصصهم علينا...

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 84.
(2) سورة آل عمران، الآية: 85.
(3) سورة البقرة، الآية: 62.
(4) سورة البقرة، الآيتان: 3، 4.
(5) سورة البقرة، الآية: 5.

وأكّد ذلك تكراراً في العديد من الآيات:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[2].

ألا تدلنا هذه الآيات أن المسلم هو كل مَن آمن بالله الواحد، وباليوم الآخر/البعث والحساب/، وعمل صالحاً وأحسَن إلى عباد الله؟!....

ثم، أليس مدلول الآيات قاطعاً في أن مَن لم يعمل صالحاً ولم يحسن فهو غير مسلم، حتى لو صلّى وصام وأدى من الطقوس والشعائر ما اعتبره فقهاء السلف (أركاناً للإسلام) في عمليّة شوّهت الدين وحنّطته في قالب أداء هذه الطقوس والشعائر فقط، وهي ربّما تكون طقوساً للإيمان وفق شرعة محمد، لا أركاناً للإسلام العام الشامل الذي يطال كلّ الديانات السماوية على اختلاف طقوسها...

لماذا لم يقل الله: مَن أحسن ديناً ممَن صلى وصام حسب الشرعة المحمدية حصراً؟

ولماذا ركّز القرآن الكريم في العديد من آياته ،على العودة بالجذور إلى ملّة إبراهيم الحنيفية التي هي منبع كل الديانات اللاحقة لها؟...

ألم يكن محمد حنيفيّاً ملتزماً، قبل الدعوة؟ مثل آخرين سبقوه،

(1) سورة فصلت، الآية: 33.
(2) سورة النساء، الآية: 125.

عبيد الله بن جحش /ابن عمّته/، وعثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقبل ذلك جدّه عبد المطّلب (الذي كان إبراهيمياً وصاحب ملّة، ويتحنّف كل رمضان في غار حراء، حسب ما أورد ابن كثير وابن هشام والمسعودي والسيوطي)، وأرباب بن رئاب، وسويد بن عامر، ووكيع بن سلمة، وعمير بن جندب، وصرمة بن أبي أنس، وعامر بن الظرب، وزهير بن أبي سلمة، وعلاف بن شهاب، والمتلمس بن أميّة، وكعب بن لؤي بن غالب، وزيد بن حصين، وأكثم بن صيفي، وأبو قيس بن الأسلت، وحنظلة بن صفوان، وزاد ابن الجوزي على هؤلاء (أبا بكر الصديق، ورباب بن البراء، وأسعد بن كريب الحميري، وقس بن ساعدة الأيادي، وأبا قيس بن صرمة...)... وإن امتاز عمّن سبقوه من الأحناف الذين كان كلّ منهم يبحث عن خلاصه الشخصي، بأن اصطفاه الله واجتباه لتحقيق خلاص الآخرين.. العالمين، بدعوتهم لاعتناق الحنيفيّة تحت عنوان الإسلام... معتبراً أن:

«الحنيفية» هي الدين القيّم والصراط المستقيم:

﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[1].

الصراط المستقيم = الدين القيّم = حنيفية إبراهيم التي دعت إليها الرسالات السماويّة كلّها..

(الآية الأخيرة ذات مدلول هام وخطير، وهي تبيّن لنا مدى الخطأ الكبير الذي وقع فيه معظم مفسّري القرآن، حين خرجوا علينا بتفسير

(1) سورة الأنعام، الآية: 161.

مشين وضع أساساً للعلاقة الملتبسة مع أهل الكتاب، حين فسّروا الجزء الثاني من سورة الفاتحة، «اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالّين» فاعتبروا المغضوب عليهم هم الكتابيين اليهود، والضالّين هم الكتابيين النصارى، في تعميم وإطلاق مستهجنين / انظر تفسير الجلالين مثلاً / ، رغم أنّهم أتباع ملّة إبراهيم التي هي الصراط المستقيم، الذي ندعو الله أن يهدينا إليه، ورغم أنّنا نقول إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً). . .

ألم يؤكّد الله هذا المعنى مرّة أخرى، أي إنَّ الإسلام هو ملّة إبراهيم، والمسلمين هم كلّ أتباع هذه الملّة، حين قال:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(1).

ودعاهم لاتباع هذه الملّة، دون غيرها:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(2).

وهو، عَزَّ وَجَلَّ ، لا يقبل الخروج عن هذه الملّة:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(3).

تورد بعض المصادر الإسلاميّة أن مصحف ابن مسعود كان يقرأ: «إن الدين عند الله الحنيفيّة. . . » في مرادفة ذات دلالة كبيرة، تحسم مساواة الإسلام بالحنيفيّة التي كانت أساس الديانات السماوية منذ إبراهيم. .

---

(1) سورة الحج، الآية: 78.
(2) سورة آل عمران، الآية: 95.
(3) سورة البقرة، الآية: 130.

وإلاّ لماذا فرض القرآن الإيمان بالأنبياء والرسل الآخرين، واعتبر كتبهم مقدسة من المصدر الإلهي الجليل ذاته؟ ولماذا اعتبر الإيمان بها شرطاً لصحّة الإيمان به؟:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[2].

لا نفرّق بين أحد من هؤلاء الأنبياء والرسل، ونحن مسلمون لله تبعاً لشرعة كلٍّ منهم. . . . أي إنَّ كلاً منهم حمل رسالة الإسلام، وجاء محمد ليختمها ويتمّها ويعدّل ما حرِّف منها، لا ليؤسسها ناسخاً ما قبله:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[3].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ

(1) سورة آل عمران، الآية: 84.
(2) سورة آل عمران، الآيتان: 3، 4.
(3) سورة النساء، الآيتان: 163، 165.

وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1]

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2].

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[3].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[4].

لكنّ الله يأخذ على أحبار اليهود أنّهم:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[5].

وأنّهم تولّوا وأعرضوا عن ميثاقهم مع الله:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 46.
(2) سورة آل عمران، الآية: 199.
(3) سورة النساء، الآية: 162.
(4) سورة الحج، الآيتان: 34، 35.
(5) سورة المائدة، الآية: 13.

وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

دون أن يلغي توراتهم، ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2] في تشديد على وجوب التزامهم حكم الله في توراتهم التي أُنزلت على موسى، بعيداً عن تحريفات كتبهم اللاحقة، التي هرطقها الأحبار..

كما عاب عليهم إنكارهم لرسالة عيسى المسيح، وقولهم الباطل فيه وفي أمّه البتول....

وعلى رهبان النصارى:

﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾[3].

أي نسوا بعضاً ممّا ذكّروا به، لا كلّه، دون أن يلغي إنجيلهم ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[4]... في تشديد آخر على وجوب التزام النصارى أحكام الله في إنجيلهم كما أُنزل على عيسى، بعيداً عن التحريفات اللاحقة التي جاءت بها المجامع الكنسيّة بعد قرنين من عصر المسيح..

وإذا علمنا أنّ تعاليم ومفاهيم المسيحيّة قد جاءت الجزيرة العربية

(1) سورة البقرة، الآية: 83.
(2) سورة المائدة، الآيات: 42 - 44.
(3) سورة المائدة، الآية: 14.
(4) سورة المائدة، الآية: 47.

من مصدرين قريبين متاخمين، من بلاد الشام حيث قبائل غسّان الخاضعة لتبعيّة الروم، ومعها تغلب وقضاعة ونجران، على المذهب اليعقوبي القائل بألوهة يسوع وبأنّ مريم أمّ الإله، ومن بلاد الحيرة ذات المذهب النسطوري الذي يعترف بالوحدانيّة المطلقة للإله، ويكفّر القول بتأليه المسيح وأمّه، معتبراً يسوع ما هو إلاّ كلمة الله ألقاها الروح القدس إلى مريم العذراء البتول المصطفاة، بالإضافة إلى بعض تأثيرات المذهب الديصاني الذي يعارض الكنيسة في أمر الصلب وينفيه نفياً باتاً، على أساس أنّ مَن صلُب ليس عيسى ابن مريم وإنّما شبيه له، وأنّ الصلب ما كان ليطول «كلمة الله» و«روح الله»، نجد القرآن قد انحاز إلى النسطورية والديصانية في مواجهة اليعقوبيّة، ولم يكن قطّ منفرداً في رفض التحريف اليعقوبي.

لكنّه يميّز بين الصالحين من أهل الكتاب، والضالّين منهم، ولا يعتبرهم جميعاً ضالّين:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

ثمَّ يخاطب الفريقين:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[2].

(1) سورة فاطر، الآية: 32.
(2) سورة المائدة، الآية: 15.

وهو يؤكّد: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(1).

في تطابق مع ذات المهمّة التي كلّف بها عيسى المسيح قبلاً ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(2).

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾(3).

لابدّ من ملاحظة استخدام الله لأداة الحصر «إلاّ»، في الآية الأخيرة، لتشير إلى أنّ إحدى الغايات الأساسيّة للقرآن هي حسم الخلافات العقيديّة بين أهل الكتاب، ودفعهم لإعلان ما يخفي منه أحبارهم ورهبانهم....

وهي دعوة إلى العودة إلى دينيهم الصحيحين كما جاء بهما نبيّاهما، أي بالرجوع عن تحريف الكلم، وعدم نسيان ما ذكّروا به، وتنقية عقائدهما، والاعتراف برسالة محمد وتعزيزها كدين سماوي يبجّل دينيهما الصحيحين، ويعزّز الدعوة المشتركة إلى توحيد الله.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(4).

(1) سورة النمل، الآية: 76.
(2) سورة الزخرف، الآية: 63.
(3) سورة النحل، الآية: 64.
(4) سورة آل عمران، الآية: 64.

قال: «كلمة سواء بيننا وبينكم» ولم يقل - تعالوا إلى كلمتنا..

«وإن تولّوا» عن ماذا؟ عن عبادة الله وعدم الإشراك به «ألاّ نعبد إلاّ الله».. وليس عن تغيير أديانهم.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[1].

﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[2].

وهو لم يطلب منهم إسقاط العمل بكتابيهما غير المحرّفين:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3] وهذه دعوة صريحة، لا لبس فيها....

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾[4].

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[5].

---

(1) سورة المزمل، الآية: 19/ سورة الإنسان، الآية: 29.
(2) سورة هود، الآية: 28.
(3) سورة المائدة، الآية: 68.
(4) سورة البينة، الآيتان: 4/ 5.
(5) سورة البقرة، الآية: 85.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[1].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2].

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[4].

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[6].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[7].

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[8].

---

(1) سورة الشورى، الآيتان: 14/ 15.
(2) سورة يونس، الآية: 47.
(3) سورة الجاثية، الآية: 28.
(4) سورة الإسراء، الآية: 71.
(5) سورة سبأ، الآية: 26.
(6) سورة الإسراء، الآية: 84.
(7) سورة الأنعام، الآية: 132.
(8) سورة الأنعام، الآية: 108.

فالله عَزَّوَجَلَّ هو مَن زيّن لكلِّ أمّة عملها، وهو لا يقبل التبديل والتحريف:

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(1).

وهو حدّد لنبيّه طلبه إليهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾(2)، وكرّرها:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾(3).

وهذه إشارات واضحة وصريحة...

أكثر من ذلك، لم يأت القرآن بما ينقض أيّاً من المعتقدات الأساسيّة للأديان السابقة، المرتبطة بالعلاقة مع الإله الواحد، بل أكّدها كلّها، وشذّب ما شابها من انحراف لاحق من فعل البشر، تجلّى لدى اليهوديّة في اعتبار الله (يهوه) إلهاً خاصّاً بإسرائيل وحدها، في الأرض الموعودة فقط، فعمّمه وأعلنه إلهاً عامّاً شاملاً لكل البشر منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة، كما تجلّى في المسيحية السائدة في اعتبار عيسى المسيح ابناً لله وشريكاً له، فأكّد تعالي الله عن الابن والشريك، وأكّد أنّ المسيح لم يقل بذلك، ولن يقبله، كما لن يقبل

---

(1) سورة البقرة، الآية: 211.

(2) سورة المائدة، الآية: 77.

(3) سورة النساء، الآية: 171.

تحريفات المجامع اللاحقة والقول بالتثليث، والخطيئة الأصلية، والفداء، ثم اكتفى بتعديل الأحكام ذات الارتباط بعلاقة البشر بعضهم ببعض، ممّا حرّفه الكهان والأحبار، (الميراث، صورة المرأة...وغيرها)، وتفصيل بعضها الآخر تبعاً للتغيرات التي حصلت داخل المجتمعات على مدى القرون..... وهذه هي الديناميكية والحيوية التي يجب استيعابها والتزامها من قبل كل تابعي الأديان على امتداد التاريخ........

يختصر نصر حامد أبو زيد هذا الأمر بالقول: *لم يكن الخلاف مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى خلافاً حول مبدأ التوحيد ذاته، بل كان خلافاً حول مفهوم التوحيد مع النصرانيّة من جهة، وخلافاً حول تفاصيل الشريعة وقضايا الحلال والحرام مع اليهود من جهة أخرى*[1]...

وقد ختم الأمر:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[2].

والمقصود بدينكم: *(الإسلام الذي بدأ بنوح، وتواصل مع الرسل الآخرين)*...

إسلامكم الصحيح كلّكم........

---

(1) نصر حامد أبو زيد – مفهوم النص.
(2) سورة المائدة، الآية: 3.

ونتساءل كما يتساءل أهل الكتاب: لماذا خاطب الله محمداً في سورة السجدة بقوله:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾[1].

أليس القوم الذين لم يأتهم نذير هم مشركو الجزيرة العربية، والمشركون الآخرون؟ الذين أكّد الله أنّه يعنيهم هنا، وقال في سورة سبأ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾. كما قال في سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ وفي سورة هود ﴿... لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ دون أن ينطبق ذلك على الأقوام التي أتاها رسل الله من قبل، كأتباع موسى وعيسى، الذين اقتصرت رسالة محمد على تنبيههم إلى سوء ما حرّفوا لاحقاً من كتابيهم....

ثمّ، إن معجزة الرسالة التي جاء بها محمد هي القرآن، الذي نزل بلسان عربي مبين، وهو معجزٌ بنفسه، ومكمن إعجازه أنّه بديع النظم عجيب التأليف، ينفرد بخصائص في نظم الخطاب لا تشبه غيره، وهو قد تحدّى العرب أن يأتوا بمثله، فأعجزهم وأسقط في يدهم، وهذا الأمر يسقط كلّياً، وتسقط معه المعجزة، حين ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، أو عرضه على شعوب لا تتحدّث العربيّة، ولا ترى مكمن الإعجاز فيه...

(1) سورة السجدة، الآيتان: 1/ 3.

لذلك قال: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1].

وأمّ القرى هي مكة. . .

وإذا كان محمد قد أدرك أن رسالته عالمية الأبعاد:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[2].

إلاّ أنّه استوعب أيضاً أنَّ دوره هو التأسيس لها في الجزيرة العربية، فزرع بذرةً يتكفل الله بإيناعها حيث شاء: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

(يرى معروف الرصافي[3] في قول الله في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[4]، أن مفسّري القرآن قد ذهبوا بها في غير معناها الصحيح، إذ اعتبروا أنّ عبارة «كافّة للناس» هي ذات المعنى لعبارة «للناس كافّة»، ببساطة وتسطيح مستغرَبين، وهذا غير مسبوق في اللغة العربية، فاستنتجوا منها أنَّ الدعوة موجّهة لكافّة الناس بأمر إلهي، وقد ذهب إلى أنّ المعنى هو:

وما أرسلناك إلاّ كافاً للناس تكفّهم عن الكفر وعن عبادة غير الله، أمّا التاء المربوطة فهي للمبالغة، كما في قولنا راوية بدل راوٍ، وعلاّمة بدل علاّم، في وصفنا لمذكّر). . . يؤكّد هذا المعنى حديث للنبي قاله بعد هدنة الحديبيّة: «إنّ الله بعثني رحمةً وكافّةً» حيث ترد «كافّة» هنا

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 92.
(2) سورة الأعراف، الآية: 158.
(3) معروف الرصافي - الشخصيّة المحمديّة.
(4) سورة سبأ، الآية: 28.

حالاً، وهي غير مقترنة بلفظ الناس لا قبلها ولا بعدها......، لكنّنا نرى أنّ رسالة محمد، كالرسالات الأخرى، كانت كافّة للناس كافّة، أي لتكف كلَ الناس عن الإشراك بالله، إنّما دون إلزام أو إكراه، بل بالمجادلة بالحسنى.

ثمّ، ألم يفرِّق النبي بين المشركين وبين أهل الكتاب؟ فدعا أهل الكتاب إلى دينه كما دعا المشركين، إلاّ أنَّه لم يُلزِم كتابيّاً باتِّباعه، وترك أهل الكتاب على أديانهم، مكتفياً بمطالبتهم بتصحيح الانحراف فيها والاعتراف برسالته؟ وإن فرض عليهم الجزية (دون النساء وغير البالغين منهم)، والتي هي ضريبة مواطنة تقابل، بل وتقل عن الزكاة التي يؤديها المسلم، ودون أن يفرض عليهم القتال والجهاد؟

يبدو تعريف عبد الإله بلقزيز محكماً في هذا الخصوص، يقول[1]: *على أنَّ الجزية ليست ضريبة يدفعها جانب واحد (اليهود والنصارى) ثمناً لعدم دخوله في الإسلام، بل هي عقد يكون فيه لأهل الكتاب حق الحماية والنصرة من المسلمين، حيث يدخل في ذمّتهم، والأهم في الذمّة تلك أنّها لا تحفظ لأهل الكتاب حقّهم في بقائهم على دينهم (وحسب)، بل تلتزم بعدم التأثير على إيمانهم بذلك الدين ومنعهم من أي مكروه، ففي تعليمات النبي إلى معاذ بن جبل، مبعوثه إلى اليمن، أمان لليهود والنصارى شديد الوضوح في تشديده على حقوق أهل الكتاب، حيث ورد فيه «.... ومَن أقامَ على دينه وأقرَّ بالجزية تُرِكَ*

(1) عبد الإله بلقزيز - النبوة والسياسة.

ودينه، وله ذمّة الله ورسوله وذمّة المؤمنين، لا يُقتل ولا يُسبى ولا يكلَّف إلاّ طاقته ولا يُفتتن لترك دينه».......

(يثير معروف الرصافي في كتابه سابق الذكر تساؤلاً مشكّكاً، إذ يقول: «*إنَّ الغاية التي يرمي إليها محمد من الدعوة إلى الله، أو من النبوّة ليست بدينيّة محضة، بدليل أنَّه قَبِلَ الجزية من غير العرب من أهل الكتاب والمجوس، إذ لا ريب أنَّ أخذ الجزية منهم وتركهم على ما هم عليه من الكفر والضلال ينافي أنَّه لم يُرسل إلاّ لدعوة الناس كافّة إلى التوحيد أي عبادة الله وحده لا شريك له*)، وهذا رأي الرصافي، لسنا نوافقه عليه، بقدر ما نرى أخذ الجزية وتركهم على دينهم مؤكّداً لوجهة نظرنا، وإثباتاً على أنّ رسالته للعالمين هي الدعوة إلى التوحيد، بغض النظر عن شكل طقوس العبادة، وهو المفهوم الشامل للإسلام كما رآه النبي...

وتقدّم لنا كتب التاريخ والسيرة نصوصاً وبراهينَ ذات دلالة واضحة حول جانبين أساسيين في هذا الخصوص، يعكسان مفهوم محمد وأتباعه، والآخرين بمن فيهم المشركون، لتعريف الإسلام الذي أراده الله، على أنّه الشرعة التي جاء بها محمد، والشرائع السماوية الأخرى التي جاء بها الأنبياء السابقون، قبل تحريفها من قبل الأتباع..

أولهما: علاقة الدين الجديد بأتباع الديانتين السماويتين الأخريين، وثانيهما: تعامل محمد مع هؤلاء.

في الجانب الأول المتعلق بعلاقة الدين الجديد مع أتباع الديانتين السماويتين، يبدو لافتاً موقف المسلمين المستضعفين في مكّة، قبل

الهجرة، تجاه الصراع القائم بين الفرس المجوس والروم النصارى، فحين انتصار الفرس الكاسح على الروم في العام 616 م، كانت شماتة مشركي قريش بالمسلمين كبيرة، معتبرين انتصار المجوس على الكتابيين المسيحيين (المسلمين على شرعة عيسى)، نصراً معنويّاً لهم على إخوانهم الكتابيين (المسلمين على شرعة محمد)، فكان المسلمون في ضيق كبير، لولا أن أنزل الله آياته: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾[1].

وهذه البشرى من الله للمسلمين بقرب انتصار الروم الكتابيين إخوانهم في الدين، وفرحتهم بهذا الانتصار الموعود، هي دلالة لا يتوجب أن تفوت على ذي عقل..

أمّا في الجانب الثاني المرتبط بتعامل محمد مع أهل الكتاب، فنرى أنّ النبي فور قدومه يثرب/ المدينة واستقراره فيها، يكتب للمجتمع الجديد شاملاً اليهود كتاباً سمّي «الصحيفة» جاء فيها «... وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأنّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلاّ مَن ظلم أو أثم، فإنّه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته، (وكرّر ذلك لباقي فرق اليهود).... وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبّر دون الإثم...»، لكلٍّ دينه، حليفان ينصران بعضهما،

(1) سورة الروم، الآيات: 1/ 4.

وينصحان بعضهما، ذلك ما أقرّه النبي وبغى العمل به، دون أن يسيئه بقاء اليهود على دينهم . .

أكثر من ذلك، هو يدعوهم إلى تحكيم أسفارهم - معترفاً بها - إذ كتب إلى يهود خيبر، قبل صدامه معهم، قائلاً:

«إنّي أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم مَن كان قبلكم من أسباطكم المنَّ والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتّى أنجاكم من فرعون وعمله، إلاّ أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمّد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم» . . .

وهو هنا يشير إلى البشارات التي جاءت في الكتابين المقدّسين الصحيحين، عنه وعن الشريعة التي سيأتي بها، كما ورد في الأناجيل، تأكيداً للتوراة والأسفار، على سبيل المثال، لا الحصر:

«لذلك أقول لكم: إنّ ملكوت الله سينزع من أيديكم، ويسلّم إلى شعب يؤدي ثمره»[1] . .

«إن كنتم تحبونني، فاعملوا بوصاياي، وسوف أطلب من الأب أن يعطيكم معيناً آخر، يبقى معكم إلى الأبد، وهو روح الحق»[2] . .

«ولكن، عندما يأتيكم روح الحق يرشدكم إلى الحق كلّه، لأنّه لا يقول شيئاً من عنده، بل يخبركم بما يسمعه . . »[3].

(1) متى 23.

(2) يوحنا 14.

(3) يوحنا 16.

وهي بشارات أصرّوا على تجاهلها وإنكارها . . .

لكنّه التزم أمر الله له، في معاملته لهم بالصفح والعفو حتى لو أنكروا عليه رسالته:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وهو أيضاً استوعب أنّ دوره الإبلاغ فقط، دون الإلزام:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[2].

ولولا غدر اليهود به، وتحرّشهم بالمسلمين، ومحاولة اغتيال النبي، والتآمر مع قريش في وقعة الخندق، لدام التحالف وحسن الجوار بينهما، كأتباع دينين سماويين يشتركان في الدعوة الحنيفيّة إلى الله الواحد. . .

وتطالعنا مؤلفات علوم القرآن، تبعاً لإبراهيم فوزي[3]، *أنّ أهل يثرب كانوا يسترضعون أولادهم لدى اليهود، وهناك كانوا ينشأون على اليهودية، ولم يكن أهلوهم يجدون بأساً في ذلك، حتى بعد هجرة النبي إليهم ودخولهم الدين الجديد، ولكن المشكلة انفجرت حين أمر النبي بإجلاء اليهود، إذ لا يمكن إبقاء الأولاد المتهوّدين في يثرب،*

---

(1) سورة البقرة، الآية: 109.

(2) سورة الشورى، الآية: 6.

(3) إبراهيم فوزي – تدوين السنّة.

ويشقّ على أهليهم مفارقتهم والسماح لهم بالجلاء مع اليهود، فعمدوا إلى قسرهم على مفارقة اليهودية واعتناق الإسلام، وأمام رفض الأبناء، وتمسّكهم بيهوديتهم، كان الحل الإلهي انتصاراً رائعاً لحرية الاعتقاد، إذ أنزل الله حكمه القاطع:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

يرد في أسباب النزول للواحدي: (عن مجاهد قال: كان ناس مسترضعون في يهود بني قريظة والنضير، فلمّا أمر النبي بإجلاء بني النضير، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم، لنذهبّن معهم ولندينّن بدينهم، فمنعهم أهلهم وأرادوا أن يكرِهوهم على الإسلام، فنزلت: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾). . . وقد ورد النص نفسه لدى القرطبي. . .

ويرد في كتاب: «عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري»: (دخل أبو بكر على عائشة، وهي تشتكي، ويهوديّة ترقيها، فقال: ارقيها بكتاب الله، يعني التوراة) دلالة بالغة الأهميّة. . .

ولم يقتصر هذا الأمر على الكتابيين، بل تعدّاه إلى المجوس. . وتخبرنا كتب التاريخ *أنَّ عامل عمر بن الخطاب على البحرين كتب له أن في البحرين مجوساً، فقال عمر: والله لا أدري ما أصنع بأمرهم، إنّي لا أجد لهم شيئاً لا في كتاب الله ولا في سنّة رسوله، فأخبره عبد الرحمن بن عوف، قال: لقد سمعت رسول الله يقول: «سُنّوا بهم سنّة*

---

(1) سورة البقرة، الآية: 256.

أهل الكتاب»، فأخذ عمر بهذا الحديث وقال بتركهم على دينهم وعدم إجبارهم على الإسلام، وبمعاملتهم فيما عدا ذلك معاملة المشركين، كعدم جواز أكل ذبائحهم وعدم الزواج من نسائهم.. (1)

ألم يطالب الله نبيّه بالترفق حتى مع المشركين:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾.

ثمَّ ماذا:

﴿... ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة 6 وهي السورة قبل الأخيرة نزولاً).

لم تؤكد لنا أي من كتب التاريخ أن محمداً طالب أتباعه بالجهاد خارج حدود الجزيرة العربية، أو بقتال أهل الكتاب على أساس ديني، (دعكَ من أحاديث كاذبة نُسبَت للنبي بعد عقود حول سوار كسرى وقصور اليمن، فالقرآن حسم أنّ النبي لا يعلم الغيب)، وهو لم يؤسس لدولة تمتد حدودها خارج هذه الجزيرة لأبعد من أراضي القبائل العربية في فلسطين والعراق وبلاد الشام....

ولعلَّ أكثر الوثائق دلالةً في هذا المقام، هي الرسائل والكتب التي وجّهها النبي إلى ملوك وأمراء الدول المتاخمة للجزيرة العربية، إن جاز الوثوق من تاريخيّة هذه الرسائل (ثمّة مَن يشكّك في ذلك وينحو تجاه كونها نُسبت للنبي لاحقاً، وهذا ليس مجال مناقشته هنا).

إنَّ دراسة هذه الرسائل لابدّ وأن تمنح المصدّقين بوجودها

---

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

التاريخي يقيناً جازماً حول إدراك النبي ورؤيته لمفهوم الدعوة إلى الدين الشامل، الحنيفيّة التي جاءت بها الأديان السماويّة قبل تحريف كتبها، واعياً أنَّ رسالته ما هي إلاّ إعادة إحياء للرسالات السابقة، بأركانها وعقائدها، وعناصرها، وأنّ خطابه لأتباعه هو ذات الخطاب الذي سبق للرسل مخاطبة أتباعهم به:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ . . .﴾[1].

في مطابقة محكمة مع ميثاق دعوته. . . .

ففي رسالته إلى النجاشي، ملك الحبشة، مسيحيّ المعتقد، كتب إليه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة. . سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد. . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدوس السلام المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإنّي رسول الله، وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ، وقد بلّغت ونصحت فاقبل نصيحتي. والسلام على مَن اتبع الهدى). .

(1) سورة البقرة، الآية: 83.

وتخبرنا كتب التاريخ أن النجاشي استوعب أن كتاب محمد إليه لا يعني مطالبته بالرجوع عن دينه، إنّما بتوحيد الله توحيداً خالصاً من كلّ شائبة، والموالاة على طاعة الله، وهو فاعلها، والإيمان بما جاء به محمد من أنّه يدعو إلى دين سماوي يشترك في أسسه مع الرسالات السابقة، ولهذا قبِل الرسالة، وحمى أصحاب محمد، ولهذا أيضاً كان موقف النبي منه ايجابيّاً ومرحّباً وموافقاً، دون أن يستنكر منه البقاء على ديانته المسيحيّة، وهو صلّى عليه حين عرف بموته. . . . . .

دون أن ننسى الإشارة إلى أنّ بعض المصادر[1] تؤكّد أنّ النجاشي أسلم بدعوة النبي، دون أن يمتد ذلك إلى معاونيه وحاشيته وشعبه، إذ يرد نص ردّه على رسالة النبي كالتالي: «*بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصخم بن أبجر. . سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلاّ هو الذي هداني إلى الإسلام. . . أمّا بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ السماء والأرض أنّ عيسى ما يزيد على ما ذكرت فروقاً، إنّه كما قلت، وقد عرفنا ما بُعثتَ به، وقد قرينا ابن عمّك وأصحابه، فأشهد أنّك رسول الله صادقاً مصدّقاً، وقد بايعتك وبايعت إليك بابني أرها بن الأصخم بن أبجر، فإنّي لا أملك إلاّ نفسي، وإن شئتَ أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإنّي أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله*». . وهو نص يبدو مولفاً ومنحولاً، ومتناقضاً. . .

---

(1) مجلة الوعي الإسلامي، دون ذكر مصدرها.

وفي رسالته إلى المقوقس، صاحب الإسكندرية جريج بن مينا القبطي، كتب إليه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِم تَسلَم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

وفي رسالته إلى هرقل عظيم الروم، كتب إليه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم.. سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد.. فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِم تسلَم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم..... الآية).

أليس واضحاً أن النبي لم يهدّد ولم يتوعّد، ولم يطلب من ملوك المسيحية الثلاثة ترك دينهم، واكتفى بدعوتهم إلى الإسلام الحنيفي الذي جاء به عيسى، أي توحيد الله بتنقية معتقداتهم ممّا شابها من تحريف، والاعتراف بنبوّته والإيمان بما جاءه، كدعوة مشتركة للرجوع إلى الحنيفيّة، وحمّلهم إثم أتباعهم إن أنكروا، دون أن يتوعدهم بالقتال؟، أليست هذه دعوات لطيفة إلى (كلمة سواء)، وتبليغ ونصيحة لا أكثر، تمثّلاً لما أمره الله به: .. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ

ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1]، وأكّدها في سورة الشورى ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾[2].

ولعلَّ هذه اللهجة في الخطاب هي ما دفع النجاشي إلى إكرام رسل النبي إليه، وحماية أصحابه، وهي ما دفع المقوقس، هو الآخر، إلى إرسال الهدايا إلى النبي مصحوبة بماريا القبطية التي منحت الرسول ابنه إبراهيم. . . وقد قبل النبي هذه الهدايا بترحيب دون أن يزعجه عدم استجابة المقوقس للدخول في شرعته. .

أبلَغُ من ذلك، رسالته إلى كسرى أبرويز، عظيم فارس، المجوسي الديانة، غير الكتابي، إذ كتب إليه:

«. . .، *فإن تسلِم تسلَم، وإن أبيت فإنَّ إثم المجوس عليك*». حمَّله إثم الشرك بالله فقط، دون تهديد أو وعيد. .

أكثر من ذلك، نلحظ أنّ النبي، في أوج قوّته، إثر فتح مكة وغزوة تبوك في العام 9 هجري، لم يُلزم أيّاً من القبائل العربية التي كانت على دين اليهوديّة أو النصرانيّة بالدخول في دينه، بل العكس، فهو يمنحهم عهوداً بحريّة ممارسة معتقداتهم وطقوسهم بضمانته وحماية المسلمين، في بادرة غير مسبوقة في التاريخ، إذ كتب لنصارى نجران «. . . *ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمّة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملّتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيَعهم وصلواتهم، لا*

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 20.

(2) سورة الشورى، الآية: 48.

يغيّروا أسقفاً عن أسقفيّته، ولا راهباً عن رهبانيّته، ولا واقفاً عن وقفانيّته وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. . ومَن سأل منهم حقّاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين. . ولا يواخذ أحد منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمّة النبي أبداً، حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم. .».

وهو قبل ذلك، بعد غزوة خيبر في العام 7 هجري، كان قد كتب لعدد من التجمعات اليهودية عهوداً مماثلة، إذ بعث إلى بني جنبة قرب أيلة على خليج العقبة: «. . *فإذا جاءكم كتابي هذا فإنّكم آمنون، لكم ذمّة الله وذمّة رسوله، وإنّ رسول الله غافرٌ لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم، لا ظلم عليكم ولا عدى، وإنّ رسول الله جاركم ممّا منع منه نفسه. .*»، كما كتب لبني غاديا «*أنّ لهم الذمّة وعليهم الجزية ولا عداء*»، *ومثله لبني عريض، وليهود جرباء وأذرح بأنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمد. . .*[1]

ويثار هنا التساؤل، لماذا لم يرسل النبي دعواته إلى ملوك السند والصين وإسبانيا، البعيدين عن محيط الجزيرة العربية، إن كان قد أرسلها للقريبين؟ هل نتعلّل ببعد المسافات؟ ولم يكن ذلك فيما بعد حائلاً أمام الفاتحين. . . أم نتعلّل بعدم معرفة محمد بوجود أقوام وراء تخوم الفرس والروم؟، ولا منطق في ذلك. . أم أنّ هذا دليل على إدراك محمد لحدود دعوته؟ . . . .

هذا الإدراك الذي نراه في ممارسته العمليّة، حين نقرأ غزواته

---

(1) د. عماد الدين خليل - مدخل إلى التاريخ الإسلامي.

باتجاه شمال الجزيرة العربيّة، بدءاً من غزوة دومة الجندل في العام 5 هجري، ثم حملة عبد الرحمن ابن عوف في العام 6 هجري، ثم مؤتة، فذات السلاسل في العام 8 هجري، ومن بعدها غزوة تبوك في العام 9 هجري، وكلّها انحصرت في أراضي القبائل العربيّة، لرفع ظلم الروم عنها، وإتاحة الفرصة لها للتمتع بحريّة الاختيار، وبالتالي دخول الإسلام دون خوف أو رهبة من الروم، لمَن شاء ذلك، بالإضافة إلى قطع صلاتها بهؤلاء الروم حماية لحدود الدولة العربيّة التي أرادها إسلاميّة الطابع، وهو توقّف عند تبوك ولم يتابع جيش الروم المنهزم إلى حمص، وقيل أنّه عقد اتفاقاً مع هرقل يقضي بسماح الأخير لعرب الشمال باعتناق الإسلام، ليبدأ بعدها بالاتصال بزعماء القبائل العربيّة النصرانيّة المنتشرة في المنطقة وتلقي سفاراتهم، وعقد معاهدات الصلح والتعاون معهم، قاطعاً بذلك ولاءهم للدولة البيزنطيّة، ومحوّلاً إيّاهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلاميّة، وهو الهدف الذي كان يطمح إليه منذ بدء صراعه مع الروم، ووصولاً إلى آخر غزواته، وهي حملة أسامة بن زيد في العام 11 هجري، التي جهّزها خلال مرض وفاته، محدّداً وجهتها النهائيّة، حين أمر أسامة أن« يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين. . . » فقط . .

ولم يتجاوز أبو بكر هذا الأمر، فاقتصر همُّه على حرب مانعي الصدقة من العرب داخل الجزيرة العربية (تعمم الأدبيات الإسلامية تسميتهم بالمرتدين)، وضمن الحدود التي كانت قائمة في حياة النبي، وهو برّر ذلك:

«والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم..»، ودون أن يخطر له أنَّ الردّة الكبرى على الدين قادمة بعد سنوات، ومن داخل البيت القرشي، لا من قبائل العرب الأخرى، *وأنّ حربه هذه هي التي ستشكّل الأساس والمسوّغ للصراع القادم الذي سيقوم على معادلة السلطة في مواجهة الدين...*[1].

أمّا عمر بن الخطاب، باني الدولة ومؤسس النظام، فهو الآخر لم يخرج عن مفهوم صاحبيه لحدود الدولة الإسلامية، وخشيتهما من اختلاط أتباع الدين الجديد بالحضارات والأديان الأخرى، وما قد يأتي به من نتائج كارثيّة، تحققت فعلاً..

فلم يخطط عمر لمفهوم دولة كبرى بالامتداد الذي وصلت إليه، وهي تنساح إلى أبعد ممّا كان في ذهنه، وحتّى الوطن العربي كان في تصوّره لا يمتد إلى ما وراء الحدود الفلسطينيّة المصرية عند معبر رفح الحالي، والذي تجاوزه عمرو بن العاص، وهو يشاغل مبعوث عمر إليه، حتى يدخل إلى الأراضي المصريّة فيفتح كتاب الخليفة، وعند ابن العاص إحساس ومعرفة سابقة بعدم رغبة عمر في توسّع الفتوحات والعبور إلى مصر، فلم يفتح الكتاب إلاّ بعد تأكده من اجتياز الحدود، فأبلغ الخليفة أن جيش الفتح في الأراضي المصرية، ووضعه أمام الأمر الواقع، ووضع نفسه تحت مراقبته المستمرة وملامة مكاتبيه ومبعوثيه، أمّا عبد الله بن سرح فكانت قوّاته تمرح في سهول ليبيا.

وعلى جبهة البصرة، كان عمر يرغب بعدم ذهاب قواته إلى ما بعد

(1) محمد سعيد العشماوي - الخلافة الإسلامية.

الأحواز (عربستان حالياً) متمنياً جبلاً من نار يفصله عن بلاد فارس، فلا يقاتلهم ولا يقاتلونه، لكنَّ قادة الفتح تحمّلوا مسؤولية إقناعه بالتوغل في بلاد فارس وملاحقة مراكز القيادة الكسروية المتنقلة، والمستقرة آنئذٍ في خراسان، وتبنّى الأحنف بن قيس هذه المسؤولية في الدبلوماسيّة مع عمر، والعسكريّة في الانطلاق إلى خراسان، بعد أن أقنع عمر بأنَّ وجود كسرى في جوارهم سيثير الكثير من المتاعب، وقد انتفضت مدن كثيرة في بلاد فارس فأعاد عمر فتحها ثانيّة، وفي ظننا أن شبح الكسروية والقيصرية والخوف من الوقوع في نموذجهما، هو الذي كان يحدّد رغبة عمر في الوقوف عند مشارف ما كان يعتبره وطناً عربياً ولا يتجاوزه...

وحين فتح المسلمون أرض السواد بالعراق، أراد المقاتلون تخميسها، أي إرسال خمس الغنائم إلى بيت المال، وتوزيع الأربعة أخماس عليهم، كما جرت العادة في الغزوات والفتوحات السابقة، إلاّ أن عمر بن الخطاب رفض قسمة الأرض على المقاتلين، قائلاً: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت، ما هذا برأي... وحين خالفه الفاتحون رأيه معتبرين الأرض وعلوجها فيئاً لهم، أصرّ عمر مبرّراً رفضه بالقول: فإذا قسمتُ أرضَ العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها، فماذا تسدُّ به الثغور، ويكون للذريّة والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق... وأمام تفاقم الخلاف استشار عمر الصحابةَ من المهاجرين الأولين، فاختلفوا، فأرسل إلى عشرة من كبراء الأنصار، وقال لهم: «قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنّي

أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلماً، لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيتُ، لكنّي رأيتُ أنَّه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنَمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمتُ ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وأنا في توجيهه، قد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدّونها، فتكون فيئاً للمسلمين، المقاتلة والذريّة ومن يأتي بعدهم، أرأيتم هذه الثغور، لا بدَّ لها من رجال يلزمونها، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسّمت الأرضون والعلوج؟».. (1)

إذن، رأى عمر أنَّ لا أرض تُفتح بعد أرض كسرى، وهذه أبعد ما تصل إليه الدولة من حدود... ونعلم أنّه رفض إغراءات معاوية المتكرّرة له بغزو الروم في البحر، ونهاه عن تكرار مطالبته بذلك، وكان يقول:

«لوددتُ أنَّ الدرب جمرةٌ بيننا وبينهم، لنا ما دونه، وللروم ما وراءه» (اليعقوبي)... وقد انتظر معاوية موت عمر ليباشر ذلك بمباركة عثمان...

ولا مطعن لأحدٍ بمدى انسجام رؤية عمر مع رؤية نبيّه والتزامه بها..

أمّا ما حدث بعد ذلك من توسّع للفتوحات من أقاصي الصين إلى الأندلس، فلم تُشر أي من كتب السيَر والتاريخ أنّه كان في مخطط

(1) حسن العلوي - عمر والتشيع.

النبي ولا خليفتيه الراشدَين، وقد اختلفت الآراء في تسويغه، على أنّه إمّا كان حماسة زائدة من بعض الأتباع لنشر الدين، أو طمعاً في المغانم من بعضهم، أو توسّعاً إمبراطوريّاً، مبرّراً في حينه، من ملوكهم، أو *نضالاً تحرّرياً ضد إمبراطوريتين ظالمتين تُخضعان جلّ العالم بالسيف لنهب ثرواته واستعباد شعوبه، فقصد إلى تخليص هذه الشعوب وإتاحة الفرصة لها لسماع دعوة الإسلام من دون إكراه أو إجبار*، وفقاً لما يرى د. جمال الحسيني أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد في جامعة طيبة بالمدينة المنوّرة، الذي يستشهد بمساعدة أهل البلاد المفتوحة للمسلمين في فتوحاتهم، كما يشير إلى أنّ نسبة المسلمين في مصر بعد قرن من فتحها كانت 5% فقط، مدلّلاً على نفي الإكراه والإجبار. . . . . .

والخلاصة، المسلم هو كل مَن آمن بالله وبرسله وباليوم الآخر، وعمل صالحاً، سواء كان على دين محمد أو موسى أو عيسى عليهم الصلاة والسلام، وصام وصلّى وزكّى وذكر ربّه على شعائر أحدهم، فالجنّة مفتوحة لكل هؤلاء. . .

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤)﴾[1].

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[2].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ

(1) سورة ق، الآيتان: 33، 34.

(2) سورة مريم، الآية: 63.

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[2].

وقد بات ضرورياً أن نعيد النظر في مفهوم الجهاد انطلاقاً من هذه الرؤية... . . . أي من أن «الدين عند الله الإسلام» تشمل الديانات السماوية الثلاث على الأقل...

ولا فرق بين مسلم ومسيحيّ ويهوديّ، وإبراهيمي ضمن هذا المفهوم. . . . . . . ولا تكفير لهؤلاء ولا لتابعي المذاهب والشيَع ما داموا التقوا على الجوهر.... ثمَّ...

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4].

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾[5].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 47.

(2) سورة الأحقاف، الآية: 16.

(3) سورة السجدة، الآية: 25.

(4) سورة الحج، الآية: 17.

(5) سورة الحج، الآيات: 67/ 69.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

والآية الأخيرة هي القول الفصل في ما جرى فهمه خطأً على امتداد قرون عديدة، والخالق عزّ وجلّ ينير لنا المسألة هنا، فكلّ أتباع الشرائع السماويّة هم مسلمون، والفارق هو في الشرعة (أي الطريقة) والمنهاج (لكلّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً) الذي ألهمه لكلٍّ من رسله، فشريعة موسى *قامت على الحقوق والواجبات*، وشريعة عيسى *قامت على المحبّة، أمّا شريعة محمد فقامت على الرحمة*...[2].

واليهود هم مسلمون على شرعة موسى (غير المحرّف منها، وهم قلّة)، والمسيحيون هم مسلمون على شرعة عيسى (غير المحرّف منها)، كما أتباع محمد هم مسلمون على شرعة محمد (النقيّة، غير المتلاعب بها لاحقاً)، وما كان إطلاق تسمية المسلمين على أتباع محمد إلاّ من باب إطلاق العام على الخاص... دون أن يكون مبرّراً حصرها بهم وتضييقها عليهم، هذا الحصر الذي يبدو أنّه حصل لاحقاً، بعد قرون من وفاة النبي، ودليلنا على ذلك ما ساقه ابن هشام المتوفى سنة 213 هجرية في «السيرة النبويّة»، ناسباً إلى ابن إسحاق الكاتب الأول للسيرة، روايته حول تنصّر أهل نجران واتّباعهم المسيحيّة، والتي ننقلها بتصرّف للاختصار، يقول: *(إن أهل نجران*

(1) سورة المائدة، الآية: 48.
(2) محمد سعيد العشماوي - جوهر الإسلام.

كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها ساحر يعلّم غلمان أهل نجران السحر، فنزل القرية رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم يُقال له فيميون، وبعث الثامر - أحد أشراف نجران -ابنه عبد الله مع الغلمان إلى الساحر ليعلّمه السحر، فكان عبد الله إذا مرّ بفيميون أعجبه ما يرى منه من صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحّد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام) . . . الخ . . . ص 27/ 28، والشاهد هنا استخدام تعبير أسلم وشرائع الإسلام في معرض الإشارة إلى دين عيسى المسيح، وهو المفهوم الذي كان سائداً عن أتباع الديانات السماوية، على الأقل حتى العام 213 هجري، عام وفاة ابن هشام. . .

والجنّة مفتوحة لكلّ عباد الله، لا كما ادّعى أتباع محمد، وقبلهم اليهود والنصارى باحتكارها وحصرها كلٌّ لجماعته، ألم يستنكر الله هذا الادّعاء على اليهود والنصارى ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] . . . فهل يقبل حصرها على أتباع محمد؟ لا سيّما وقد عقّب بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] . . . .

أخيراً، ليس أفضل من القرآن مرجعاً ومستنداً، ونجد في القصص التي جاء بها القرآن، أنّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يعذّب قريةً أو يخسف بها

---

(1) سورة البقرة، الآية: 111.
(2) سورة البقرة، الآية: 112.

الأرض، أو يأتيها بصاعقة أو زلزال بسبب كفر أهلها فقط، وإنّما بسبب ظلمهم وتجبّرهم وفسوقهم ولواطهم . . . الخ، بعد أن يرسل لهم نبيّاً أو رسولاً يحذّرهم ويدعوهم إلى الصواب، وربّما تعطينا قريش مثالاً واضحاً، فهي لم تكن كافرة عابدة للأصنام فحسب، وإنّما كانت ديارها مكّة موئلاً لأصنام العرب الكفرة، فلم يخسف الله بها الأرض وإنّما أرسل محمداً لهداتيها. . . . فالله لا يعذّب على الكفر، ولكن يعذّب على الظلم:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1]، وهذا كان رأي ابن عباس، وقد توسّع فيه الفخر الرازي فقال:

1 – *إنّ عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين الشرك والكفر، بل إنّما ينزل إذا أساءوا المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾*[2].

2 – *إنّ حقوق الله مبناها على المسامحة، فالله غنيّ عن العالمين، وحقوق العباد مبناها على الضيق. .*

3 – *وبالتالي فما دام الناس مصلحين، يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح والسداد، فإنّ الله لا يعذّبهم وإن كانوا كفّاراً. . .*

فإذا كان الأمر كذلك مع المشركين والكفّار، فكيف هو بالأحرى مع المسلمين من أتباع رسل الله الآخرين. . .؟.

---

(1) سورة هود، الآية: 117.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 11.

أليس من الجهل والعنت أن نصرّ على تغييب هذه المفاهيم؟. . .
ألم يئنِ الأوان لنبذ كل خلاف ديني، ومذهبي، ومعتقدي، وإعادة النظر في مفهوم الجهاد، والعلاقة مع الآخر، ما دام الجميع مسلمين تبعاً لكلام الله. . .

بقي أن نقول إنّ هذا المفهوم للإسلام ليس مفهوماً مبتكراً، فقد جاء به، وأكّد عليه روّاد الإصلاح في الفكر الإسلامي، كجمال الدين الأفغاني الذي يلخّص لنا د. ماهر الشريف[1] مفهومه *«بأن الاقتناع بوحدة النوع الإنساني كان من ثوابت الأفغاني، الذي رأى بأن وحدة المكان جعلت الكرة الأرضيّة وطناً لكل البشر، ومن هذا الاقتناع انبثق تشديده على وحدة الأديان ووقوفه الحازم في وجه التفرقة الدينيّة، فالأديان السماوية الثلاثة كانت، في نظره، على تمام الاتفاق في المقصد والغاية، والأنبياء الثلاثة أُرسلوا وأُوحي إليهم بالتوراة والإنجيل والقرآن بهدف «إرشاد الخلق إلى الحق وإراءتهم الصراط المستقيم في الأمور التعبديّة»، ولا ينشأ الخلاف بين أهل الأديان إلاّ عندما يجري استغلال الدين، ولا سيّما من قبل بعض رؤساء هذه الأديان الذين يتجرون بالدين ويشترون بآياته ثمناً قليلاً. . . وقد تمنّى الأفغاني أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها»*. . .

أمّا الإمام محمد عبده، فيلخّص لنا الشريف رؤيته، بأنّه «من منطلق

(1) د. ماهر الشريف - تطور مفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي.

قناعته أن التفرقة الدينيّة هي نتيجة أخرى من نتائج الجهل بالإسلام الصحيح، دعا عبده إلى التأليف بين الأديان التوحيديّة الثلاثة، وأشار إلى أنّ دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء، لا تختلف إلاّ صوره ومظاهره، وأمّا روحه وحقيقته، ممّا طولب به العالمون أجمعين على لسان الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغيّر: إيمان بالله وحده، وإخلاص له في العبادة، ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير وكفّ أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا...»، ويشير الشريف، بالاستناد إلى بعض المصادر أنّ الإمام شكّل خلال إقامته في بيروت، بالتعاون مع عدد من الشخصيّات الإسلاميّة، جمعيّة سريّة غرضها التأليف بين الإسلام والمسيحيّة واليهوديّة، كان من أعضائها قسٌّ انجليزي يدعى اسحق تيلر، أصبح داعية لها في بريطانيا، وفي إحدى رسائله إلى هذا القس، أكّد عبده أنّ نشاط هذه الجمعيّة ضروري كي يتم «نور الله ويظهر دينه الحق على الدين كلّه»..

ومثلهما، كذلك، عبد العزيز الثعالبي، الذي «توقّف مطوّلاً عند مسألة التأويل الصحيح للقرآن، والخطأ الذي يقع فيه المفسّرون في أحيان كثيرة، ضارباً عدّة أمثلة على ذلك، من بينها الخطأ الذي وقع لدى تفسير الآية 85 من سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فرأى بأنّ المقصود بالمسلم في هذه الآية، وخلافاً للتفسير «الضيّق الشائع» هو مَن آمن بالشريعة الإلهيّة، وليس فقط مَن تبنّى الدين المحمدي، بحيث يكون في عداد المسلمين كلّ من إبراهيم وإسحاق وموسى وداود وعيسى»... وأتباعهم.

ختاماً، تستثيرنا هنا اقتباسة من مقالة لمهتدي غالب، في ردّه على الصادق النيهوم[1] يقول:

(في دولة الإسلام النبويّة كان المسلم والمسيحي وحتى الوثني يتمتعون بالمزايا نفسها، وتحافظ دولة الإسلام على حقوقهم كمواطنين صالحين، إلاّ مَن كان يحاول هدم هذا النظام الاجتماعي، فكلّهم سواسية أمام الحاكم والمحكوم.

وبعد العهد النبوي الذي كان فيه الموحى إليه موجوداً، كانت هناك ديمقراطية، وكانت المضامين الحضارية لدستور العدل الإلهي الشامل، مطبّقة من خلال النظام الاجتماعي الذي بناه الرسول الأعظم محمد بن عبد الله من خلال فهمه الشامل لهذا الدستور، أمّا ما حدث بعد ذلك من شروخ فردية أدّت إلى تفكّك هذا النظام واستقلال كل لبنة بما تراه صحيحاً، والقمع وردّة الفعل عليه، ففجّر الإسلام كنظام اجتماعي من الداخل، وأدّى إلى انهيار دولته، لأنّها ابتعدت عن المضامين الحضارية لدستور العدل الإلهي الشامل.

وما أراني قادراً على اتهام أي (دين) أو مذهب أو طائفة أو فرع من فروع الإسلام بالكفر والإلحاد، لأنَّ الخالق هو القادر على أن يميّز ويحاسب ويعاقب رؤية هذا الطرف على صراطه المستقيم، ولا علاقة لي بذلك إلاّ من حيث علاقة هذا الآخر بي، أي علاقة «دنيوية اجتماعية»، أمّا العلاقة «الأخروية» أو الروحية فلماذا لا تُترك لمبدع

---

(1) الصادق النيهوم - إسلام ضد الإسلام - شريعة من ورق.

هذا الدستور الإلهي الشامل يحكم فيها؟، إنّما تدخّلنا في صلاحيات الخالق جعلنا نتناسى مضامين دستوره، وأغرقنا في متاهات أدّت إلى التمزّق والتشتّت، فالإسلام بصورته الحالية البعيدة جداً عن المضامين الحضارية لدستور العدل الإلهي الشامل، غير قادر على إقامة أي عدالة لأنَّ معظم مسلمينا غير عادلين، ويبحثون في السماء أكثر ممّا يبحثون في الأرض، وأمر السماء للخالق، والأرض للمخلوقات....).

الإضاءة الثالثة

مَن هم صحابة النبي؟

(التعميم الغبي حول أصحاب النبي)



تمنح الأدبيات الإسلامية مقاماً شبه مقدّس لصحابة النبي، وتترادف أسماؤهم عادة مع تعبير (رضي الله عنه، أو عنهم) كلّهم دون تمييز.

وتزخر كتب الحديث النبوي بأحاديث منسوبة إلى النبي، جاء بها بعض (الصحابة) المسلّم بأنهم ثقات صالحون، دون التفات إلى تعارض معظمها مع النص القرآني، وغرابة نسب معظمها إلى نبي الله.

فمن هم هؤلاء الصحابة تحديداً؟ وما مدى صحة ركوننا إلى الوثوق بهم كمصادر لحديث نبوي بات يحتل الصدارة، والسبق على القرآن، في تحديد أركان وعناصر تشريعنا، وسلوكيّاتنا؟

يورد د. بكر شيخ أمين تعريفاً للصحابي، يقول: «*الصحابي، عند المحدثين، هو من لقي النبي مؤمناً به، ومات على الإسلام. . . ويتابع: وهذا التعريف هو من أصح ما نُقل إلينا عن العلماء الأثبات، فهو يشمل كل فرد توافرت فيه لقيا النبي على الإسلام، وموته على ذلك، دون تفريق بين إنسان وآخر مهما كان جنسه أو لونه أو بلده. . ومن جهة ثانية فإنا نفهم من هذا التعريف أن الصحابي هو من لقي النبي، طالت مجالسته أو قصرت، روى عنه أو لم يروِ، غزا معه أو لم يغزُ، رآه رؤية ولم يجالسه، كذلك من لم يره لعارض كالعمى*»[1].

---

(1) بكر شيخ أمين - أدب الحديث النبوي.

كذلك ذهب بعض أصحاب الشافعي إلى أن من صحب النبي لحظة فهو صحابي، ويمثل هذا الاتجاه /الكلوذاني الحنبلي/ الذي احتذى الموقف الظاهر من كلام ابن حنبل، فهو يرى أن اسم الصحابي: (*يقع على كل مؤمن رأى النبي، وصحِبه متّبعاً له ولو لساعة*)، مع أن اللغة تدلنا أن الصاحب هو المعاشر[1]، والمعاشرة تفترض مجالاً زمنياً متّسعاً[2].

أما ابن حزم فيعتبر أن الصحابي: (*هو كل من جالس النبي ولو لساعة، وسمع منه ولو كلمة فما فوقها، أو شاهد منه أمراً، ولم يكن من المنافقين، ولا مثل من نفاهم النبي، فمن كان كما وصفنا فهو صاحب، وكلهم عدل، إمام، فاضل، رضيّ، فرض علينا تعظيمهم وتوقيرهم*)[3].

ويشاركه الباجي، فيعتبر أن (*الصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم، وتفضيل النبي لهم، فلا يُحتاج إلى السؤال عن حالهم، ولا إلى البحث عن عدالتهم*).

ونسأل: هل هذا التعميم والإطلاق صحيحان؟!

وهل التعاريف دقيقة؟ وهل يمكن الركون إليها وشمول كل هؤلاء تحت مسمّى (صحابة رسول الله)، والتعامل معهم على هذا الأساس، وقبول ما ادّعوا نقله عن النبي؟ واعتباره أساساً مكيناً لشرعنا وفقهنا؟؟...

---

(1) ابن منظور - لسان العرب / الشوكاني - إرشاد الفحول.
(2) ابن حجر العسقلاني - الإصابة في تمييز الصحابة.
(3) حمادي ذويب - السنّة بين الأصول والتاريخ.

وهل رضي الله عن كل هؤلاء؟!

تعبير: رضي الله عنه إذا كان في مقام الدعاء، بمعنى أن نقصد بالعبارة: ندعو أن يرضى الله عن فلان، كما ندعو بالقول: رحمه الله فلا مشكلة هنا، وهو دعاء جائز ندعوه لكلّ عباد الله، ونترك له عزّ وجلّ القبول أو الامتناع، وهو العليم الخبير. أما إذا كان في مقام تقرير واقع، أي إننا نقرّ أن الله قد رضي عن فلان بالدرجة ذاتها من اليقين التي نقول فيها: صلى الله على سيدنا محمد، فإننا أمام مشكلة هنا...

أبسط الأمثلة، هل نقول: (رضي الله)، عن أبي سفيان مثلاً، كما نقولها عن أبي بكر أو علي؟ وهو الذي كان أشرس أعداء الإسلام، وأشدّ الخصوم عداوةً للنبي والرسالة، واستسلم عند فتح مكة، دون برهان على إسلامه الصحيح...؟

(يورد الطبري حادثة إسلام أبي سفيان عند فتح مكّة، وانتصار الرسول على قريش، *أنّ العباس أخذ أبا سفيان إلى النبي، فقال له النبي: «ويحك أبا سفيان، ألم يئن لك أن تعلم أنّ لا إله إلاّ الله؟»، فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً، **أمّا هذه ففي النفس منها شيء***). ونعرف أنّ نفس أبي سفيان لم تؤمن حقاً، وأنّه لم يقتنع بنبوّة محمد في لحظات هزيمته تلك، إذ وقف بعد ساعات مع العبّاس، عند خطم الجبل، بناءً على أمر النبي، حتّى تمر به جنود الله فيراها، ليقول للعباس: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك الغداة عظيماً، في إنكار للنبوّة، وتأكيد على المُلك، ليجيبه العباس: يا أبا سفيان إنها النبوّة، فيقول مستسلماً: فنعم إذن....

(وتزودنا السيرة النبوية لابن هشام بجانب آخر يتعلق بهند بنت عتبة، زوج أبي سفيان، وردّة فعلها على استسلام زوجها، إذ قامت إليه وأخذت بشاربه، وصاحت: «*اقتلوا الحَميت الدّسمَ الأحمس، قُبِّحَ من طليعة القوم*»، ودون أن ننسى أن تزاوج هذين أنتج للأمّة معاوية بن أبي سفيان.

ثم هل نعتبر أنَّ كلَّ من يشملهم التعريف السابق، هم (صحابةٌ ثقات) نقبل كل ما قالوا إنهم سمعوه عن النبي؟

هل كان الجميع مخلصين لوجه الله، لا تشوبهم شائبة، ولا تطالهم النوازع البشرية، خيرها وشرّها؟!

وهل هم بعد وفاة النبي ذاتهم قبل وفاته؟!

ألم تتغيّر نفوسُهم؟

ألم تداخلهم الأطماع، وتتجاذبهم المواقف؟

ألم يكذب معظمهم على لسان النبي؟

ألا يعطينا أصحاب موسى وأصحاب عيسى والأنبياء الآخرين عليهم السلام مثالاً عن البطانة المحيطة بالنبي أو القائد أو الملك، عبر التاريخ؟ ألم ينقلب أتباع موسى ما إن غاب عنهم أربعين يوماً، رغم ما شهدوا عنه من معجزات خارقة؟ ألم يكن يهوذا الأسخريوطي الذي خان السيّد المسيح وسلّمه لأعدائه، أحدَ حوارييه الاثني عشر المقرّبين؟ أكثر من ذلك، ألم يكن الأبناء العشرة للنبي يعقوب، أحفاد النبي إبراهيم، مجرمين قاتلين ألقوا بأخيهم يوسف النبي في غيابة الجب، وكذبوا على أبيهم قرابة أربعين عاماً؟ أم نتقبل الادّعاء بأن

أصحاب محمد كانوا كلّهم مختلفين عن هؤلاء، وأنهم من طينة متميّزة من البشر؟!!

مع علمنا أن معظمهم كانوا أعداء أشداء لمحمد ودينه، قبل إسلامهم.......

باشر النبي دعوته بين أهله وأصحابه المقربين، ثم توسّع لدعوة قريش، فلبّته مجموعاتٌ صغيرةٌ محدودةُ العدد، لم يتجاوز عددُها، حتّى الهجرة، أكثرَ من مائة وأربعة وخمسين، حسب ابن إسحاق، هؤلاء تحملوا مشقّات إسلامهم، وعانوا ظلمَ قريش لهم، وهاجروا في سبيل الله حفاظاً على دينهم، وهم كانوا قريبين من النبي الذي تفرّغ لهم، يحاورهم ويتفقدهم ويعلّمهم القرآن ممّا ينزل عليه تباعاً، دون أن يشغله عن ذلك أي شاغل آخر..

ثم كانت هجرة النبي إلى المدينة قفزة هائلة في مسيرة الدين الجديد، بات أتباع محمد بعدها يُعَدون بالآلاف، لتتوسع الدائرة وتتزايد الأعدادُ عاماً بعد عام، ولم يعد دورُ النبي مقتصراً على النبوة والرسالة فحسب، بل بات عليه - بالإضافة لذلك - أن يقوم بدور الحاكم الموجّه لمجتمعٍ جديد بدأ يشكل نواةً لدولةٍ تتعاظم، لتصبح بعد حين أكبر إمبراطوريات عصرها، ودورِ قائدٍ عسكري يخطط للدفاع عن الدين الجديد ونشره حوله..

وفي الحالتين، بين العشرات في مكة والآلاف في المدينة، كان للنبي نخبةٌ من الرفاق والأصحاب، هم حلقةٌ لم يتجاوز عددُها بضعةَ أفراد في الأولى، ثم أكثر قليلاً في الثانية، كانوا يترددون إليه، يناقش

معهم واقعَ الدين والمجتمع والجيوش، وهم ينقلون بدورهم توجيهاته وتعليماته وقراراته إلى جموع المسلمين.

تخبرنا سيرة ابن هشام، أن عبد الرحمن بن عوف اختلف مع خالد بن الوليد، حين قتل خالد من بني جذيمة رغم إسلامهم، بعيد فتح مكّة، فلمّا تشادّا، قال النبي لخالد: **«مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فو الله لو كان لك أُحُد ذهباً ثمّ أنفقته في سبيل الله، ما أدركتَ غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»**..

أي إنّ محمّداً لم يساوِ بين أتباعه، بمن فيهم مَن كان بموقع خالد بن الوليد، وهو جعل ذلك صريحاً وواضحاً لهم...

إذن، كان هناك أصحابٌ للنبي، وكان هناك أتباعٌ معاصرون له، وكلُّ الأصحاب كانوا أتباعاً ومعاصرين له، في حين لم يكن كلُّ الأتباع والمعاصرين أصحاباً له، والفرق كبيرٌ بين الحالتين، لماذا؟

بحكم منطق الأمور أولاً..

وبحكم أن الله عزّوجلّ ورسولَه ميّزا بينهم، مما يلزمنا بالتمييز، ثانياً.

ولضرورة اليقين من مصداقية بعضهم، ورفضِ مصداقية بعضهم الآخر فيما نقلوا عن رسول الله ثالثاً.

وكيلا يؤخذ الصالحون، وهم كثر، بجريرة الطالحين، وهم كثر أيضاً، رابعاً.

وتخبرنا كتب السيَر والتأريخ أنَّ إسلام أتباع محمد كان على ألوانٍ

متعدّدة ووجوه شتّى، لخّصها معروف الرصافي[1] بالوجوه التالية:

- إيمان عقلي علمي، يستند إلى العقل والعلم بما وراءه من غاية مطلوبة، كإيمان أبي بكر الصدّيق. . .

إيمان تبعي، كإيمان خديجة وبنات النبي، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة. .

- إيمان إقناعي، كإيمان عثمان بن عفّان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، وطلحة بن عبيد الله التيمي، ممَّن أسلموا بدعاية أبي بكر لهم. .

- إيمان حميوي، نسبة إلى الحمية بمعنى الأنفة والنخوة، كإيمان حمزة عم النبي، الذي أسلم نكايةً بأبي جهل حين أساء إلى النبي في غياب حمزة. .

- إيمان فطري، كإيمان أبي ذر الغفاري، الذي كان من المتألهين قبل أن تبلغه دعوة محمد، وأسلم ما إن سمع بها. .

- إيمان بلاهي، كإيمان سودة بنت زمعة. . .

- إيمان انتفاعي، كإيمان حبيب بن يساف الذي خرج مع المسلمين في بدر وهو غير مسلم، وحين ردّه النبي، أسلم رغبة في الغنيمة. .

- إيمان نكاحي، كإيمان أبي سليم، الذي كان مشركاً، وخطب أمّ سليم وهي مسلمة، فقالت: والله ما مثلك يُرَدُّ، ولكنك كافر وأنا مسلمة ولا يحلّ أن أتزوجك، فإن تسلم فهذا مهرك ولا أسألك غيره، فأسلم وتزوجها. .

---

(1) معروف الرصافي - الشخصية المحمديّة.

- إيمان قهري، كإيمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وأبي سفيان وآله، وغيرهم من الكثيرين ممّن أسلموا استسلاماً بعد فتح مكّة، ودخلوا في دين الله أفواجاً..

- إيمان جنائي، كإيمان المغيرة بن شعبة، الذي غدر فقتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، واستلبهم هدايا المقوقس لهم، بعد أن أسكرهم بالخمرة، ولم يجد مهرباً إلاّ القدوم إلى النبي وإعلان إسلامه، وتسليم الغنيمة، التي رفضها النبي، وإن قبلَ إسلامه..

- إيمان كيدي، كإيمان عبد الله بن سلام وإخوانه من اليهود الذين أسلموا ليكيدوا لأهل الإسلام، كما ثبتَ عنهم لاحقاً..

ونضيف:

- إيمان وقائي: كإيمان جبلة بن الأيهم الذي كان مسيحيّاً، ولما رأى هزائم بيزنطة أمام جيوش المسلمين، كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بإسلامه وإسلام بني غسّان، وقابل عمر، ثمّ ارتدّ لاحقاً....

- إيمان ولائي، كإيمان الذين اتبعوا آباءهم، والأهم الذين اتبعوا رؤوس قبائلهم، فقد رأينا زعيم القبيلة يسلم، فيتبعه كلّ أو أكثر أهل قبيلته، بل ويرتدّون معه حين يرتد..

هل يستوي كلّ هؤلاء، برأي عاقل؟...

فما الذي قاله القرآن في بعض مَن كانوا مصاحبين للنبي:

لنتابع:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ

ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[4].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ۚ﴾[5].

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[6].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ

---

(1) سورة الجمعة، الآية: 11.

(2) سورة المنافقون، الآية: 3.

(3) سورة الصف، الآيتان: 2/ 3.

(4) سورة الممتحنة، الآية: 1.

(5) سورة الحديد، الآية: 10.

(6) سورة الحديد، الآية: 16.

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[1].

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[4] (ما أفضتم فيه: المقصود من حديث الإفك).

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5].

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 15.
(2) سورة محمد، الآيات: 36/ 38.
(3) سورة النور، الآية: 11.
(4) سورة النور، الآيتان: 14/ 15.
(5) سورة النور، الآية: 17.
(6) سورة النور، الآية: 47.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[2].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[3].

ولنلاحظ أنَّ كل هذه الآيات مدنية، أي نزلت في المدينة، بعد أن كثر أتباع محمد، واختلط الحابل بالنابل، وبات الدخول في الإسلام بالنسبة للكثيرين فرصةً ومغنماً، ولم يعد قناعةً راسخةً، ومغامرةً صعبة، كما كان الحال في مكّة.....

كانت سورة (التوبة) السورة قبل الأخيرة نزولاً، وكأنّما أراد الله تعالى أن يلخّص فيها حال أغلب المحيطين بمحمد فخصّص لهم بضع (آيات)، وقد سُميّت بالسورة الفاضحة، لأنّها أظهرت حقائق الكثير منهم تبعاً لزكريا أوزون:

فهم يتهرّبون من الجهاد في سبيل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[4].

---

(1) سورة النور، الآية: 63.
(2) سورة النساء، الآية: 81.
(3) سورة التوبة، الآية: 58.
(4) سورة التوبة، الآية: 38.

والله يتوعّدهم بالعذاب وباستبدالهم:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ويسجّل عليهم عدم نصرة النبي:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾[2].

ويكشف كذبهم:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[3].

وكفرهم:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[4].

ونفاقهم:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[5].

---

(1) سورة التوبة، الآية: 39.
(2) سورة التوبة، الآية: 40.
(3) سورة التوبة، الآية: 42.
(4) سورة التوبة، الآية 54.
(5) سورة التوبة، الآية: 101.

توعدهم بعذاب أكبر من عذاب الكافرين... وهو عَزَّوَجَلَّ كان قد لعنَ المنافقين (شاملاً بعض أهل المدينة) وأمر بقتلهم حيث وجدوا، إذ قال في سورة الأحزاب:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾[1].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2].

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾[3].



وبعد... أليس من الكفر إغفال كلام الله الحق ووصفه لحال معظم مَن نسمّيهم (صحابة)، والتمسّك بعكس ذلك ممّا حاول فقهاء السلطان إقناعنا به...

أمّا في الحديث الشريف، فقد ورد عن أصحاب النبي:

أورد مسلم في صحيحه، عن حذيفة عن النبي أنّه قال: (في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنّة، حتى يلج الجمل في سم الخياط).

وقد ورد في السيرة الحلبية، أن حذيفة بن اليمان كان يقال له

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 60/ 61.
(2) سورة التوبة، الآية: 84.
(3) سورة التوبة، الآية: 74.

صاحب سر رسول الله، وقد أسرّ له النبي فقال: «**إنّي مسرّ إليك سرّاً فلا تذكره، إنّي نُهيت أن أصلّي على فلان وفلان**، وعدّ جماعةً من المنافقين». . ولم يورد حذيفة هذا الحديث إلاّ بعد وفاة النبي، دون ذكر الأسماء، فكان عمر بن الخطاب خلال خلافته إذا مات الرجل ممّن يظنّ به أنّه من أولئك الرهط المنافقين، أخذ بيد حذيفة فقاده إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حذيفة صلّى عليه عمر، وإن انتزع يدَه من يدِه ولم يمشِ معه ترك الصلاة عليه. . .

كما روي عن جابر بن سمرة، عن النبي أنّه قال: (**إنَّ بين يديَّ الساعة كذّابين فاحذروهم**).

وأورد البخاري، عن سعيد بن المسيّب عن أبيه، أنّه كان يحدّث عن أصحاب رسول الله، فروى حديثاً قال إنّه سمعه من النبي يقول فيه: (**يرد عليّ الحوض رجال من أصحابي، فيُجلَون عنه، فأقول: يا رب، أصحابي، فيقال: إنّك لا تعلم بما أحدثوا بعدك. . إنّهم ارتدّوا على أعقابهم القهقرى**).

وفي ما أخرج الحاكم في المستدرك: قالت أمّ المؤمنين، أم سلمة لعبد الرحمن بن عوف: يا بني أنفق فإني قد سمعت رسول الله يقول: (**إنَّ من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه**). . . . .

إن صحّت الأحاديث، فهذه شهادة من النبي في أصحابه المقرّبين، فما بالنا بالآخرين الأبعد قليلاً، ولِمَ نهمل قول النبي ونصرّ على إضفاء قداسة كاذبة على الجميع؟.

أورد البخاري ومسلم والترمذي، عن جابر بن عبد الله قال: بينما

كنّا نصلّي مع النبي إذ أقبلت عيرٌ تحمل طعاماً، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي إلاّ اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾........

هل نقبل رواية الحديث عن مثل هؤلاء، الذين انفضوّا عن النبي في حياته لأجل قافلة... أليس من حقنّا أن نشك بأنهم انفضوا عنه أبعد بعد مماته، فكذبوا على لسانه لأجل المال أو السلطان أو الغرض... ليت راوي هذا الحديث عدّد لنا مَن هم الاثنا عشر رجلاً الذين بقوا مع النبي........

وإذا كانت الشكوك تدور حول صدق إسلام الكثيرين ممَّن أعلنوا إسلامهم بعد انتصارات النبي وأتباعه، طلباً للسلامة، أو بحثاً عن موقع ومغنم ودور، أو طمعاً في الغنائم، فإن الأمر يبدو أكثر سوءاً حول القرشيين الذين استسلموا يوم فتح مكّة، وأتيح لهم لعب أدوار هامّة في تاريخ الدين والدولة، ناهيك عن روايتهم لأحاديث الرسول.

يقول إبراهيم فوزي: *أمّا الذين أسلموا بعد فتح مكّة، وكانوا ممّن حارب النبي قبل فتحها، فلا يعتبرون من الصحابة، وهم الذين نعتهم القرآن بالكفّار في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقالوا إنَّ إسلامهم بعد أن غلبوا على أمرهم لا يجعلهم من الصحابة، ولا يعتبرون عدولاً فيما نقلوه عن النبي من أحاديث إلاّ بعد البحث عن عدالتهم*[1].

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

فما الذي أوردته كتب السيَر عن بعض (الصحابة)؟:

هرب الكثير من (صحابة رسول الله) يوم أحد، إلاّ قليلاً منهم دافعوا عنه وحموه، وكذلك فعلوا يوم حنين... وقد عاير عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفّان بهروبه يوم أحد، فأجاب عثمان: «إلاّ أن الله قد عفا عنّي، ولقد فعلنا أفعالاً لا ندري أغَفَرَ الله أم لا»[1].

قال الإمام الواحدي: قال المفسّرون: قدم المهاجرون المدينة، وفيهم فقراء ليس عندهم أموال، والمدينة غالية الأسعار، شديدة الجهد، وفيها نساء بغايا مسافحات، فرغب في كسبهنَّ (أموالهنَّ) أناسٌ من المهاجرين الفقراء... فقالوا: لو أنّنا تزوجنا منهنَّ، فعشنا معهنَّ إلى أن يغنينا الله تعالى عنهنَّ.. فاستأذنوا الرسول في ذلك.. فنزلت آية:

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[2] وحرَّم فيها نكاح الزانية صيانة للمسلمين عن ذلك[3].

عن عكرمة عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى رسول الله وقال: (إنّ امرأتي لا تمنع يدَ لامس..)، فقال النبي: غرّبها، قال: أخاف أن تتبعها نفسي.. قال: فاستمتع بها[4].

إن صحّت الرواية، فهذا أحد النماذج عن (صحابي) لا تردّ امرأته يدَ لامس.

---

(1) تاريخ اليعقوبي ص 169.
(2) سورة النور، الآية: 3.
(3) أسباب النزول ص 152.
(4) سنن أبي داود - ج 2 - ص 220.

نقرأ في «تفسير القرطبي» أنّ الصحابي القريب من النبي، وأحد أبناء عمومة زوجه عائشة، طلحة بن عبيد الله، حين استاء النبي من ملاقاته عائشة، قال: أيحجبنا محمّد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا، لئن حدث به حدث (أي لئن مات أو قتل) لنتزوجن نساءه من بعده، وهي مقولة أغضبت الله فأنزل الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[1].

ونقرأ في «السيرة الشاميّة» للصالحي الشامي، وفي «**أسباب ورود الحديث، أو اللمع في أسباب الحديث**» للسيوطي، حول ما واجهه النبي فيما يخص مشكلة (المغيبات) وهنّ زوجات العسكر الخارجين في الغزوات والسرايا، والإجراء الذي اتخذه بالنهي الصريح لأتباعه بعدم طروق زوجاتهم ليلاً، أي الدخول عليهنّ ليلاً حين عودتهم من القتال، حتّى لا يفاجأ المجنّد العائد بزوجته في موقف يكدّر خاطره... عن عبد الرحمن بن حرملة قال: لمّا نزل النبي بالمعرّس، وهي موضع النزول بالليل، أمر منادياً فنادى: لا تطرقوا النساء، قال: فتعجّل رجلان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلاً، فذكر ذلك للنبي فقال: قد نهيتكم أن تطرقوا النساء.. أورده عبد الرزاق في مصنّفه.

يورد السيوطي: أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن يعلى بن حكيم عن زيد ابن أسلم أنّ عمر خطب الناس، فقال: لا تشكّوا في الرجم فإنّه حقّ، *(مشيراً إلى رجم الشيخ والشيخة إذا زنيا، وهي غير واردة في نص القرآن)، ولقد هممتُ أن أكتبه في المصحف فسألت أبيّ*

(1) سورة الأحزاب، الآية: 59.

بن كعب فقال: أليسَ أتيتني وأنا أستقرؤها رسول الله فلدفعت في صدري، وقلت: تستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحمر[1] . . . إن صحّ ذلك، دلّ أنّ أكثر المحيطين بالنبي ممّن نصرّ على تسميتهم بالصحابة كانوا غارقين في الزنا في زمن النبي، وتسافد الحمر هو تناكح الحيوانات دون ضابط . .

يورد السيوطي، أيضاً، حول سبب نزول الآية 59 من سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، *ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» عن أبي مالك، قال: كان نساء النبي يخرجن بالليل لحاجتهنّ، وكان ناسٌ من المنافقين يتعرّضون لهنّ فيُؤذَين، فشكوا ذلك، فقيل ذلك للمنافقين، فقالوا إنّما نفعله بالإماء، فنزلت الآية*[2] . . . فإذا علمنا أنّ سورة الأحزاب نزلت في الربع الأخير من الدعوة - بعد وقعة الخندق - وأنّ مجتمع المدينة كان إسلامياً شبه صرف، فإنّ هذا يعني أنّ بعضاً من المسلمين، معاصري النبي، كانوا يتحرّشون بالنساء حين خروجهنّ لقضاء حاجاتهنّ، دون رادع ديني أو أخلاقي، أو خوف من عقوبة، وأن سفههم كان يصل إلى التحرّش حتّى بنساء النبي ذاته، وأنّهم كانوا معروفين، بدليل قول أبي مالك: فقيل ذلك للمنافقين، كما أن عذرهم كان أكثر قبحاً من ذنبهم، إذ اعترفوا بأنّهم يفعلون ذلك بالإماء، وكأنّ الإماء لسن من عباد الله. . . .

---

(1) السيوطي - الإتقان في علوم القرآن.
(2) السيوطي - لباب النقول في أسباب النزول.

عن يحيى بن كثير، عن عطاء بن السائب، قال: كنّا عند عبد الله بن الحارث، فقال: أتدرون لمَن قال رسول الله: (مَن كذب عليّ فليتبوّأ مقعده من النار)؟، قلنا لا، قال: إنّما قال ذلك من قِبَلِ (عبد الله بن أبي جذعة)، أتى ثقيفاً بالطائف، فقال: هذه حلّة رسول الله، أمرني أن أتبوأ أيَّ بيوتكم شئتُ.. (أي أن يجامع زوجة أو ابنة أيٍّ فرد منهم).. فقالوا: إنَّ عهدنا برسول الله يحرّم الزنا، فسنرسل إليه رسولاً... فسار رسول إلى النبي، وقدم عليه عند الظهر، فقال: يا رسول الله، أنا رسول ثقيف إليك، إنّ ابن أبي جذعة أتانا فقال: هذه حلّة رسول الله، أمرني أن أتبوأ أيَّ بيوتكم شئتُ، فقلنا له: هذه بيوتنا، فتبوأ أيّها شئتَ.. فانتظر سواد الليل، وقال: أتبوأ أيَّ نسائكم شئتُ، فقلنا: عهدُنا برسول الله يحرّم الزنا... فغضب الرسول غضباً شديداً لم أرَ أشدَّ منه.. ثم أرسل رجلين ليقتلاه ويحرقاه بالنار.. فانتهيا إليه، فوجداه قد مات بلدغة حيّة، فنبشا القبر وأحرقا الجثّة.

ونقرأ في سبب نزول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾[1] أنَّ نفراً من (الصحابة) مرّوا برجلٍ من بني سليم، وهو يسوق غنماً، فسلّم عليهم بسلام الإسلام، فقالوا ما سلّم علينا إلاّ تقيّة، فقتلوه واستاقوا غنمه...

ولمن يصرّون أنّ الإسلام شذّب نفوس كلّ تابعيه، وأنّ دعوى

(1) سورة النساء، الآية: 94.

الجاهلية بطلت في الإسلام، نسوق قصّة الحارث بن سويد، كما جاءت في السيرة الحلبية، إذ كان لحارث ابن السويد ثأرٌ لدى المجذَّر بن ذياد، الذي قتل أباه السويد انتقاماً لقتله أباه ذياد، وكان ذلك أيام الجاهلية، ثمَّ أسلم كلاهما، الحارث والمجذّر، وصار مفترضاً أنَّ الإسلام غسل القلوب، ولا سيّما أنَّ الدماء تكافأت بينهما، إلاّ أن الحارث لم يتناسَ جاهليته، رغم أنّه كان ممَن شهدوا بدراً ونالوا امتياز ذلك بين المسلمين، فلمّا كان يوم أحد أتى مجذّراً من خلفه وضرب عنقه فقتله، وقد غضب النبي وأمر بالحارث فضربت عنقه جزاءً..

ولا تنسى السيرة الحلبية، أن تذكر لنا قصّة خالد بن الوليد حين بعثه النبي إلى بني جذيمة، وهم قوم أسلموا، وكانوا سبق وقتلوا عمّه الفاكه بن المغيرة وأخاه في الجاهلية، فقتل خالد رهطاً منهم ثأراً لعمّه وأخيه، وهي حمية جاهليّة فيه لم يغسلها الإسلام، وقد غضب النبي وقال: «اللهم إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد» ثلاثاً، وهمَّ عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب بخالد، لكنّ النبي عفا عنه واغتفر فعلته التي فعلها بدعوى الجاهليّة..

وقد أورد ابن كثير، القصّة، متحدّثاً عن قتل خالد للمسلمين من بني جذيمة، فقال: «وإنّه قتل طائفة كثيرة منهم وأسر بقيّتهم، وقتل أكثر الأسرى أيضاً»[1]...

كما أورد ابن هشام القصّة ذاتها، متوسعاً في الجدل الذي دار بين عبد الرحمن بن عوف وخالد، حتّى كان بينهما شرٌ، فبلغ ذلك النبي

(1) ابن كثير - البداية والنهاية.

فقال: «مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أُحُد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله، ما أدركتَ غدوة رجل من أصحابي ولا روحتَه»[1] . . . . في دليل هام يشير إلى أن الله والرسول لم يضعا كلّ (الصحابة) في ذات المقام، بعكس ما يفعله جهلاؤنا . . . .

وأمّا أمر الغلول، فيرينا جانباً آخر من سلوك بعض (الصحابة)، ومدى أمانتهم، والغلول مصدر غلَّ الشيء إذا أخذه في خفية ودسّه في متاعه، أي سرقه خفيةً، ونعلم أن القرآن حدّد للمسلمين طريقة وسبيل توزيع مغانم الحرب والغزو، فكان جمع الغنائم بتمامها بعد المعركة، بغية توزيعها الصحيح، يتوقّف على أمانة الغانمين وامتناعهم عن أخذ شيء منها قبل قسمتها، فهل كان كلّهم ذوي أمانة وعفة نفسٍ أمام إغراءٍ مثل هذا؟ الجواب هو لا، وتتعدد الروايات في كتب السيَر حول هذا الأمر، فتذكر حالات كثيرةً غلّ فيها أصحاب النبي، منهم غلامه مدعم الذي قال فيه «إنَّ الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم، لَتشتعلَ عليه ناراً»، ومنهم أحد أصحابه قُتلَ يوم خيبر، فامتنع عن الصلاة عليه، وقال لأصحابه: «صلّوا على صاحبكم، إنَّه غلَّ في سبيل الله»، ففتشوا متاعه فوجدوا خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين، وآخر قال عنه إنّه في النار، فوجدوا عباءةً قد غلّها، ومثل هذا كثير، استلزم نزول قرآن يشدّد العقوبة على الغالّين، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾[2].

---

(1) ابن هشام - السيرة النبوية.

(2) سورة آل عمران، الآية: 161.

وتوحي لنا قصّة (الصحابي) عبد الله بن سعد بن أبي سَرح بالكثير. . فهو كان لبعض الوقت واحداً من كَتَبَة الوحي الذين كلّفهم الرسول بتدوين ما يوحى إليه، ثمَّ ارتدَّ عن الإسلام ومضى إلى مكّة وانضم إلى القرشيين، وبات يدّعي أنّه كان يغيّر من كلمات الوحي، وأن محمداً كان يوافقه، ممّا يدلّ أنّه لم يكن وحياً ولكنّه ابتداع من محمّد، وقد كان أحد الذين أباح النبي دمَهم يوم فتح مكة، فاستجار بأخيه في الرضاعة عثمان ابن عفّان، الذي أخفاه عنده أيّاماً عدّة إلى أن هدأ الاضطراب، ثمّ أتى به إلى النبي واستأمن له، وبعد صمت مديد، قال النبي: (نعم)، دالاً على قبوله شفاعة عثمان على مضض، فشهد وانصرف مع عثمان، وحين سئل النبي عن سبب صمته الطويل، أجاب: **(لقد صَمَتُّ ليقوم إليه بعضُكم فيضرب عنقه)** وهذا لأنّه كان قد أعلن أنَّ دمه مباح حيث وُجد، ولو كان معلّقاً بأستار الكعبة. . وسأل أحدُ الأنصار: فهلاّ أومأت إليَّ يا رسول الله، فقال النبي: **(إنَّ النبي لا يقتل بالإشارة)**، أي ليس بوسعه أن يدّعي الصمت بينما يعطي بعينيه علامة القتل. . . وعبد الله بن أبي سرح الذي عاد مسلماً، بعد الفتح، إنقاذاً لروحه، راوٍ للحديث عن النبي وهو قائد سرايا عمرو بن العاص لفتح ليبيا، ووالي عثمان على مصر لاحقاً. .

أمّا قصّة حاطب بن أبي بلتعة فترينا نموذجاً خطيراً لصحابي متميّز يخون النبي والمسلمين في أخطر مراحل جهادهم. . . وهو كان ممَن شهدوا معركة بدر مع النبي، ونعلم أيّ امتياز أُعطي لمقاتلي بدر من (الصحابة)، سواء من حيث المكانة، أو من حيث تقديمهم حين قسمة

الغنائم، كما كان مبعوث النبي إلى المقوقس في الإسكندرية لثقته به، وتورد السيرة الحلبية أنّه حين قرّر محمد المسير إلى مكّة لفتحها، كتم ذلك أول الأمر ولم يُظهره للناس، ثمّ أظهره حين جهّزهم، وعندها كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بمسير النبي إليهم، وأرسله مع امرأة اسمها سارة كانت مغنية بمكّة، فأتى الخبر رسول الله فأرسل علي والزبير، فعادا بها، وحين عاتبَ النبي حاطباً بذلك، تعلّل بخشيته على أهله في قريش، وقبل النبي عذره لأنه من مقاتلي بدر.. وأنزل الله قرآناً، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[1].

أيّ (صحابة) هؤلاء؟....

ولعلّ شهادة أبي بكر الصديق بأمانة أصحاب النبي ذات دلالة كبيرة وهامّة، إذ إنّه إبّان اقتراب جيش النبي من مكة قبيل فتحها، طلب أبو قحافة (والد أبي بكر) من صغرى بناته أن تقوده إلى بقعة أبي قبيس ليشهد ما هو قادم إلى مكة، وكان أعمى، وكانت ابنته تضع طوقاً في عنقها، وحين اندفعت الخيل قبل عودته إلى بيته، تقدّم رجل فقطع الطوق عن عنق الفتاة، فلمّا دخل النبي مكّة، جاء أبو بكر بأبيه إليه فأعلن إسلامه، ثم أخذ أبو بكر بيد أخته، وقال: أنشد الله والإسلام طوقَ أختي، فلم يجبه أحد، فقال: *أي أخيّة، احتسبي طوقك، فوالله إنّ الأمانة في الناس اليوم لقليل*...[2]...

(1) سورة الممتحنة، الآية: 1.

(2) ابن هشام - السيرة النبوية.

تقدّم لنا «السيرة النبويّة» لابن هشام، صورة مخزية للجموع التي رافقت النبي، بعد فتح مكّة، لملاقاة هوازن بقيادة مالك بن عوف، فقد كان مع النبي اثنا عشر ألفاً، فلما التقى الجمعان انهزمت جموع المسلمين، فانحاز النبي ذات اليمين، وصاح «أين أيّها الناس؟ هلمّوا إليّ، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله»، لكنّ الناس انطلقوا، ولم يبق مع النبي إلاّ أبو بكر وعمر وعلي والعبّاس وابنه الفضل، والمغيرة بن الحارث وابنه جعفر، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد قُتل يومئذٍ.. حتّى أنّ أم سليم بنت ملحان، وكانت قريبة من النبي، قالت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنّهم لذلك أهل.. وقد طلب النبي من العبّاس، وكان جهير الصوت، أن ينادي: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة، فاجتمع إليه منهم مائة وحمي الوطيس، ثم عاد مَن فرَّ... والصورة غنيّة عن البيان، صحابة تعدادهم إثنا عشر ألفاً يفرّون تاركين النبي في الميدان، يبقى منهم تسعة فقط حوله، ثم يعود منهم مائة بعد الرجاء والنخوة، ويتردد أحد عشر ألفاً وتسعمائة في نصرة النبي إلى أن تتبيّن لهم موازين القتال ودون أن نقرأ أنّ أحداً من هؤلاء تخلّف عن قسمة الغنائم بعد المعركة....

يورد ابن كثير الرواية ذاتها، ويُطلعنا على موقف أبي سفيان، الذي لم تمض على إسلامه أيام معدودات، حين انهزم المسلمون في بداية المعركة، *إذ انتحى وبعض صحبه من رجال مكّة الطلقاء، مكاناً آمناً يطالعون مشهد الارتداد والنكوص لجند المسلمين الفزعين، والمأزق*

الكبير الذي وقع فيه النبي، ليفصح بلسانه عن مكنون صدره، فيهتف معبّراً عن فرحه العظيم: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[1]. . . .

صحابة هاربون. . . وصحابة شامتون. . في أحلك لحظات الإسلام ونبيّه. .

كما يحيلنا عبد الإله بلقزيز إلى مجريات غزوة تبوك، التي أسرّ النبي لأصحابه بوجهته إليها، ولم يكن ذلك شأنه في ما قبلها، وكان جيشه تعب، وكَبُرَ عليه أن يلقى الروم وجهاً لوجه، وهم في ذاكرته أهل بأسٍ وشدّة، فوُجِدَ مَن يقول - من رجال جيشه - تثبيطاً للعزائم وصرفاً للناس عن القتال: لا تنفروا في الحرّ. متذرّعاً بقسوة الطبيعة التي ألفتها العرب، ثم جاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه، وبدأ يتخلّف عنه أفراد جيشه وهو ماضٍ إلى القتال. ولم يكن موكب النبي قد وصل إلى تبوك - ليكتشف أنّ جيش هرقل غادرها إلى حمص - حتى كان جيشه (جيش النبي) قد تفكك قبل أن يحارب. . . فقفل عائداً إلى المدينة، ظافراً بصلحٍ على الجزية من بعض اليهود والنصارى (يوحنا بن رؤية، وأهل جرباء وأذرح وأكيدر دومة) يعوّض به ليس عن خسارة حرب لم يخضها ضد الروم، بل عن خسارة جيش ذهب إليها محطّم المعنويات، وكان من حسن حظّه أنّه لم يخضها. في كلّ حال أتت سورة التوبة تؤنّب المسلمين على تخاذلهم وضعف شكيمتهم، وتصفح عمّن صفحت عنهم ابتغاء دفعهم إلى مراجعة موقفهم[2]. .

---

(1) ابن كثير - البداية والنهاية.

(2) عبد الإله بلقزيز - النبوة والسياسة.

(انظر الطبري)...

يذكر ابن هشام في سيرته، أنّ تباطؤ المسلمين وتراجعهم عن الخروج مع النبي إلى أرض الروم، كان «شكّاً في الحق، وإرجافاً برسول الله»...

أمّا السيرة الحلبية فتحكي لنا عن اجتماع رأي بعض مَن كان مع النبي من (المنافقين)، عند عودة الجيش من تبوك، على الغدر به وقتله، بدفع راحلته حين مروره بالعقبة (بين تبوك والمدينة)، وكانوا اثني عشر، وقيل أربعة عشر، وقيل خمسة عشر، وقد حاولوا ذلك بالفعل، وردّهم حذيفة بن اليمان، دون أن يتعرّف على أشخاصهم، إلاّ أنَّ النبي عرفهم ولم يخبر أحداً بأسمائهم.. مع أنَّ زاد المعاد يذكر أنَّ النبي أسرّ إلى حذيفة أسماء أولئك المنافقين ولم يطلع أحداً غيره...

فهل نقول بعد هذا إنَّ كل مَن صحب، أو جالس، أو رأى محمداً هو (صحابي)، وإنّ كلّ (صحابي) هو ثقة، عدل، صالح، يؤخذ به دون مراجعةٍ أو تحرٍّ؟...

يذهب بعض الكتّاب إلى أبعد من ذلك، فيقدم لنا قراءة جريئة للأيام الأخيرة من حياة النبي، *فيعتبر تأخير بعث جيش أسامة بن زيد الذي كان أبو بكر وعمر جنوداً فيه، والمماطلة في التحرّك حتى وفاة النبي الذي أبدى تبرّماً شديداً من التأخير، خطّة مبيّتة اشتغل عليها الشيخان الأكثر قرباً منه، ورغماً عنه، وصولاً إلى يوم السقيفة وتولية الأول ثمّ الثاني*[1]، على أنَّ هذه القراءة ينكرها جملة وتفصيلاً مالك

(1) طيّب تيزيني – من اللاهوت إلى الفلسفة العربية الوسيطة.

مسلماني مستنداً إلى *محوريّة دور الشيخين في الحركة الإسلاميّة، وحيازتهما على سلطان لا يتيح لمحمد تنحيتهما عن مركز الإسلام*[1].

أمّا حادثة الإفك الشهيرة، واتهام عائشة بالزنا، فقد كانت مثالاً صارخاً على تجرّؤ بعض الصحابة على النبي، والتعرّض لعرضه وشرفه، بما لا يصح أن يصدر عن أرذال القوم، ناهيك عن أصحاب النبي، ولا يكفي هنا الاختباء خلف تسمية هؤلاء بالمنافقين وفيهم مَن كانوا قريبين من النبي كشاعره حسّان بن ثابت...

كلُّ هذا حصل في حياة النبي، أمّا ما حصل بعد موته فأنكى وأفظع..

نبدأ بقراءة لواقعة سقيفة بني ساعدة، التي جرت حين كان جثمان النبي لا يزال مسجّى في منزله قبل الدفن، بحضور ثلاثة من أقرب صحابة النبي إليه، أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجرّاح (في تغييب مقصود لآل بيت النبي عن واقعة مفصليّة)، وثلّة من الأنصار، وما ثار فيها من خلاف على السلطة (لا الدين)، تمحوّر حول (منّا أمير ومنكم أمير)، و(الأمير منّا والوزير منكم)، .. الخ، ونتساءل:

1 - أما كان الطرفان لينتظرا أياماً معدودات انشغالاً بحدثٍ جلل بحجم موت محمد؟ أو على الأقل، أما كانوا ليتمهلوا سويعات لحين مواراة الجثمان الطاهر في ثراه؟؟؟. (مات النبي يوم الاثنين، ولم يدفن حتى مساء الأربعاء)، يقول الطبري: «كان جسد الرسول مسجى

(1) مالك مسلماني - عمر بن الخطاب - السيرة المتوارية.

في بيته وفوقه عباءة، بينما كان الجميع مشغولين بانتخاب خليفته، ولم يكن هناك من يفكّر بغسله ودفنه»[1]...

2 - ألا يمثّل الخلاف الذي حصل، والتوتر الذي جرت به معالجة هذا الخلاف، أوّلَ خروج على النص القرآني، وسنّة الراحل الذي لا يزال جثمانه على بعد خطوات؟.. *إذ تمّ حسم الخلاف بفرض الأمر الواقع، لا بالتراضي، كما يشير عبد الإله بلقزيز*[2]، تعارضاً مع مبدأ ومعنى الشورى الذي جاء به القرآن، وعمل به النبي...

صحيح أنَّ القرآن لم يقنّن مبدأ الشورى، ولم يرد فيه - ولا في الممارسة النبويّة - ما يحدّد أسلوب وطريقة ممارسته... إلاّ أنَّ اقتصار الأمر على مَن وُجدوا - بالمصادفة، وتداعيات اللحظة - والخلاف بين هؤلاء، وحسم الأمر دون رضا أحد الطرفين (كان عدد من بايع أبا بكر في السقيفة خمسة فقط، ثمّ كرّت سبحة البيعة في اليوم التالي)، هو آخر ما يمتّ إلى مبدأ ومعنى الشورى، الذي تمّ تعطيله وإقصاؤه، وإن جرى تبرير ذلك بمقولات الحفاظ على وحدة الأمّة ومصلحة المسلمين، ودون أن نعرف ما إذا لم تكن البدائل الأخرى، لو تحقّقت، أكثر جدوى وصلاحاً للإسلام....

مرّة ثانية، وبعد سنتين، جرى تكريس هذا التعطيل من قبل أبي بكر بالذات، الذي عهد بالخلافة بعده لعمر بن الخطاب، في تجاهل خطير للنص القرآني، وإن كان هناك مّن يحاول إقناعنا أن أبا بكر استشار

---

(1) الطبري - محمد خاتم الأنبياء.
(2) عبد الإله بلقزيز - تكوين المجال السياسي الإسلامي - النبوة والسياسة.

بعض الصحابة في الأمر، وكأن النص كان أنّ «أمرهم شورى بين بعضهم... لا بينهم»..

ثمّ أتى عمر لينهي العمل بالمبدأ والمعنى، ويبتعد عن مدلوليهما الصحيحين، فيحصر الشورى في ستّة من قريش، هم المرشحون، وهم الناخبون، ويعطي لأحدهم الرأي المرجّح، مؤسّساً، دون قصد، لجناية طبع تأثيرها الخطير الأمّة الإسلامية حتى اليوم، استنبط منها (الفقهاء) أنّ الشورى هي بين (أهل الحل والعقد) في تعبير غائم يقصي عامّة المسلمين لمصلحة مّن يريدهم السلطان، ويسمّيهم أهل حلٍّ وعقد ينطقون باسم السواد الأعظم من الناس، ولكن بمعزل عنهم، وهو ما فتح الطريق لاحقاً أمام معاوية، وآل أميّة، ثم آل العباس، ومّن لحقهم لابتداع التوريث بديلاً عن شرع الله..

صحيح أنَّ الشيخين أبا بكر وعمر كانا صالحين، وهما قدّما ولا شك خدمات جلّى للإسلام، وربّما كانا حينئذ أصلح من الآخرين للحكم، لكنّنا نتحدث هنا عن التزام بالنص الإلهي، فهل جرى هذا الالتزام؟، وهل كانت سنّتهما هنا في مصلحة مستقبل الإسلام والمسلمين؟....

قبل ذلك، هل كان ابتكار مفهوم الخلافة، الذي لم يشر إليه الرسول طوال حياته، في مصلحة الإسلام..؟ وهل تقبل الرسالة خلافةً، وهي - أي الرسالة - متفرّدة ومحصورة بالموحى إليه، دون غيره من الأتباع، وغير قابلة للتجيير والإخلاف؟ وهل من معنى صحيح لمسمّى خليفة رسول الله؟، أم أن هذا الابتكار وضع أساساً لكلّ الكوارث التي ألمّت بالمسلمين على امتداد تاريخهم اللاحق..؟...

وإذ خالف الشيخان سنّة نبيّهما، ونصّاً إلهيّاً. . . فكيف كانت سلوكيّات الآخرين بعد ذلك.؟. . . .

تحدثنا كتب التاريخ مفصَّلاً عن واقعة (الصحابي) المغيرة بن شعبة، والي البصرة من قبل عمر بن الخطاب مع المدعوّة (أمّ جميل). . فرغم أن (الصحابي) المغيرة قد تزوّج العشرات من النساء (ثمانون امرأة، وقيل مائتان، وقيل ألف)، إلاّ أنّه *جعل يختلف إلى امرأة من بني هلال يقال لها (أم جميل، بنت محجن بن الأفقم بن شعينة بن الهزم) وكان لها زوج من ثقيف يقال له (الحجّاج بن عتيك)، فبلغ ذلك (أبا بكرة بن مسروح) مولى النبي، و(شبل بن معبد بن عبيد البجلي) و(نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي) و(زياد بن أبيه) – الذي ألحقه معاوية فيما بعد بأبيه سفيان بن حرب –، فرصدوا المغيرة، حتى إذا دخلوا عليه، فإذا هو وأم جميل عريانان، وهو متبطّنها، . . والشاهد أنّهم منعوا المغيرة من إقامة الصلاة (؟)، وشكوه إلى عمر الذي أحضر الجميع، ثم جمع بين المغيرة وشهود الواقعة، فقال (نافع بن الحارث): رأيته على بطن المرأة يتحفّز عليها، ورأيته يدخل ما معه ويخرجه كالميل في المكحلة، ثم شهد (شبل بن معبد) على شهادته، ثم (أبو بكرة)، ثم أقبل (زياد) رابعاً، فلمّا نظر إليه عمر قال: أما أرى فيه وجهَ رجلٍ، أرجو ألاّ يُرجم رجلٌ من أصحاب رسول الله على يده، ولا يُخزى بشهادته، فقال زياد: رأيت منظراً قبيحاً، وسمعت نفساً عالياً، وما أدري أخالطها أم لا . . . فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا، فقال شبل: أتجلد شهود الحق، وتُبطل الحد؟ فلمّا جُلد أبو بكرة قال:*

أشهد أن المغيرة زانٍ، فقال عمر: حدّوه، قال علي بن أبي طالب: إن جعلتها شهادة فارجم صاحبك.. فحلف أبو بكرة ألا يكلّم زياداً أبداً، وكان أخاه لأمّه (سميّة).. ثم ردّهم إلى مصرهم[1].

كان أبو بكر وعمر أخبر الناس وأدراهم بمكنونات معظم (الصحابة) حولهم، وكانا يخشيان عليهم من الانطلاق في البلاد المفتوحة والانزلاق في مباهج الدنيا والتلذّذ بالثراء ورغد العيش، فحرصا على بقائهم في المدينة ومنعهم من الخروج منها، وكان عمر يقول لمن يسأله الخروج للجهاد: «إنَّ في غزوكم مع رسول الله ما يكفيكم»، ويروي المؤرخون عن بعض (الصحابة) الذين استثناهم عمر فولاّهم على الأمصار أنّهم أثروا بسرعة فائقة، فاستدعاهم وحاسبهم، منهم أبو هريرة الذي ولاّه البحرين، فأثرى خلال أقل من سنتين، فاستدعاه وقال له: «يا عدو الله، سرقت مال الله، لقد وليتك البحرين وأنت بلا نعلين، فمن أين لك هذا؟» وحاسبه وأخذ منه عشرة آلاف درهم.

وما إن مات عمر وولّي عثمان الخلافة حتى انطلق (الصحابة) في الأمصار، وأقبلوا على جمع المال والثروات، مستغلّين صحبتهم للنبي، وتكونت بينهم طبقة من أصحاب الثروات الكبيرة.

ولم يقصر عثمان الأمر على أن سمح للصحابة بالانطلاق في الأمصار والمتاجرة في الولايات، وإنّما كان القدوة والمثال للآخرين،

(1) خليل عبد الكريم - مجتمع يثرب / حسين لوباني - ملف الهبل العربي.

يخبرنا هشام جعيط أنّ عثمان «ذاته أباح لنفسه ما كان أبو بكر وعمر قد حظراه على نفسيهما، فأخذ من الخزينة العامّة مالاً لنفسه، لعائلته، لأولئك الذين يريد مساعدتهم ومكافأتهم، بلا رقيب أو حسيب، فاقترض من بيت المال مبالغ ضخمة لم يرجعها دائماً، وربّما تاجر بها وقرضها أو وهبها لآخرين، وفي وسط كبار الصحابة في المدينة، كما في وسط الأمويين الذين أحاطوا به من بين أقربائه، تكوّنت ثروات ضخمة لا يمكن تفسير مصدرها إلاّ بقروض أو تسهيلات بيت المال، إنّ التباين مثير بالمقارنة مع عصر النبي البطولي والبسيط، أو عصر أبي بكر وعمر، فالبيت الذي ابتناه عثمان (إبّان الخلافة) كان من الحجر والخشب الثمين، وكوّن لنفسه قطعاناً وأملاكاً في المدينة، ويذكر ابن سعد أنّه عند وفاة عثمان وجِد لدى خازنه مبلغ 35 مليون درهم، نُهبَت من دون أن يُعرَف إن كان المبلغ أموالاً خاصّة - وهذا قليل الاحتمال - أم أموالاً عامّة. . صحيح أنّ عثمان كان غنياً منذ الجاهلية، لكنَّ ثروات الماضي كانت غير قابلة للقياس بثروات الحاضر، وتبدو ضئيلة بالمقارنة[1] . . . . .

ونقتبس عن إبراهيم فوزي[2]:

(يقول ابن سيرين: كثر المال في زمن عثمان، فبيعت الجارية بوزنها، والفَرَسُ بمائة ألف درهم. . . . وروى المسعودي أنّه في أيام عثمان اقتنى الصحابة المال والضياع فكان لعثمان يوم مقتله مائة

---

(1) هشام جعيط - الفتنة.
(2) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين مائة ألف دينار، وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة... ويقول عبد الله بن الزبير بن العوام إنّه غداة مقتل أبيه الزبير في يوم الجمل، وبعد أن سدّد ديونه، ونفّذ وصيته قسّم تركته، وكان له أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف درهم، وكان جميع ماله خمسين ألف ألف (خمسين مليوناً) ومائتي ألف دينار...؟؟..

وعن كعب قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج(1)...

ويقول المسعودي عن زيد بن ثابت أنّه: (ترك من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، وكان له من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار)...

ويذكر الزمخشري في الكشاف، عن عبد الرحمن بن عوف، أنَّ امرأته تماضر صولحت بعد وفاته على رُبع الثُمُن بثمانين ألفاً، أي إنّ الثُمن كان ثلاثمائة وعشرين ألفاً، وأصل المال مائتا ألف ألف (مائتا مليون) وخمسمائة وستون ألفاً(2)*.....*

رحم الله محمداً.. فكم كان له من المال حين لقي وجهَ ربِّه؟ وأين هؤلاء من محمد؟..

ولسنا هنا في مجال إنكار أن يكون (للصحابة) أموالٌ وثروات..، لكنّنا في مقام معرفة المصدر أولاً، ومدى توافقه مع كتاب الله وسنّة

(1) أسد الغابة ص 252.
(2) الصحيح ألفا ألف أي مليونان وخمسمائة وستون ألفاً.

نبيّه، وفي مقام دراسة النتائج والتداعيات التي ترتبت على اكتناز هذه الثروات...

مرّة ثانية، تؤكد لنا كتب السير والتاريخ، أنّ عثمان بن عفان، الذي دأب على تولية أقربائه واختصاصهم بمال المسلمين دون وجه حق، قد أعطى مروان بن الحكم (الذي لسخرية الأقدار سيصبح الخليفة الأموي الثالث) خُمسَ الغنيمة التي غنمها المسلمون في افريقية، أو خُمس الخُمس، ووهب له ما بقي عليه من ثمنها، وأنه أعطى عمّه الحكم بن العاص (الذي كان النبي قد نفاه من المدينة، لأنّه آذاه في مكة، وآذاه في المدينة بعد ادعائه الإسلام عقب فتح مكّة، وقال فيه «لا يساكنني فيها أبداً»، فأعاده عثمان بعد تولّيه ضارباً عرض الحائط بقرار النبي، ومشاعر المسلمين)، أعطاه ثلاثمائة ألف، وأعطى ابنه الحارث مثلها، وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي ثلاثمائة ألف، وأعطى كلّ واحد من الذين وفدوا مع عبد الله مائة ألف، حتى أبى عبد الله بن الأرقم صاحب بيت المال أن ينفّذ هذا الأمر واستقال من عمله، وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف، وزوّج ثلاثاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كلَّ واحد منهم مائة ألف دينار، ناهيك عن الأراضي والضياع التي أقطعها لآل أميّة وغيرهم.....

هل أباح الله في كتابه توزيع أموال المسلمين على المقربين، وحرمان العامّة منها؟ أم هل جاءت سنّة النبي، وخليفتيه أبي بكر وعمر بهذا الأمر..؟ أم أن هذا خروجٌ صارخٌ على كتاب الله وسنّة نبيّه؟!...

أمّا النتائج التي ترتبّت على هذا الخروج عن كتاب الله وسنّة نبيّه، فيلخصها لنا طه حسين مشيراً إلى: *(إنشاء هذه الطبقة الغنيّة المسرفة في الغنى التي تستجيب لطمع لا حد له، فتتوسع في ملك الأرض واستغلال الطبقة العاملة، ثم ترى لنفسها من الامتياز ما ليس لها، ثم تتنافس في التسلّط، ثم ترقى إلى التنافس في الإمارة، وفي الخلافة نفسها، ثم ينتهي بها الأمر إلى ما انتهى بها إليه من هذه الفتن والخطوب التي أفسدت الأمر على المسلمين منذ قتل عثمان إلى أن أديل من بني أميّة إلى بني العباس، وطبيعي أن بيت مال المسلمين لم يكن يستطيع أن يسع الناس جميعاً بهذا السخاء، وطبيعي أن الذين لم يأخذوا حقدوا على الذين أخذوا، ثم حقدوا على الذين أعطوهم، فساءت الصلة بينهم وبين الإمام والولاة)*[1]....

ولابدّ أن نلحظ أن أفعال عثمان باتت سنّة تبعه عليها كل الخلفاء والولاة في التصرّف بالمال والعباد، منذ سيطر آل أميّة على الدولة....

عزل عثمان سابقه في الإسلام سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة، التي ولاّه إيّاها عمر، فمن ولّى بدلاً عنه؟ لم يولِّ أحداً من (الصحابة) الكبار من المهاجرين أو الأنصار، وهم كثر، بل ولّى (الفاسق) ابن عمّه وأخاه لأمّه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذي سبق أن غشّ النبي وكذب عليه، وكفر بعد إسلام، وأنزل الله فيه قرآناً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ

(1) طه حسين – الفتنة الكبرى.

﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[1] والوليد عاد إلى إسلامه حين لم يكن بدّ من العودة بعد فتح مكّة، وقيل أن عمر جرّبه فولاّه على صدقات بني تغلب، ثم سارع إلى عزله بعد أن تبيّن سوؤه. . . .

وتجمع الروايات، لدى تاريخ اليعقوبي ومروج الذهب للمسعودي والأسد لابن الأثير الجزري والاستيعاب لابن عبد البر، أنّ هذا الفاسق صلى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات، وتهوّع في المحراب، ثم التفت إلى مَن خلفه وقال: أزيدكم؟. . .

وقد اضطر عثمان لاحقاً لعزل الوليد وإقامة الحد عليه. . .

كما عزل عثمان أبا موسى الأشعري، الصحابي المعروف، عن ولاية البصرة، وأعطاها لغلامٍ غرٍّ هو ابن خاله، عبد الله بن عامر بن كريز، الذي استخدمه لتمرير الأعطيات لبعض من يريدهم، بعيداً عن عيون المسلمين في المدينة. .

كان أبو ذر الغفاري رابع من أسلم - ربع الإسلام - وكان يحرص على قول الحق مهما كلّفه من ثمن، ولذا أثنى عليه الرسول فقال: (ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر)، أبو ذر هذا لمّا رأى ممارسات عثمان التي خالف بها سنّة نبيه وخليفتيه في المال العام، صدع بنقده، فنفاه عثمان إلى الشام، فألفى معاوية يسير على النهج عينه، فعاود انتقاده، فأرجعه معاوية إلى المدينة، فعاود انتقاد عثمان، فأمر بجلده فجُلد، ونفاه إلى الربذة شريداً طريداً، ليس

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 6.

في حوزته وزوجته سوى ثوب واحد، وعندما حضرته الوفاة لم يكن هناك ثوب لكفنه، فكفّنته رفقة يمانية تصادف مرورها بالربذة وصلّت عليه[1]..

حوصر الخليفة عثمان بن عفان مدّة أربعين يوماً، ثم تسوّر عليه جماعة وقتلوه، منهم أربعة من (الصحابة) شاركوا بقتله بأيديهم، أو أشاروا به (محمد بن أبي حذيفة، عمر بن الحمق الخزاعي، عبد الرحمن بن عديس، ومحمد بن أبي بكر).. وقد منع هؤلاء (الصحابة) دفن عثمان بالبقيع.. وقد حُمل على مصراع باب داره، وكانت رجلاه تتدليان خارجه، ولم يسر خلف جنازته إلاّ مروان بن الحكم وثلاثة من مواليه وابنته فقط، ولم يُصلَّ عليه، ودُفن دون أن يحظى بصلاة الجنازة التي ينالها أقل المسلمين شأناً، ودفنوه في (حش كوكب) وهو مكان قيل أنّهم يستعملونه لقضاء حوائجهم، وقيل مقبرة لليهود...

يقول خليل عبد الكريم: *إنَّ في الفتنة التي انتهت بمصرع عثمان وما أعقبها بقليل صوراً صوارخ من الجنوح والانفلات من كل المبادئ والأعراف والتقاليد، وقعت من عدد وفير من الصحاب*[2]....

كيف يمكن تفسير موقعة الجمل التي تقاتل فيها مَن عُدّوا مبشّرين بالجنّة، صاحب البيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في مواجهة عائشة أمّ المؤمنين، وطلحة، والزبير، والتي قتل فيها الأخيران؟ مَن كان على حق، ومَن كان على الباطل؟ مَن كان يريد وجه الله، ومَن

(1) الاستيعاب في معرفة الصحاب ص 255.
(2) خليل عبد الكريم - الصحابة والصحابة.

كان يريد نفسه؟ وهل يدخل الجنّة مَن كان على الباطل؟ وأين كلام الله لهم أنّ المؤمنين الحقيقيين يجب أن يكونوا «رحماء بين بعضهم، أشدّاء على الكفار»، أم نقنع بتبرير غبيّ لبعض الفقهاء أنَّ الأمر كان اختلافاً في الاجتهاد بين هؤلاء الصحابة الصالحين. . . . متعمدين تناسي أو إغفال أن خروج عائشة في مقدمة الجيش، وتسببّها في مقتل أكثر من عشرة آلاف مسلم، وقيل ثلاثة عشر ألفاً، حول (جملها)، كان خروجاً على أمر الله لنساء النبي بأن يقرنَ في بيوتهنَّ. . . . .

يعطينا هنا زكريا أوزون إضاءة ذات دلالة كبيرة، يقول: *إنّ السيّدة عائشة قالت نادمةً «وددت أنّي إذا متُّ كنتُ نسياً منسياً»، وقيل أنّها عندما احتُضِرَت جزعت، فقيل لها: أتجزعين يا أمّ المؤمنين وابنة أبي بكر، فقالت: «إنّ يوم الجمل لمعترض في حلقي، ليتني متُّ قبله» . . . لذلك طلبت أن لا تدفن مع النبي قائلة: «إنّي قد أحدثت بعد رسول الله، فادفنوني مع أزواج النبي»*[1] . .

وكيف يمكن نعت موقف عمرو بن العاص في واقعة التحكيم بعد معركة صفين؟ أليس بالغدر والكذب والخيانة والخداع، والوقوف ضد مصلحة الإسلام في سبيل السلطة والمنفعة (ولاية مصر التي كاتب معاوية عليها إن هو جلبَ الأمر إليه)، بما لا يصح أن يصدر عن صحابي صادق وأمين، وقد قال أبو موسى الأشعري، الذي خدعه عمرو: لقد حذّرني ابن عباس من غدر ابن العاص وفجوره، ولكني اطمأننت له. . . / وليته ما اطمأن/ . . .

(1) طبقات ابن سعد.

ويطالعنا ابن الأثير بسرد للطريقة البشعة التي قُتل فيها (الصحابي)، وابن أول الصحابة وأقربهم إلى رسول الله، وأخ أحب زوجات النبي إليه، (محمد بن أبي بكر الصدّيق)، من قِبَل (الصحابيين) الشهيرين، القائدين عمرو بن العاص ومعاوية بن حديج، فيقول: (فاقتتلوا، فانهزم محمد، ودخل خربة، فأُخرج منها، وقُتل، ووُضع في جوف جلد حمار ميّت، ثم أحرق. . .)، فأين مكانة أبيه أبي بكر الصدّيق أوّل أصحاب النبي، وأخته عائشة زوجة النبي المحببّة إليه، بل أين شفاعة قرابته للنبي فيه لدى (صاحبي رسول الله)؟!. .

أوفد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (بسر بن أرطأة) وهو (صحابي) من رواة الحديث، على رأس جيش لمقاتلة (صحابي آخر) هو عبيد الله بن عباس- ابن عم النبي- والي علي بن أبي طالب على اليمن، فهرب عبيد الله ودخل بسر اليمن، فأتى بولدي عبيد الله فذبحهما وهما صغيران، فأصابت أمهما وسوسة، وهامت على وجهها. . . وبعد أن قتل (الصحابي بسر) الألوف من شتى قبائل المسلمين، سبى نساءهم، وكنَّ أول مسلمات سبين في الإسلام، وقد أقامهنَّ في سوق (يوم العودة) حيث يكشف عن سوقهنَّ (أفخاذهن) قبل إتمام صفقة الشراء[1].

وقد كان (الصحابي) الكبير، المصنّف جهلاً كأحد كتّاب الوحي(؟)، وراوي الأحاديث، والخليفة، معاوية بن أبي سفيان *يؤتى بالجارية، فيجرّدها من ثيابها بحضرة جلسائه، ويضع (القضيب) على*

(1) خليل عبد الكريم - الصحابة والصحابة.

ركَبها أي (فرجها)، ويقول: إنَّه لمتّاع لو وجد متّاعاً. . . ثم يقول لأحدهم: خذها لبعض ولدك، فإنّها لا تحل ليزيد (ابنه)بعد أن فعلتُ بها ما فعلت[1].

كما تحدثنا المصادر الإسلاميّة عن (مسلم بن عقبة المرّي)، *وكان من قوّاد يزيد بن أبي سفيان، وقد أرسله على رأس جيش لتأديب أهل المدينة (مدينة رسول الله) الذين أعلنوا العصيان. . وبعد أن اقتحمها، أباحها لجنوده ثلاثة أيام، قتلاً ونهباً واغتصاباً للنساء. . . . ويروى أن عدد المغتصبات قد ناهز السبعة آلاف، أحصين على أساس الولادات غير الشرعية التي حصلت في المدينة بعد تلك الحادثة. .* [2]

ونقرأ في تاريخ اليعقوبي، أنَّ الحسن بن علي بن أبي طالب، بعد قتل أبيه، عزم على حرب معاوية بن أبي سفيان، وكان من بين قوّاد جيشه ابن عمّه وابن عم النبي، (الصحابي) عبيد الله بن العباس على إثني عشر ألف فارس، فأرسل إليه معاوية ألف ألف درهم، فصار إليه في ثمان آلاف من أصحابه، منقلبين على علي. . . . أي إنّ ابن عباس تناسى ذبح معاوية لابنيه، على يدي بسر بن أرطأة، وتناسى صلة القرابة والدم مع ابن عمّه علي، وتناسى نصوص القرآن حول الحق والباطل، فباع دينه وضميره وشرفه مقابل مليون درهم. . . .

الأمثلة الأخرى كثيرة، تمتلئ بها كتب السيَر والتاريخ، ومن العبث إيراد أكثر ممّا أوردنا. .

---

(1) حسين لوباني - ملف الهبل العربي.
(2) هادي العلوي - فصول من الإسلام السياسي.

مرّة أخرى، يقول إبراهيم فوزي: *(وقد نسب المؤرخون إلى عدد من الصحابة أفعالاً قبيحة لا تقرّها الأخلاق ولا الشريعة ولا الدين، وقد سكت عنها رجال الفقه الإسلامي، أو أوّلوها تأويلات محرّفة كعادتهم في تحريف الحوادث التاريخية كي تتفق مع منهجهم)*[1]..

وأخيراً، فما هي **شهادات الصحابة بعضهم ببعض**؟

روى البخاري عن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: لقيت البراء بن عازب فقلت له: طوبى لك، صحبت النبي وبايعته تحت الشجرة، قال: *يا بن أخي، إنّك لا تدري ما أحدثنا بعده...*

قال حذيفة: *لقد تركنا رسول الله يوم توفّيَ، وما أحدٌ إلاّ وقد غيّرَ عمّا كان عليه، إلاّ عمر وعبد الله بن عمر...* في شهادة ذات دلالة من (صحابي) على نفسه وأصحابه.... وهي شهادة تؤكدها لنا عائشة أمّ المؤمنين: *«ما رأينا ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر»*.. فماذا عن الباقين؟..

ويوفّر لنا الباحث حمادي ذويب، في أطروحته الجادة لنيل شهادة الدكتوراه، التي حوّلها إلى كتاب[2] حصراً ممتازاً لهذه الشهادات، في مبحثه حول مبدأ عدالة الصحابة الذي صيغ أساساً لقبول أو رفض الأحاديث المنسوبة إلى النبي ناقلاً عن الرازي في «المحصول في علم الأصول»، الذي نقل عن النظّام ما نقله الجاحظ في كتاب الفتيا، نورد بعضاً من هذه الشهادات:

---

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.
(2) حمادي ذويب - السنّة بين الأصول والتاريخ.

- شهادة عمران بن الحصين (أسلم عام خيبر، 7 هـ، مع أبي هريرة، ومات عام 52هـ): والله لو أردتُ لحدّثتُ عن رسول الله يومين متتابعين، فإني سمعتُ كما سمعوا، وشاهدتُ كما شاهدوا، ولكنّهم يحدّثون أحاديث ما هي كما يقولون، وأخاف أن يشبّه لي كما شُبّه لهم.

- شهادة بحق حذيفة بن اليمان (توفي 36 هـ) أنّه كان يحلف لعثمان بن عفان على أشياء بالله، أنَّه ما قالها، وقد سمعناه قالها، فقلنا له فيها، فقال: إنّي أشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن يذهب كلّه..

مع أنّ حذيفة هذا كان من أقرب الناس إلى النبي، وكان يقال له: «صاحب سرّ رسول الله» كما رأينا قبلاً...

- شهادة بحق ابن عمر، نقل عن النبي أنّه قال في الضب: «لا آكله ولا أحلّله ولا أحرّمه»، فنقل زيد الأصم ذلك إلى ابن عباس فقال: بئس ما قلتم، ما بعث الله النبي محلّلاً ولا محرّماً..

- كان عليٌّ يستحلف الرواة، فلو كانوا غير متهمين لما استحلفهم، فإنّ علياً أعلم بهم منّا..

- أنّ علياً قال لأبي مسعود: إنّك تفتي الناس، قال أجل وأخبرهم أن الأخير شر، قال فأخبرني ما سمعت منه، قال سمعته يقول: «لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف»، فقال علي: أخطأتَ وأخطأتَ في أوّل فتواك، إنّما قال ذلك لمَن حضرَه يومئذٍ، وهل الرجاء إلاّ بعد مائة...

- شهادة عن أبي هريرة، أنّه نَسَبَ للرسول قوله: «الشمس والقمر

مكوّران في النار يوم القيامة»، قال الحسن: ما ذنبهما؟ قال أبو هريرة: إنّما أحدثك عن رسول الله... هل نصدّق أبا هريرة، أم سبط الرسول؟..

- لمّا روى أبو هريرة، على لسان الرسول أنّه قال: «إنّ المرأةَ والكلبَ والحمارَ يقطعن الصلاة»، مشت عائشة في خفٍّ واحدة، وقالت: «لأخشنَّ أبا هريرة، فإنّي ربّما رأيت الرسول وسط السرير، وأنا على السرير بينه وبين القبلة».. فمَن الكاذب هنا، أمّ المؤمنين أم أبو هريرة؟..

- قام أبو موسى على منبر الكوفة لمّا بلغه أنّ عليّاً أقبل يريد البصرة، فقال: يا أهل الكوفة والله ما أعلم والياً أحرص على صلاح الرعيّة منّي، والله لقد منعتكم حقّاً كان لكم بيمين كاذبة فأستغفر الله منها... وهذا إقرار من أبي موسى بحلفه اليمين الكاذبة...

لن نطيل، لكنَّ ابن قتيبة استخدم منطق التبرير الذي اعتمده الذهبي، في دفاعه عن كذب بعض الصحابة، فقال: (تدليس الصحابة كثير ولا عيبَ فيه)

والذهبي يلخّص لنا المسألة، يقول: إنّنا لو فتحنا باب الجرح والتعديل على أنفسنا، لدخل فيه عدّة من الصحابة والتابعين والأئمة، فبعضهم كفّر بعضاً بتأويل ما، والله يرضى عن الكل، ويغفر لهم فما هم بمعصومين.

ونستدرك.. هذه نماذج عن (بعض) الصحابة، توحي بما يجيب عن تساؤلاتنا، دون أن يعني ذلك أن (كلّ) الصحابة كانوا كهذه

النماذج... لكن بعض الشك يكفي لتبيّن الحاجة إلى اليقين... وليس من حقِّ أحد أن يخلط الصالح بالطالح...

يقول طه حسين: «ليس من الغريب في شيء أن يتعرّض كثير من الصالحين ومن أصحاب النبي أنفسهم لأسباب الفتن ودواعي الغرور، وأن يطرأ عليهم من الأحداث والخطوب ما يباعد بينهم وبين عهدهم الأول حين كان الإسلام غضّاً، وحين كانوا يتصلون بالنبي مصبحين وممسين، وحين كانوا إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكلون»...

نعود إلى التعاريف التي افتتحنا بها المقال: (الصحابي هو مَن لقيَ النبي مؤمناً به، ومات على الإسلام)، وتفصيل ابن حجر العسقلاني أنّ (الصحابي هو مَن لقي النبي، طالت مجالسته أو قصرت، روى عنه أو لم يروِ، غزا معه أو لم يغزُ، رآه رؤية ولم يجالسه، وكذلك مَن لم يره لعارضٍ كالعمى).... والتعاريف الأخرى.. ونقول: بئس التعاريف كم أساءت إلى الإسلام...

أكثر من ذلك، كانت التعاريف بهذه الصورة باعتبار كل (الصحابة) عدولاً ثقاتاً صادقين في نقلهم عن النبي جزءاً من المؤامرة الكبرى على الإسلام، وركناً من أركان هذه المؤامرة، التي كانت أركانها الأخرى هي تكريس مفهوم الناسخ والمنسوخ، ونشوء المدارس الفقهية المتعارضة، وقبل كل ذلك: السياسة وأطماع الحكم....

والغريب أنّه في حين أن كتب السابقين تزخر بسيرٍ مخجلة للعديد من هؤلاء (الصحابة)، وتعطي صورة واقعيّة موثّقة لما كانوا عليه، وأنّ

إماماً معتبراً كابن تيميّة قد سجّل عليهم الكثير من المآخذ[1] بمن فيهم أبو بكر وعلي، نجد الكثير من كتابات المحدثين تتفرّغ لتبييض صورهم، وتبرير أفعالهم، وإظهارهم بمظهر فوق بشري متميّز، في محاولة لإقناع الأجيال المسلمة بعبثية قدرة هذه الأجيال على بناء مجتمع كمجتمع أسلافهم أيام النبي، فأولئك حسب المحدثين - كانوا استثناءات لا تتكرّر...

والخطير أن معظم أحكام التشريع - غير العقيدي- أخذت عن روايات هؤلاء، بما يخالف كتاب الله وسنّة نبيه الصحيحة، في اتساق مع مؤامرة كبيرة أُجيد حبكها وتسويقها...

في مواجهة كتاب الله المحكم المحفوظ: (إنا له لحافظون)، ورسالة محمدية جاءت كالزلزال، كاسحةً كلَّ ما عارضها، أبدى المتآمرون عبقريّة فذّة في وأد الإسلام، وتشويه صفاء الرسالة ونقائها، وقتل النبوّة.. وإقناعنا بتقديس هؤلاء القتلة......

في مواجهة هؤلاء، لابدَّ للمسلمين من تنظيف تراثهم، وإعادة صياغة وعيهم، إن هم أرادوا استرداد نقاء دينهم، والطريق ليس صعباً.. الرجوع إلى كتاب الله اليقين كلِّه، وإعمال العقل فيه... ودرء الشبهات باستبعاد كل ما عداه ممّا فيه ولو بعض الشك.

(1) ابن تيميّة - منهاج السنّة النبويّة.



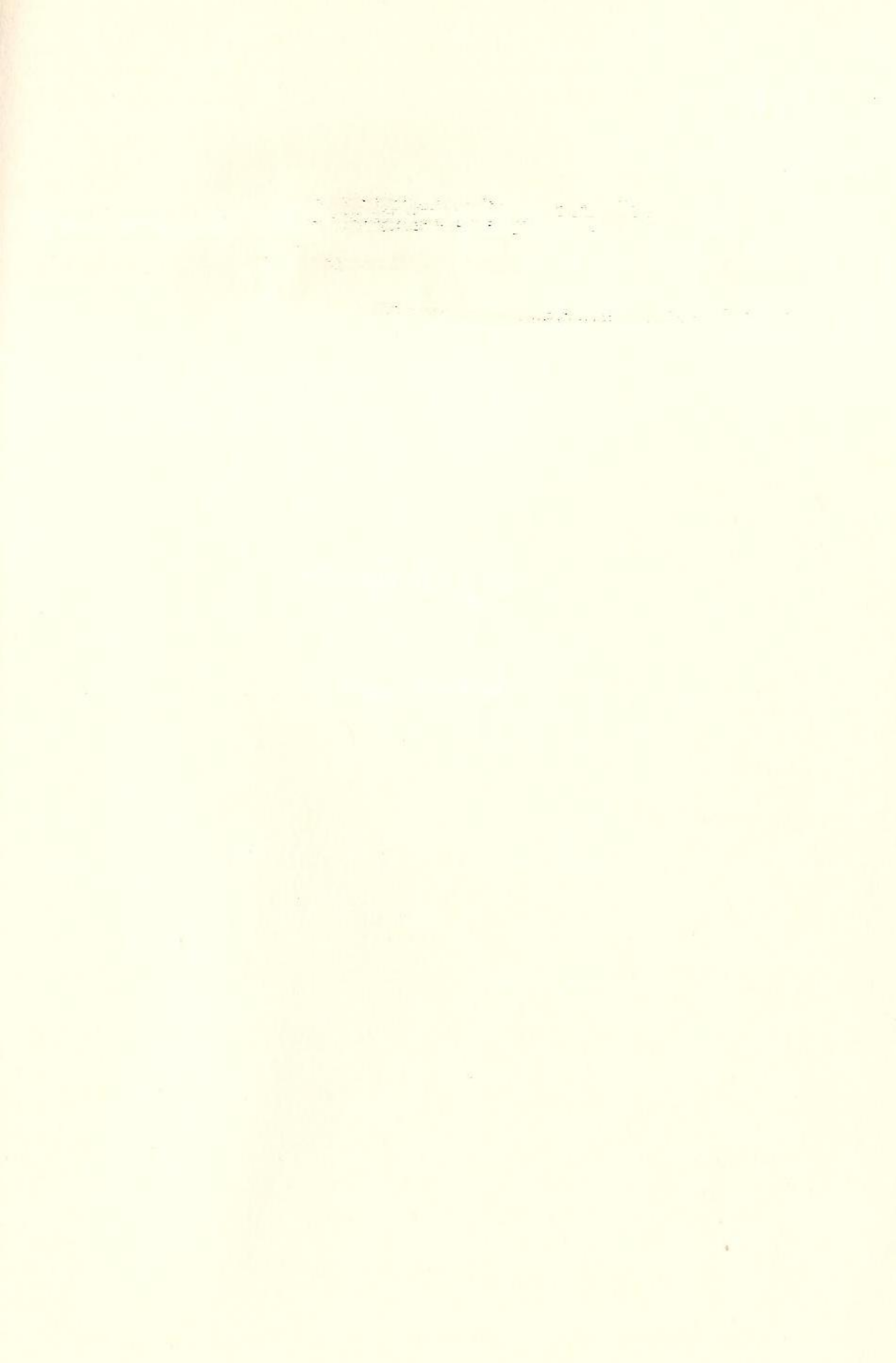
الإضاءة الرابعة

جناية الرواة

أبو هريرة نموذجاً

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

[فصلت: 26]



أعلن النبي في خطبةٍ وداعية أمام جموع المسلمين، ما أوحى إليه الله عزّ وجلّ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1].

وكان واضحاً أن اكتمال الدين يعني اكتمال الوحي الإلهي، بكلّ ما أراد الإله إيصاله لعباده من شرائع وأحكام وعبر، وإغلاق الباب أمام أيّة إضافات أخرى قولية أو فعلية، مهما كان مصدرها، خارج حدود وحروف النص المكتمل. . .

وقد كان الرسول حريصاً في كل مراحل الدعوة، وكلّما نزلت (آيةٌ) من ربه، على نشر وإذاعة هذه الآية، بكل السبل، لتصل إلى جموع المسلمين، ويتم تداولها بينهم والعمل بأحكامها، ولذلك كان إعلانه اكتمال الدين تصريحاً بانتهاء الوحي الإلهي، وأمراً لأتباعه بالالتزام بما وصلهم عن طريقه من هذا الوحي. . . .

وفي حرصه على نشر وإذاعة وتعميم الآيات، انطلق الرسول من مسؤوليته كمبشّر ونذير، ووسيط بين الوحي والعباد، وهي مسؤولية أدّاها باقتدار كبير يليق بمقام النبوّة والرسالة، فلم يخفِ وحياً، ولم يقصر إبلاغ بعض الآيات على فردٍ، أو أفراد، أو جماعة دون أخرى. . . فهو رسول الله إلى كلّ العالمين، ودوره يتمحوَر حول الإبلاغ والإعلان، وهذا الدور هو ما يجعل من «النبي» رسولاً.

(1) سورة المائدة، الآية: 3.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] . . . . . .

وكون النص القرآني بلاغاً معناه أن المخاطبين به هم الملأ جميعاً، لا بعضهم، أو فرداً أو أكثر منهم. . .

هذا الإعلان على الملأ (مقابلاً النشر في الجريدة الرسميّة في حينه) هو الذي ساعد على حفظ آيات القرآن وسوره في قلوب الكثيرين من أتباعه، الذين تسارعوا إلى إفراغ ما في صدورهم منه، فور الاتفاق على جمع النصوص.

وبتدوين النص كاملاً، وتعميمه، تحقّقت إرادة الله ورغبة رسوله، وتبدّت عبقرية محمد جليّة في حرصه على توثيق الوحي الإلهي، وتشدّده في عدم خلطه بما كان يقوله لمعاصريه، كنبي، خلال حياته اليومية، خارج إطار تبليغ هذا الوحي.

هذا التشدّد، بدأ بأوامر صارمة لأتباعه أن لا يكتبوا شيئاً ممّا يقوله خارج الوحي القرآني، وبتهديد بالعقاب الإلهي لمن كذب على لسانه، وبعدم الإعلان والنشر لأقواله وممارساته، التي انحصرت في محيط ضيّق من الأتباع، واقتصرت أحياناً على شخص واحد أو بضعة أفراد، تبعاً للظرف. . .

من هنا كان الموجّه الوحيد للمسلمين في عصر الرسول، هو كلام الله في القرآن، المعلن عليهم جهاراً، والمتداول بينهم دواماً، والمردّد

(1) سورة المائدة، الآية: 67.

لديهم خلال صلواتهم الخمس يومياً، وصلواتهم الأخرى من النوافل وقيام الليل، أمّا أقوال النبي وممارساته اليومية، فلم تكن جزءاً من معرفتهم العقيدية، ولا ممارستهم التعبدية، ببساطة لأنّها لم تكن معمّمة عليهم، لعدم إعلانها ونشرها، وما عرفه صاحب أو أكثر للنبي، من قول له أو فعل، جهله الآلاف الذين لم يسمعوا هذا القول أو يشهدوا هذا الفعل. . .

لقد حسم محمد الأمر لأتباعه، معلناً أن القرآن هو المصدر الوحيد لشرعهم، وهو لم يكتف بعدم إقرار أحاديثه كمصدر آخر للتشريع، وإنّما شدّد على خطورة الخلط، ونهى عنه بأشد التعابير والوعيد. .

هل يستطيع أحدٌ القول إنّ هؤلاء الذين عايشوا محمداً، كانوا ناقصي دين، أو هم يتبعون شريعة غير مكتملة، لجهلهم بأحاديث متفرقة لنبيهم، لم يسمع بها غالبيتهم إلاّ بعد عشرات السنين من وفاته؟. . . . .

ألا يمكن القول، بكلّ ثقة، إنّ مجتمع هؤلاء، خلال حياة النبي، كان المجتمع الإسلامي الأقرب إلى المثاليّة والصحّة، والمكفول تماماً برقابة رسول الله، ثمّ بدرجة أقل قليلاً برقابة خليفتيه أبي بكر وعمر، وصولاً إلى بدايات عهد عثمان التي شكّلت بداية النهاية لعصر النقاء الإسلامي؟. . .

مَن عصى أمر رسول الله؟ ومَن كذب على لسانه؟، ومَن شوّه عصر النقاء بإعلان ما لم يعلنه محمد؟. . .

بدأ هؤلاء قلّة، ثم تكاثروا في سياق الظروف، كلّما تقدم الزمان. .

أحد هؤلاء هو أبو هريرة. . . . .

مَن هو أبو هريرة؟

قيل اسمه عبد الرحمن بن صخر، وقيل بن غنم، وقيل عبد الله بن عائذ، وقيل بن عامر، وقيل بن عمرو، وقيل سكين بن رزمة بن هاني، وقيل بن ثرمل، وقيل بن صخر، وقيل عامر بن عبد شمس، وقيل بن عمير، وقيل يزيد بن عشرقة، وقيل عبد نهم، وقيل عبد شمس، وقيل غنم، وقيل عمرو بن غنم، وقيل بن عامر، وقيل سعيد بن الحارث، وقيل غير ذلك. .

قال هشام بن الكلبي: اسمه عمير بن عامر بن ذي الشرى بن طريف بن عيان بن أبي صعب بن هنيد بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس. . وهكذا قال خليفة في نسبه، إلاّ أنّه قال عتاب بدل عيان، ومنية بدل هنيد. . . وقال ابنه المحرر بن أبي هريرة: اسم أبي عبد عمرو. . .

يقال كان اسمه في الجاهلية عبد شمس وكنيته أبو الأسود، فسمّاه الرسول عبد الله وكنّاه أبا هريرة، قيل لأجل هرّة كان يحمل أولادها، وقيل إن اسم أمّه ميمونة بنت صخر، وقيل أميمة بنت صبيح أو صفيح بن الحارث، وقال الطبري: ميمونة بنت صبيح. . وهو من أرض دوس من اليمن.

ويبقى السؤال معلّقاً: مَن هو أبو هريرة؟. . . . .

روى عن النبي، وعن أبي بكر، وعمر، والفضل بن عباس، وأبي بن كعب، وأسامة بن زيد، وعائشة، ونضرة بن أبي نضرة الغفاري، وكعب الأحبار(؟). . .

وروى عنه نحو من ثمانمائة رجل وأكثر، حسب البخاري . . . وزادت أحاديثه في كتب الصحاح والسنن على الخمسة آلاف حديث. . . .

البدايات

قدم أبو هريرة مع قومه (قيل أربعمائة نفر، وقيل سبعمائة) من اليمن إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة، ووافى النبي وهو في خيبر يوم فتحها، يقول أبو هريرة: أتيت رسول الله وهو بخيبر بعد فتحها، فقلت يا رسول الله أسهم لي، فكلّم المسلمين فأشركوني من سهامهم. . (مع أن الموسوعة الحرة تناقض رواية أبي هريرة، فتورد في سيرته أنه قدم المدينة والنبي في خيبر، وصلى خلف سباع الذي استخلفه النبي على المدينة، حتى قدم النبي منتصراً على اليهود في خيبر). .

وفي المدينة، لم يعمل أبو هريرة في تجارة أو زراعة، وإنّما أقام في الصفَّة، *وهي موقع في المدينة من الجهة الشمالية، تقع في مؤخرة مسجد الرسول، وأهلها فقراء لا منازل لهم ولا عشائر، وكانوا ينامون في المسجد. يقول أبو الفداء في تاريخه: كان رسول الله إذا تعشّى يدعو طائفة منهم يتعشون معه، أو يفرّق طائفة منهم على الصحابة ليعشّوهم*[1].

ولم يؤاخِ النبي بينهم وبين الأنصار، كباقي المهاجرين. . .

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

وقد ظلّ أبو هريرة في الصفّة لا يبرحها إلى أن أرسله النبي إلى البحرين مع العلاء ابن الحضرمي، الذي عيّنه النبي أميراً على البحرين بعد فتحها في مطلع السنة التاسعة للهجرة، وعمل أبو هريرة مؤذّناً في البحرين، وبقي فيها حتى وفاة النبي، أي إنَّ أبا هريرة بقي في المدينة خلال حياة النبي ما يقرب من السنة والنصف، أو ستة عشر شهراً حسب بعض المراجع.

ونستغرب أنَّ كاتباً إسلامياً معروفاً، مثل خالد محمد خالد، يتجاهل التاريخ والحقائق، أو يتقصّد تزوير التاريخ، فيقول في كتابه «رجال حول الرسول»: *«إنَّ أبا هريرة لازم الرسول أربع سنوات، لم يفارقه فيها»*، وكأنّه تقصّد إغفال تاريخ وقعة خيبر في السنة السابعة للهجرة، وذهاب أبي هريرة إلى البحرين، وانشغال النبي بأهم أحداث التاريخ الإسلامي، ثمَّ وفاته في مطلع السنة الحادية عشرة. ويزيد في القول: *كانت تلك السنوات الأربع عمراً وحدها.. كانت طويلة عريضة، ممتلئة بكل صالح من القول، والعمل، والإصغاء..؟!!.*

تفيدنا (سيرة ابن هشام) في دراسة الأحداث التي شغلت النبي خلال هاتين السنتين، للخروج بصورة واقعيّة حول علاقة أبي هريرة بالنبي، وتقدير الفترة التي أمكن لأبي هريرة ملازمة النبي خلالها، بما يلقي بعض الضوء على إمكانيّة سماع أبي هريرة لأكثر من خمسة آلاف حديث عن النبي، ويمكّننا من تحري مصداقية الرجل فيما ادعى...

يقول ابن هشام: *فلمّا رجع الرسول إلى المدينة من خيبر، أقام بها شهري ربيع وجمادين ورجب وشعبان ورمضان وشوّال، يبعث فيما بين*

ذلك من غزوه وسراياه، ثم خرج في ذي القعدة إلى مكّة معتمراً عمرة القضاء.....

خلال الشهور الثمانية هذه انشغل النبي في ترتيب أمور مدينته، بعد الإنجاز الكبير بقضائه على عدوٍ كان يشكّل شوكةً في خاصرته، وانشغل أيضاً ببعث السرايا والغزوات، تبعاً لابن هشام، في حين التفت أبو هريرة، حديث العهد بالإسلام، وبمجتمع المدينة، إلى ترتيب سكناه ومعاشه في الصفّة، والتعرّف على المجتمع الجديد الذي كان يسعى لقبوله فيه، ولم نجد في أي من السيَر والروايات ما يشير إلى تمكّن أبي هريرة من التقرب خلال هذه الفترة من النبي المنشغل بما هو أكثر أهميّة من التفرغ لمجالسته، وإن أُتيح له بعض اللقاءات العامة معه خلال أداء الصلوات في المسجد، ودون أن يكون له أي وضع متميز عن أمثاله من أهل الصفّة.

ولم تشر أي من كتب السيَر أنَّ أبا هريرة كان ممّن خرجوا مع النبي في عمرة القضاء، التي أرادها ردّاً على قريش التي صدّته عن أداء العمرة في الشهر ذاته من السنة السابقة.. ثم لو خرج، أكان النبي ليتفرغ له دون غيره، ورغم انشغاله بما هو أهم من الحديث إليه؟!

عاد النبي إلى المدينة وبدأ التحضير لبعث سراياه إلى الشام، في غزوة مؤتة في جمادى الأولى من السنة التالية، الثامنة للهجرة... تلا ذلك تحضيره لفتح مكّة، الحدث الأهم في تاريخ الدعوة، وكانت انطلاقته في العاشر من رمضان من هذه السنة، وإنجازه للفتح في العشر الأواخر منه، توجه بعدها من مكة إلى حنين لمقاتلة هوازن، وانثنى

بعدها إلى الطائف لمقاتلة ثقيف، ثم خرج إلى مكّة معتمراً، وعاد بعدها إلى المدينة في ذي الحجّة، أي الشهر الأخير من السنة الثامنة، وقيل قبل ذلك بستة أيام.

وفي محرّم أو صفر من السنة التاسعة، أرسل النبي أبا العلاء الحضرمي أميراً على البحرين، وأرسل معه حديثَ الإسلام، ساكنَ الصفّة ،أبا هريرة ليعمل له مؤذناً، فكلّ زاده من الإسلام كان حفظ بضع عبارات يردّدها في أذانه خمس مرات كلّ يوم...

ولم يَرَ أبو هريرة النبي بعدها، إذ توفي النبي قبل رجوع أبي هريرة من البحرين...

هذه الفترة الممتدة بين السنتين السابعة والثامنة، كانت الأهم في مراحل الدعوة، وجرت فيها أكبر الإنجازات وأهم الوقائع، بدءاً من الخلاص من يهود خيبر، وتحقيق عمرة القضاء، مروراً بمقاتلة الروم في مؤتة، وفتح مكّة، ومقاتلة هوازن، وفتح الطائف، ثم العمرة الثانية....

نقول: متى أتيح للنبي في خضمّ هذا كلّهِ أن يتفرّغ ولو قليلاً لأبي هريرة دون أصحابه الآخرين؟.. وكيف أتيح لأبي هريرة أن يسمع، ويحفظ آلاف الأحاديث عن النبي، بلغ ما دوّن منها / 5374/ حديثاً؟ وهو رقم يستلزم مصاحبة لصيقة للنبي لسنوات طويلة، إذا أجرينا حساباً بسيطاً، سنأتي عليه في الفصل اللاحق، آخذين بالاعتبار السنوات العشر التي قضاها النبي في المدينة، وأوقات نومه، وقيامه، وصلاته، وزوجاته، وحروبه، وإدارته لشؤون المسلمين.

ولنتذكّر أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف، وباقي المبشرين بالجنة، ممن التصقوا بالنبي على امتداد ثلاثة وعشرين عاماً، ورافقوه في كلّ غزواته وخلواته، لم يروِ أيّ منهم بضعة عشر حديثاً، استدعتها الظروف للقياس . . . . ، ولنتذكّر قبل هؤلاء أنّ عبد الله بن مسعود الذي كان خادم النبي ومرافقه، وصاحب سواكه، ومطهرته، وحامل نعليه، وملازمه الليل والنهار، لم يبلغ ربع ما بلغ أبو هريرة في عدد الأحاديث . . . . ناهيك عن الآخرين . .

وربّما تكون شهادة عائشة ذات معنى في هذا المجال، حسب رواية البخاري، إذ قالت لأبي هريرة: إنّك تحدّث عن رسول الله بأحاديث ما سمعناها منه، فردّ عليها ساخراً: إنَّه كان يشغلك عن رسول الله المرآة والمكحلة. فأجابته عائشة: إنّما أنت الذي شغلك عن رسول الله بطنك، وألهاك نهمك عنه، حتى كنت تعدو وراء الناس في الطرقات، تلتمس منهم أن يطعموك من جوعك، فينفرون منك ويهربون، ثم ينتهي الأمر بك أن تُصرَع مغشيّاً عليك من الجوع أمام حجرتي، فيحسب الناس أنّك مجنون، فيطأون عنقك بأرجلهم . . .

يدعم هذه الشهادة، شهادة أخرى على لسان أبي هريرة ذاته، أوردها خالد محمد خالد يقول: وإنَّه *(أي أبا هريرة) ليحدثنا كيف كان الجوع يعضّ أمعاءه، فيشدّ على بطنه حجراً ويعتصر كبده بيديه، ويسقط في المسجد وهو يتلوّى، حتى يظن بعض أصحابه أنَّ به صَرَعاً، وما هو بمصروع . .*

لابدّ أن يثور الاستغراب، كيف أنّ رجلاً هذه حاله، تشغله بطنه،

ويركض وراء الناس في الطرقات التماساً لإطعامه، ويقع مصروعاً أو مغشيّاً عليه، كيف له أن يحفظ آلاف الأحاديث عن النبي، ومتى تسنّى له ذلك؟ وهل وعى ما كان يسمع، إن كان قد سمع فعلاً؟....

وقبل أن يبادر غلاة المنافحين عن (الصحابة)، المدافعين عن قداستهم، لاتهامنا بالكفر، كما درجوا، نستمهلهم، ونرجوهم استخدام الورقة والقلم، إن كان استخدام تكنولوجيا الآلة الحاسبة لا يزال مكروهاً، لاحتساب عدد الأيام، والساعات التي أتيح لأبي هريرة فيها لقاء النبي والسماع منه، وسنقدّر لهم إقناعنا بالخمسة آلاف حديث التي تستلزم مصاحبة الرسول عشرات السنين - كما سنبين لاحقاً -، وما نحن إلاّ باحثين عن الحقيقة، ولا موقف شخصي لنا تجاه أبي هريرة أو غيره.. ولسنا أيضاً طرفاً في محاولات إخواننا الشيعة تقصّد الإساءة إليه وأمثاله ممن لم يقفوا مع علي ضد معاوية، هي الغيرة على الدين، ومحاولة فرز الغث من السمين، من خلال دراسة أحد النماذج، وطاعة الله في أمره بتعقّل الأمور، ورفض محاولات استغفالنا...

وهنا نلحظ أن أبا هريرة قد ورّط نفسه بحديث قال فيه: (ما من أصحاب النبي أحد أكثر حديثاً عنه منّي، إلاّ ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنّه كان يكتب ولا أكتب..)، إذ يكشف لنا ابن الأثير أنّه كان لعبد الله بن عمرو صحيفة كتب فيها ما سمعه من أحاديث عن النبي، بلغت ألف حديث.... ونعلم أن عبد الله أسلم وصاحب النبي قبل أبي هريرة بسنين عديدة، وقيل إنّه أسلم قبل أبيه عمرو بن

العاص، فإذا كان هذا، وكان يكتب، ولم يتيسر له كتابة أكثر من ألف حديث، فمن أين جاء أبو هريرة بخمسة أضعافها..؟..

وهنا، تخيفنا الحقيقة التي ذكرها البخاري، من أن نحواً من ثمانمائة رجل رَووا عن أبي هريرة، ألسنا أمام سلسلة مخيفة بُنيت على الكذب، وسوّقت في كتبٍ سميناها صحاحاً وسنناً؟ لا سيّما وأن أبا هريرة مات في العام التاسع والخمسين للهجرة، أي إنَّه عاش تسعاً وأربعين سنة بعد النبي، مستثمراً كذبة الصحبة التي لم تدم أسابيع متقطعة..

ليس مهمّاً متى عاد أبو هريرة إلى المدينة بعد وفاة النبي، لكن الصورة تتضح، حين نتصور هذا اليماني، حديث الإسلام، قادماً المدينة، دون عشيرة أو أهل، بغياب النبي كظلٍّ كان يستظلّه المستضعفون، ودون أي فضل في غزوة أو جهاد، أو صحبة حقيقية للنبي تمنحه بعض المكانة بين أهل المدينة، أي بصحيفة سوابق لا تمنحه أدنى مكانة في هذا المجتمع، اقتصر ما فيها على عمله مؤذنّاً في البحرين لبعض الوقت.... وإن كان هذا العمل قد خدمه لاحقاً.

إن صحَّ حديث عائشة، حول سيرته في المدينة، وشهادته عن نفسه، في الفترة السابقة لرحيله إلى البحرين، فلنا أن نتصوّر موقفي الطرفين، أي موقف أبي هريرة القادم إلى مجتمع لم يحترمه قبلاً، وموقف ذاك المجتمع تجاه هذا الوافد الطارئ.....

إنَّ تفهّمَ واستيعابَ هذين الموقفين كفيلٌ بتوضيح الصورة حول كلِّ ما حصل لاحقاً..

لم يكن لدى أبي هريرة أيّة خبرة في أعمال التجارة التي كان يمارسها المهاجرون، ولا في الزراعة التي مارسها الأنصار، فخبراته قبل إسلامه اقتصرت على عمله خادماً لسيّدة كان يهيئ لها رحلها ويقوده، مقابل أكل بطنه، وهي السيّدة التي تزوجها لاحقاً بفضل الإسلام، وهو يقول: *نشأت يتيماً وهاجرت مسكيناً.. وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني، كنت أخدمهم إذا نزلوا، وأحدو لهم إذا ركبوا، وها أنذا قد زوّجنيها الله، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبا هريرة إماماً..*

كما لم يكن يمتلك من الشجاعة (وربّما العقيدة) ما يدفعه للتطوّع في جيوش المسلمين، كما فعل الآخرون،.. وإن كان خالد محمد خالد يمرّر عبارة مجتزأة فيقول عنه بعد وفاة الرسول: *وعاش أبو هريرة عابداً، مجاهداً..... لا يتخلف عن غزوة، ولا عن طاعة..* دون أن يذكر لنا متى غزا، وكيف أبلى...

في مجتمع مسلم، يقدّس قيمة العمل مهما اتّضع، لم نقرأ أنَّ أبا هريرة باشر العمل ولو أجيراً، لا في زراعة الأنصار، ولا في تجارة المهاجرين، رغم الفرص المتاحة، لنقص اليد العاملة، نتيجة توجّه الجميع إلى الانخراط في الجيوش التي خاضت حروب الردّة، ثم الفتوحات، دفاعاً عن الدين أو طمعاً في المغانم، ويبدو أنّه اكتفى بما كان يصيبه من فتات الغنائم التي كانت تصل إلى المدينة بين الحين والآخر، وما كان يجود به عليه أهل المدينة، وهم الذين ألفوه فقيراً عاطلاً لا همّة له على ملء بطنه بعرق جبينه..

وإذ أغلق أبو هريرة أمام نفسه أبواب العمل الشريف، وخيارات

وأوجه البحث عن الرزق، وأغلق مجتمع المدينة أمامه الموقع والمكانة، وأغلقت سيرته السابقة أمامه القدرة على ادّعاء الفضل في الغزو ونصرة الدين، فقد اتجه وجهة ذات دلالة عبقريّة، هي تمثُّل دور الصحابي القريب من النبي، بما يمنحه هذا الدور من امتيازات ومزايا. . .

لكنَّ مزاحمة الصحابة ذوي السبق في الإسلام، والفضل في الدفاع عنه، أهل البيعات والهجرات والغزوات، ممّا لم يكن لأبي هريرة سهم في أيٍّ منها، استلزمت منه ذكاءً فذّاً، وعبقريّةً لافتة، الادّعاء بحمله المخزون الأكبر من تراث محمد، أي أحاديثه، بما لم يجرؤ غيره على ادعائه، مهما طالت صحبته للنبي. . . . .

وانطلق اليماني في مشروعه. . ولكن بتمهّل وتؤدة، لقرب العهد بالنبي في السنوات الأولى، ولتشدّد الخليفتين أبي بكر وعمر في تضييق رواية الحديث. . . هذا التشدّد الذي لم يسكته بالمرّة، وإنما دفعه للتخطيط لمشروعه بذكاء أكبر، فبدأ يردّد بعض الأحاديث التي تسنّى له سماعها من النبي خلال الفترات القصيرة التي أتيح له فيها الاقتراب منه، وكان يدرس ردود الأفعال . . .

كان أبو بكر وعمر يحثّان الناس على الإقلال من الرواية عن رسول الله، فقد خطب أبو بكر مرّة في الناس، فقال: «إنّكم تحدّثون عن رسول الله أحاديثَ تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم قولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه»[1]. .

---

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

ويروي الحافظ الذهبي أن عمر بن الخطاب حبس أربعة من صحابة رسول الله، هم ابن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وأبو الدرداء، وأبو مسعود الأنصاري، وقال لهم: «لقد أكثرتم الحديث عن رسول الله» . .

ونتساءل: لماذا لم يحبس عمر أبا هريرة معهم بالتهمة ذاتها، وكلّهم أقرب منه صحبة للنبي، وأصدق منه قولاً، وأكرم منه مقاماً؟

ذاك لأنَّ أبا هريرة لم يكن ممّن يكثرون الحديث في حينه، لخشيته من عمر، ولقناعته بأن الكثيرين ممّن بقوا أحياء من صحابة النبي سيكذبونه ويفضحون أمره، لا سيّما وأن عمر قد استبقاهم بالمدينة ولم يسمح لهم بمغادرتها مع الجيوش، وهو اكتفى بإطلاق بعض الأحاديث القليلة، وحتى هذه استهجنها عمر، فنهاه وهدّده بالنفي إلى أرض دوس، مسقط رأسه...

ولعلَّ فكرة النفي لم تبارح عمر، الذي نفّذها بطريقة مغايرة، إذ ولّى أبا هريرة أميراً على البحرين، في سنة 20 هجرية، لمعرفته بها خلال عمله فيها مؤذناً لأبي العلاء الحضرمي، وقد أراد عمر الخلاص من محدّث عن النبي غير موثوق، ورأى في إشغاله بالإمارة ما يلهيه عن الحديث...

وقد صدق ظنّ عمر، فسكت أبو هريرة عن الحديث، لكنّه خيّب ظن عمر في مقامٍ آخر، إذ بلغ عمر عنه أشياءُ تخلّ بالأمانة، فعزله وولّى مكانه عثمان بن أبي العاص، وقدم أبو هريرة إلى المدينة ومعه أربعمائة ألف درهم، فقال له عمر: أظلمت أحداً؟ قال لا، قال: فما جئت به لنفسك؟ قال: عشرين ألفاً، قال: من أين أصبتها؟ قال: كنت أتجر، فقاسمه عمر وأخذ منه عشرة آلاف لبيت المال. .

وفي رواية ابن سعد في طبقاته، والبلاذري في «فتوح البلدان» أن عمر قال له: «ياعدو الله، وعدو كتابه، سرقت مال الله. . . .». . . أكّد الرواية ابن عبد ربه الذي أثبت أن عمر ضربه بالدرّة حتى أدماه، وكذلك ابن كثير، وابن قتيبة الدينوري، وابن أبي الحديد المعتزلي. . .

هذه الروايات المجمَع عليها، تضيء جانباً لا بد من أخذه في الاعتبار في تقييم الرجل، ومدى مصداقيته وموثوقيّة ما نقله عن الرسول. . . .

ربّما لا نبتعد عن الحقيقة لو قرّرنا أن هذا الموقف من عمر تجاه أبي هريرة، أي كشف لصوصيته وضربه له حتى أدماه، قد أحدث انقلاباً في تكوين فكر وموقف الرجل، أو ربّما عزّز موقفاً مبيّتاً نام عليه طويلاً، وهو ما سيظهر لاحقاً. .

يقول إبراهيم فوزي: *وقد توقف أبو هريرة عن التحدّث عن رسول الله، إلى أن مات عمر، فعاد يحدّث، وقال: إنّي أحدّثكم بأحاديث عن رسول الله لو حدّثتكم بها في زمن عمر لضربني بالدرّة. . .*

ونقل الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال: ما كنّا نستطيع أن نقول قال رسول الله حتى قُبِضَ عمر، كنّا نخاف السياط. .

كان موت عمر اللحظة التي انتظرها أبو هريرة، وجاءت بها الأقدار، لإطلاق مشروعه الذي تبلوَر وبات ناضجاً وجاهزاً. . . وهو كان قد وفّر زاداً آخر وذخيرة إضافية لمشروعه قبل موت عمر، أتيحت له بإسلام كعب الأحبار، اليهودي الذي قدم من اليمن، بلاد أبي

هريرة، أيام عمر، حاملاً معه رصيداً مذخوراً من الإسرائيليات التي ستضرب الإسلام بعد ذلك ضربات نافذة...

التصق أبو هريرة بكعب الأحبار، وتتلمذ على يديه، وملأ رأسه بقصص التوراة...

روى ابن سعد في طبقاته الكبرى، *أنّ أبا هريرة جاء إلى كعب الأحبار يسأل عنه، فقال: «إنّي جئتك لأطلب العلم عندك»، وقد وجد كعب بغيته في أبي هريرة الذي كان يزعم أنّه أحفظ الناس لأحاديث رسول الله، وكان كعب يلقي دروسه في المسجد، فيقرأ القرآن ويفسره بالتوراة*[1].

ونتساءل: أي علم يطلبه (صحابي) مضى على إسلامه سبع سنوات أو ثمان، ويدّعي أنه لازم النبي وحفظ عنه، من يهودي أسلم تواً ولم يقابل النبي؟

ذكر الذهبي في «طبقات الحفّاظ» وفي أعلام النبوّة في ترجمة أبي هريرة، أن كعب الأحبار قال في أبي هريرة: «ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة»[2].

وروى مسلم في صحيحه عن بسر بن سعد قال: «اتقوا الله وتحفّظوا في الحديث، فوالله لقد رأيت كعباً يجالس أبا هريرة فيحدّث عن رسول الله، ويحدّث هذا عن كعب الأحبار، ثم يقوم، فأسمع

---

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

(2) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

بعض مَن كانوا معنا يجعل ما قاله كعب عن رسول الله، وما قاله رسول الله عن كعب»...!!

وقال يزيد بن هارون: سمعت شعبة يقول: أبو هريرة كان يدلّس في الحديث، فيروي ما سمعه من كعب الأحبار وما سمعه من رسول الله، فلا يميّز هذا من ذاك[1].

ويقول طه حسين عن كعب الأحبار: *«كان يهودياً من أهل اليمن، لقد عرف كيف كان يخدع كثيراً من المسلمين، لم يأت المدينة في أيام النبي، وإنّما أقام على يهوديته في اليمن، وأقبل إلى المدينة أيام عمر بن الخطّاب، وكان بارعاً في الكذب على المسلمين، يزعم أنّه يجد صفاتهم في التوراة، وقد كذب على عمر فزعم أنّه وجد صفته في التوراة، كما روى البخاري ومسلم»*[2]..

وحيث لم يصحب كعبُ الأحبار النبي، فلسنا نتوقع منه نقل أيّة أحاديث مباشرة عنه، لكنّنا نلمح تأثيره الكبير، فيما مرّره عبر تلميذه المخلص أبي هريرة...

انطلق أبو هريرة، متجنداً بمخططه، والذخيرة التي زوّده إيّاها كعب الأحبار... وكانت فترة ولاية عثمان بن عفّان فترة ذهبية أتاحت له تأكيد موقعه كصحابي ومحدّثٍ لا مجارٍ له عن النبي..

كان عثمان نقيض عمر في كل الوجوه، ولعلّ هذا كان السبب في

---

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.

حرص المستائين من شدة عمر على توليته، ناهيك عن أطماع بني أميّة.

ساهم ضعف عثمان في انفلات المتربصين، وذوي النفوس الضعيفة، والطامعين في الثراء، كما ساهم تحيّزه لأقاربه من آل أميّة وتقريبهم وتوليتهم في خلق حالة سلبيّة تجاه مقام الخلافة، أثمرت انقسامات وتحزبات وتحالفات بدأت تحت السطح، وظهرت بأقصى أشكالها مع الفتنة التي أدت إلى مقتله، وهو ربّما كان الحدث الأهم في تاريخ الدولة، أسّس لكلِّ ما بعده..

في هذا المناخ ألقى أبو هريرة بآلاف الأحاديث عن النبي، وكذلك فعل غيره وإن بعدد أقل، ومع أنَّ الجميع كانوا مشغولين بأمورهم وحساسيّاتهم، ولاحقاً بخلافاتهم وصراعاتهم، إلاّ أن ذلك لم يمنع البعض من التصدي لأبي هريرة وتكذيبه فيما ينسب إلى النبي، وقد رأينا رد عائشة عليه فيما أشرنا...

ينقل إبراهيم فوزي عن ابن قتيبة[1]:

«ولقد أتى أبو هريرة ما لم يأت بمثله جلّة الصحابة والسابقين الأولين، اتهموه وأنكروا عليه، وقالوا كيف سمعت هذا وحدك ومَن سمع معك؟ وكانت عائشة أشدّهم إنكاراً عليه، وكانت تعارضه لتطاول الأيام بهما، وقد توفيت قبله بسنة».

يقول مصطفى صادق الرافعي في أبي هريرة: هو أول راوية في الإسلام اتُّهم.....

(1) ابن قتيبة... تأويل مختلف الأحاديث.

وروى ابن عبد الله في «الإصابة»، أنَّ جماعة من الصحابة سمعوا أبا هريرة يقول: *قال رسول الله: «مَن أصبح جنباً فلا صيام عليه»، فسارعوا إلى زوجتي الرسول أم سلمة وعائشة، للتحقّق من صحّة الحديث، فأجابتا أن رسول الله كان يمضي ليلته جنباً وفي الصباح يصوم، ورجع الصحابة إلى أبي هريرة، فاعترف لهم أنَّه لم يسمع هذا الحديث من النبي، وإنَّما سمعه من غيره....*

وقد أكّد الإمام الغزالي هذه الواقعة[1] وقال إن أبا هريرة ادّعى سماع الحديث من الفضل بن عباس..

هذا اعتراف صريح بالكذب على لسان النبي، من الراوية الأول، الذي ربّما فاته أنَّه هو مَن روى الحديث الآخر عن النبي: «مَن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار»...

وينطبق على أبي هريرة قول الله الحق: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[2].

كما ينطبق عليه، ما ذهب إليه أحمد بن حنبل، وأبو بكر الحميدي، والصيرفي، والسمعاني **«أن مَن كذب في حديث واحد فُسّقَ، ورُدّت روايته، وبطل الاحتجاج بها، وإن تاب وحسنت توبته»**.....، وسنرى أن أبا هريرة كذب كثيراً ولم يتب....

صدق النبي، وكذب أبو هريرة، وتبوأ مقعده في النار، والنار

---

(1) الغزالي - المستصفى في علم الأصول.
(2) سورة النحل، الآية: 105.

أعدّت للكافرين........ وبئس القوم يأخذون أحاديث نبيّهم من الكذبة والكفرة وأهل النار.....

جريمة أبي هريرة بحق النبي والإسلام

لا يكفي استعراض السيرة لحسم الاتهام، لا بدَّ من دراسة الأحاديث التي نقلها أبو هريرة منسوبة إلى النبي، واحتلّت صدارة كتب الصحاح والسنن، لتبيّن جريمته وجريمة كتّاب هذه الصحاح والسنن.... وجريمة المسلمين العاملين بها...

تندرج الأحاديث التي نسبها أبو هريرة إلى النبي، وجلّها أحاديث آحاد، انفرد بها دون غيره، متكئاً على جهل المسلمين، تحت بضعة عناوين:

1 - أحاديث كفرٍ تخالف كتاب الله..

2 - أحاديث تافهة تسيء إلى مقام النبوّة، لا فائدة فيها للمسلمين، تخالف العقل والشرع.

3 - أحاديث صريحة الكذب تستغفل عقول المسلمين.

4 - إسرائيليات من دس كعب الأحبار.

5 - أحاديث كاذبة في خدمة السلطان.

ونستعرض بعض الأمثلة... **فيما يخالف كتاب الله:**

- حديثه: «لا يدخل الجنّة ولدُ الزنى»، وقد أنكرته عائشة وقرأت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].. وهذا كفر صريح بالعدل الإلهي،

(1) سورة الأنعام، الآية: 164.

وبكلام الله . . . . صدق الله وكذب أبو هريرة.

- حديثه الذي أورده البخاري، أنَّ النبي قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك. . . ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر»، في مخالفة لكلام الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[1]، وصدق الله وكذب أبو هريرة. . الذي عاود رواية حديث آخر كاذب عن الساعة وهو حديثه أن النبي قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، تضيء لها أعناق الإبل ببصرى»، ويبدو أنّه نسي أكاذيبه فجاء بحديث آخر في الأمر ذاته، عن لسان النبي: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان، يسوق الناس بعصاه»، ثم كرّر ذلك فقال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود. . .»، ثم حديث آخر خامس: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» . . . خمسة أحاديث تحدّد وقائع متباينة مختلفة لما لا يجوز للنبي أن يحدّده: (فيم أنت من ذكراها) أفلا نصدّق الله عزوجل ، ونكذّب أبا هريرة؟.

- روى ابن كثير في تفسيره عن أبي هريرة أنّه قال: سمعت رسول الله يحكي عن موسى على المنبر، قال: «وقع في نفس موسى، هل ينام الله عزوجل . . .الخ»، ويقول ابن كثير إنّه من الإسرائيليات المنكرة، فإنَّ موسى أجلّ من أن يجوّز على الله النوم، وهو القائل بأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم. . . ونقول إنَّ محمداً لا يتهم أخاه موسى بمثل هذا، وصدق الله ورسوله وكذب أبو هريرة.

(1) سورة النازعات، الآيتان: 42/ 44.

- حديث يوحي بكفر صريح، مردّه جهل أبي هريرة بكروية الأرض، أن النبي قال: «ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول: مَن يدعوني فأستجب له، مَن يسألني فأعطيه، ومَن يستغفرني فأغفر له»، نقول: إذا كانت الأرض كرويّة وتدور حول الشمس، ويتعاقب الليل والنهار على بقاع الأرض دون أن يختفي أيٌّ منهما، فهل يبقى الله على مدار الساعة في السماء الدنيا لتلبية طلبات عباده في بقاع الأرض المختلفة؟ أم أنّه يقصد ليل مسلمي الحجاز الذي يصادف العصر لدى مسلمي واشنطن والصباح لدى مسلمي شرق آسيا مثلاً؟... هذا إذا نسينا أنَّ الله قد وسع عرشه السموات والأرض، وهو ليس مقيماً في سماءٍ محدّدة دون الأخرى، كونه خارج حدود الزمان والمكان..

- حديث في صحيح مسلم، أن النبي قال: «لن يُدخِل أحداً منكم عمله الجنّة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة».. في إشارة إلى أنّ العمل الصالح الذي طالَبنا الله به ليس طريقاً إلى الجنّة، ما لم يتلطف الله ويرحم عبده بقبول هذا العمل، مناقضاً عشرات الآيات:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(1).

﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(2).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾(3).. الخ..

---

(1) سورة النحل، الآية: 32.
(2) سورة الأعراف، الآية: 43.
(3) سورة لقمان، الآية: 8.

والغريب أنّ أبا هريرة أجرى تحريفاً على أهم عبارات الحديث، إذ نقرأ نصّاً مغايراً نقله ابن قيّم الجوزيّة في كتابه «هادي الأرواح»، عن أبي النعيم عن أبي الزبير عن جابر أن النبي قال: «لا يُدخل أحداً منكم الجنة عملُه ولا يجيره من النار، ولا أنا إلاّ بتوحيد الله تعالى»..

والفرق كبير بين النصّين....

فمَن الكاذب هنا؟...

- وغيره كثير.....

وبعض الأمثلة من الأحاديث التافهة التي تسيء إلى الرسول، وتخالف العقل والشرع:

- حديث: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليلعق أصابعه..»...

- حديث: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنّها رأت ملَكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنّه رأى الشيطان»، هل يربط النبي لغة الديكة والحمير برؤية الملائكة والشياطين؟

وماذا عن الحيوانات الأخرى..؟ ألا يتوجب أن نقول: إذا قرأتم حديثاً عن أبي هريرة فتعوّذوا بالله، فقد كان الشيطانَ عينَه..

- حديث: «مَن أمسك كلباً، فإنّه ينقص كلَّ يوم من عمله قيراط، إلاّ كلبَ حرثٍ أو ماشية»، وفي رواية أخرى: «إلاّ كلب غنمٍ أو حرثٍ أو صيد»، وفي رواية ثالثة: «إلا! كلب صيد أو ماشية»..؟.

- حديث: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان، له ضراط حتى لا

يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، حتى إذا ثوّب بالصلاة أدبر.. الخ»، تصوّروا النبي يقول هذا الكلام /حاشاه/.. ولنتخيّل وضع الشيطان في المدن التي كثرت فيها المساجد، واختلاف مواقيت الأذان بين بقعة وأخرى، وضراط متواصل بين إدبار وإقبال لا ينتهيان....

- حديث: «إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاث مرّات، فإن الشيطان يبيت على خياشيمه»، وهو لم يخبرنا لماذا نوقظ الشيطان، أليس من الأجدى تركه نائماً..، ثمّ أنّنا نستيقظ بعد أذان الصبح، حين يكون الشيطان في ذروة ضراطه، وإقباله وإدباره، حسب الحديث السابق، فكيف يتفق أنّه نائم على خياشيمنا حينها، أم أنّ هذا غير ذاك؟.. /حاشا رسول الله من هذه الترهات/...

- حديث قال فيه: ذُكر عند رسول الله رجل نام ليلته حتى أصبح، قال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»، الشيطان يبيت على الخياشيم ويقضي حاجته على الأذنين....... لا تعليق.

ويبدو أنّ أبا هريرة احتار فيما يقول عن الشيطان، كذباً على لسان النبي، فجاء بأحاديث أخرى مغايرة:

- حديث أن النبي قال: «إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل»، تصوّروا محمداً يربط التثاؤب وهو عملية فيزيولوجية لا إرادية بالشيطان.. ألم يتثاءب محمدٌ يوماً؟. والغريب أن أبا هريرة يورد الحديث مرّة ثانية، ولكن بصياغة أخرى..

- أن النبي قال: «التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده

ما استطاع، فإن تثاءب أحدكم ضحك الشيطان»... فهل يدخل الشيطان، أم يضحك، أم تُراه يدخل ضاحكاً؟...

- حديث أن النبي قال: «الشؤم في ثلاثة: المرأة والدار والدابة»...... وقد أنكرته عائشة بهذه الصياغة، وقالت إن أبا هريرة ربّما حضر مجلس الرسول متأخراً فسمع نصف الحديث، دون النصف الأول: «كانت اليهود تقول: الشؤم في...».

- حديث أن النبي قال: «ما يقطع الصلاة ثلاثة، الكلب والحمار والمرأة»، وهنا أيضاً قالت عائشة: شبهتمونا بالكلاب والحمير، والله لقد رأيت رسول الله يصلّي وأنا على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة.. وكذب أبو هريرة...

- حديث أن النبي قال: «لأن يمتلئ جوف الرجل قيحاً خيرٌ من أن يمتلئ شِعراً»....؟، دون أن يفسّر لنا موقف الرسول من شعرائه حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، ومن قصيدة كعب بن زهير التي ألبسه بردته مكافأة عليها، وإطرائه لزهير بن أبي سلمى الذي مات قبل البعثة...

- حديث أن النبي قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات ليلته غضبان، عليها لعنة الله وملائكته حتى تصبح»... تصوّروا رب العزة وملائكته يتربصون بالنسوة الرافضات النكاح لصب اللعنات عليهن، دون أن يستثني الحديث حالات المرض أو الاضطرار أو الوضع النفسي للمرأة المسكينة الذي بات خلاصها من اللعنة بفتح رجليها.. وهو لم يذكر لنا عقوبة الرجل الذي لا يلبي زوجته أو يرضيها...

ويبدو لنا أن زوجة أبي هريرة كانت تحتقره، وتتمنّع عن وصاله، فخرج علينا بهذه الأكاذيب عن المرأة انتقاماً..

- حديث أن النبي قال: «لا يشربنّ أحد منكم قائماً، فمَن نسي فليستقئ»..... اشربوا مضطجعين..

وقد كذّب علي بن أبي طالب هذا الحديث، إذ شرب قائماً وقال: إنّ ناساً يكره أحدهم أن يشرب وهو قائم، وإنّي رأيت النبي فعل كما فعلتُ[1]، كما كذّبه ابن عباس الذي قال: شرب النبي قائماً من زمزم[2]....

- حديث أن النبي قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»! دون أن يذكر لنا مع مَن خانت حواء زوجها آدم، الرجل الوحيد حولها...

- حديث أن النبي قال: «يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً».. وقد انحسر الفرات إلى أخفض مستوى له بعد إنشاء تركيا للسدود العديدة على منابعه، دون أن ينحسر عن كنز أبي هريرة المزعوم، وهو لم يفسّر لنا لماذا يقحم النبي نفسه بهذه الترهات والغيبيّات الممجوجة...

- حديث أن النبي قال: «لا يمشِ أحدكم في نعل واحدة، لِيُحفِهما جميعاً أو لينعلهما»... لا تعليق..

---

(1) البخاري 5615.

(2) البخاري 5617.

- حديث أن النبي قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار». . . وهذا الحديث الذي لا يمكن أن يصدر عن نبي، هو الأكثر تطبيقاً لدى إخواننا السلفيين الذين يرون القدوة بالنبي محصورة بتقصير الثوب، لا بالسلوكيات والأخلاق. . . ودون أن يتساءلوا كيف يسقط النبي العبادة والعمل الصالح وأركان الإيمان الأخرى، ليحصر دخول الجنّة، أو النار، بطول الثوب. . . حاشا رسول الله، وكذب أبو هريرة. . . .

- حديث أن النبي قال: «إذا جلس أحدكم لحاجته (إتيان الغائط) فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها»، ألا تحتاج حماماتنا ومراحيضنا اليوم لإعادة النظر في تموضعها الجغرافي، لئلا نستقبل أو نستدبر القبلة، وقد ورد حديث مخالف بالنص. . . كذب أبو هريرة.

- حديث أنّ النبي قال: «مَن كان له شَعر فليكرمه» الذي يبدو دعاية للحلاقين، لا حديث نبي. . . . . .

- حديث أن النبي قال: «مَن عُرِض عليه طيب فلا يردّه، فإنّه خفيف المحمل طيّب الرائحة». . . . وهو حديث يليق بأبي هريرة، وأشعب، لا بالنبي الكريم. . . . .

- وغيرها كثير. . . . . .

وأما الأمثلة على الأحاديث صريحة الكذب، التي تستغفل عقول المسلمين، فهي كثيرة تمتلئ بها كتب الحديث، نأتي على بعضها تفادياً للإطالة:

* عن أبي هريرة أنّه لمّا أقبل يريد الإسلام، ومعه غلامه، ضلّ كلّ

واحد منهما عن صاحبه، فأقبل بعد ذلك وأبو هريرة جالس مع النبي، فقال النبي: (يا أبا هريرة، هذا غلامك قد أتاك)، فقال: أما إنّي أشهدك أنّه حر. . . [1].

الحديث يشير إلى لحظة قدوم أبي هريرة لإعلان إسلامه، أي في خيبر، ونسأل:

1 - هل كان لأبي هريرة غلام يخدمه؟ وقد عرفناه غلاماً خادماً لغيره.

2 - في خضمّ انشغال النبي بمعركة خيبر، وتوزيع الغنائم، متى وجد وقتاً للجلوس مع أبي هريرة، الذي لم يره قبل هذا اليوم؟ وإذا كان أبو هريرة قد قدم مع قومه وهم أربعمائة، وقيل سبعمائة كما تخبرنا الروايات، فلماذا اصطفاه النبي من بينهم للجلوس معه، وهو لم يكن ذا شأن فيهم؟. . . . .

3 - كيف رفع النبي الكلفة مع أبي هريرة سريعاً؟ وكيف عرف غلامه؟ هل يستحق الأمر معجزة إلهية هبطت على النبي؟

4 - أوضح دليل على الكذب، هو ادعاؤه أن النبي خاطبه (يا أبا هريرة)، ولا ندري كيف عرف لقبه الخاص ولم يمض على لقائه به دقائق معدودات، كما أنّه أصلاً لم يكن قد لقّبَ بهذا الاسم الذي جاء بعد فترة من مكوثه في المدينة، وتربيته لهرّة صغيرة، ثم إنّ أبا هريرة يكذّب نفسه، فهو يقول في مقام آخر: كان رسول الله يدعوني أبا هر،

---

(1) البخاري 2530.

والناس يدعونني أبا هريرة، ولأن تكنوني بالذكر أحب إليّ من أن تكنوني بالأنثى... أي إنّنا أمام روايتين متناقضتين للمدّعي ذاته، فأيّهما نصدّق؟

* حديث أورده مالك في الموطأ، أنّ أبا هريرة حدّث الناس عن الرسول فقال: أنّ رسول الله نعى النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى، فصفّ بهم، وكبّر أربع تكبيرات.

وحيث أن الحادثة قد تكون واقعيّة وصحيحة، وإن لم ترد على لسان محدّث آخر ممّن كانوا خلف النبي حينها، فقد أراد أبو هريرة استغلالها في روايته، فذكرها تفصيلاً، وأشار إلى عدد التكبيرات التي كبّرها النبي، كما لو كان وراءه... في حين تخبرنا كتب التاريخ أنّ النجاشي مات في رجب سنة تسع للهجرة، أي في الفترة التي كان أبو هريرة مقيماً فيها في البحرين، كما رأينا في سيرته....

* حديث أورده البخاري، عن أبي هريرة، أنّ رسول الله قال، حين أُنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، : «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيّة عمّة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئتِ، لا أغني عنك من الله شيئاً»... ونعلم أنّ الآية المشار إليها جاءت في سورة الشعراء، التي تنزّلت في منتصف فترة الدعوة المكيّة، أي قبل إسلام أبي هريرة في السنة السابعة للهجرة، بما لا يقل عن 12 عاماً، كما أنّ عمر فاطمة في حينه لم

يتجاوز العشر سنوات، وكانت أخواتها زينب ورقية وأم كلثوم على قيد الحياة، وأكبر منها سنّاً، بما لا يبرّر مخاطبتها، وهي لم تعقل بعد، واستثناء أخواتها، ناهيك عن مخاطبة العباس الذي بقي مشركاً، وحارب المسلمين في بدر وأُسر فيها، واستثناء أبي طالب الأقرب إلى قلب النبي، وحمزة وغيرهم....

وحيث أن مضمون الحديث معقول ومنطقي، ويتّسق مع الآية، فقد أراد أبو هريرة بتوليفه وإلقائه، ترسيخ مرجعية تاريخية لنفسه، لدى المسلمين الجدد، خاصّة من أهل الشام، ممّن كانوا يجهلون تاريخ إسلامه..

أمّا الأمثلة على الإسرائيليات فهي إدانة صريحة لأبي هريرة بمشاركته في هدم الإسلام، وتنفيذه لخطّة كعب الأحبار.... ونتابع:

- أورد البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة، حديثاً منسوباً إلى النبي عن طريق أبي هريرة قال: «**يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».. هذا الحديث ورد بالنص في رسالة بولس الأولى إلى أهالي كورنثوس، في الآية التاسعة من الإصحاح الثاني، كما يلي: (ولكن كما كُتب، ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، ما أعدّه الله للذين يحبّونه).. وهو مأخوذ من سفر إشعيا في الترجمة السبعينيّة (ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، ما أعده الله لأولئك الذين يحبّونه، ويصبرون له، ويترقبون رحمته).

- روى مسلم في (صحيحه)، بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول يوم القيامة «يا بن آدم، مرضت فلم تعُدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُده؟ أما علمت أنَّك لو عدته لوجدتني عنده؟........، يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أنَّه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنَّك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي... يا بن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنّك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»... وقد صنّف هذا الحديث كحديث قدسيّ..... هذا الحديث جاء بالنص، بتوسع أكبر على لسان السيّد المسيح، في إنجيل متّى، الآيات من 31 حتى 46 من الإصحاح الخامس والعشرين... ومَن شاء فليفتح إنجيل متّى...

- روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة عن النبي أنّه قال «خلق الله عَزَّوَجَلَّ آدم على صورته طوله ستّون ذراعاً»... وهذا ما لم يرد في قرآن، لكنّه ورد في التوراة - سفر التكوين الإصحاح الأول الفقرة 27 «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه»، ثمَّ هل يقول الرسول إن طول الله ستون ذراعاً، وهو ما لم تقله التوراة..؟

- روى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله بيدي (تلفيق مقصود)، فقال: «خلق الله عَزَّوَجَلَّ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم

الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»[1]..

ونتساءل، هل يورّط النبي نفسه بوصف الله من سكان الأرض مثلنا يتبع تقويماً وساعات، وهل يومه كيومنا، مع أنّه جلّ جلاله أشار إلى أنّ يومَه ألف ممّا تعدّون، ثمّ عدّه خمسين ألف سنة في سورة المعارج، في إشارة إلى أنّه خارج مفهوم الزمان والمكان؟... لكن الأمر يتكشّف لنا حين نجد القصّة نفسها في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الأول، وقد أخذها أبو هريرة وزاد فيها سوءاً فجاء بما لم تأتِ به، إذ أشارت التوراة إلى اليوم الأول واليوم الثاني، دون تحديد ما إذا كانت أياماً أرضيّة أم سماويّة، في حين لجأ أبو هريرة بحرفيّة وسوء نيّة إلى تسمية الأيام بالسبت والأحد وباقي أيام الأسبوع الأرضيّة، وحدّد من عنده ساعة خلق آدم بين العصر والليل، كما لو كان الله يتبع توقيت الحجاز أو بلاد الشام...

(أكثر من ذلك، هو أمعن في توريط النبي بهذه الترهات، حين أتى بحديث، نسبه إلى النبي، أنّه قال: «تفتح أبواب الجنّة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفَر لكلّ عبد لا يُشرك بالله شيئاً، إلاّ رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء»، أي خصومة[2]...

- أورد الطبري[3] روايتين عن أبي هريرة من طريق ابن اسحق،

(1) البخاري 2789.

(2) مسلم 35/ 2565.

(3) الطبري - جامع البيان ج 3 ص 291.

مرفوعتين إلى رسول الله، جاء في الأولى: «ليُهبِطَنَّ الله عيسى ابن مريم حكماً عادلاً، وإماماً مقسطاً، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يجد من يأخذه، وليسلكن الروحاء حاجاً أو معتمراً، أو يدين بهما معاً»...

والثانية، «أنّ الأنبياء أخوة لعلاّت، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنّه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنّه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنّه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، يدقّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويفيض المال، ويقاتل الناس على الإسلام، حتى يهلك في زمانه الملل كلّها، ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذّاب الدجّال، وتقع في الأرض الآمنة حتّى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغلمان بالحيّات، لا يضرّ بعضهم بعضاً، فيثبت في الأرض أربعين سنة، ثمّ يتوفى ويصلّي عليه المسلمون ويدفنونه»...

وقد اعتُبَر الحديث الأول أصلاً بُنيت عليه تأويلات المفسرين للآيات القرآنيّة المتحدثة عن وفاة المسيح، ففسّرت هذه الآيات وفق رؤية توراتيّة وإنجيليّة، لا إسلاميّة...

وحيث أنّ القرآن، لم يذكر شيئاً عن الدجّال، أو المسيح المنتظر، رغم توسّعه في رواية أخبار أمّه، وولادته المعجزة، ورسالته، ومعجزاته، ورفعه إلى السماء، فقد مرّر أبو هريرة، بهذين الحديثين المنسوبين كذباً إلى رسول الله، العقائد اليهوديّة والنصرانية المخالفة للقرآن، بحيث أنّ معظم تفاسير القرآن اللاحقة استندت إليه وروّجت ما مرّره ودسّه...

من أين أتى أبو هريرة بهذه الدسيسة؟. .

جاء بها من المزامير والأسفار اليهوديّة، منها سفر المزامير 72/ 1-4، وسفر أرميا 23/ 5-8، وسفر أشعياء 1/ 26-28، وسفر أشعياء 11/ 1-10 الذي ورد نصّه كالتالي: «ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من أصوله، ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوّة، ومخافة الرب، ولذته تكون في مخافة الرب، فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويُميت المنافق بنفخة شفتيه، ويكون البر منطقة متنيه، والأمانة منطقة حقويه. . . فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والمسمن معاً وصبي صغير يسوقهما، والبقرة والدبّة ترعيان، تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصل (الحيّات)، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان، لا يسوؤن ولا يفسدون في كل جبل قدسي، لأنّ الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر، ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسي القائم راية للشعوب، إيّاه تطلب الأمم، ويكون محلّه مجداً». .

لاحظوا تطابق الكلمات والتعابير، وتذكّروا أن القرآن لم يأت بهذه العقيدة، بل إنّ نصوصه تهدم هذه الفكرة من أساسها عند التأمّل. .[1]

أكثر من ذلك، وحيث أن هذه العقيدة التوراتيّة المسيحيّة، تربط

---

(1) مصطفى بو هندي - التأثير المسيحي في تفسير القرآن.

ظهور المسيح المنتظر بظهور المسيح الدجّال، وكلاهما لم يرد فيه قرآن، فقد أبى أبو هريرة إلاّ أن يمعن في ترسيخها، على حساب القرآن، فجاء بحديث كاذب آخر، نسبه إلى رسول الله: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، والدابّة» رواه مسلم..

ولسنا ندرك، لمَ لم يتساءل المفسّرون، الذين تبعوا أبا هريرة في جناياته، *كيف يكون ظهور الدجّال من العقائد الإسلاميّة ويغفل القرآن عنه ولا يذكره، مع أنّه فصّل في أمور الغيب تفصيلاً عجيباً؟*...

نكتفي بهذه الأمثلة، ونتساءل: ما هي دوافع أبي هريرة، ومن ورائه كعب الأحبار، لتلفيق هذه الأحاديث على لسان النبي؟

الجواب هو أن ذلك كان وفق خطّة مبرمجة لتثبيت وتأكيد الشكوك التي أثيرت في بداية الدعوة، وهدأت بانتصار النبي وسيطرته، وبات مطلوباً إطلاقها من جديد حين أتيحت الفرصة، بعد وفاة النبي، وبدء ظهور الخلافات بين أتباعه، وتوسّع الدولة، ودخول شعوب أخرى في الإسلام..

أيّة شكوك؟! هي ما أشار الله إليه في القرآن، ولنتذكّر أنّ مشركي قريش اتهموا محمداً، من جملة ما اتهموه، أنّه كان يأخذ العلم من أحبار اليهود ورهبان النصارى، ويفتري به عليهم، وأن الآيات تُملى عليه من هؤلاء، للتشكيك في إلهيّة رسالته، وإظهاره بمظهر مدّعي النبوّة... وكان دحض هذا الاتهام من أصعب ما واجه محمداً في

مسيرة رسالته، وقد خصّص له الله عَزَّوَجَلَّ ستّة مواقع في خمس سوَر:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[1].

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[2].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[4].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[5].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾[6].

أليس هدف أبي هريرة إذن هو تعزيز هذا الاتهام لمحمد، ونبشه بعد أن بات طيّ النسيان؟ أوَ لا يشمله تعبير: «الذين كفروا..» الوارد في سورة الفرقان..؟.

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 4.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 5.
(3) سورة هود، الآية: 13.
(4) سورة هود، الآية: 35.
(5) سورة يونس، الآية: 38.
(6) سورة الأحقاف، الآية: 8.

أيّةُ جريمة أكبر من هذه الجريمة؟ وأيُّ افتئات على محمد أخطر من هذا؟ لا سيّما إذا لاحظنا أنّه *ما إن انتصف القرن الثالث للهجرة حتى استحالت الإسرائيليات إلى أحاديث اعتُبرت صحيحة، منسوبة إلى رسول الله، عممّتها صحاح البخاري ومسلم وغيرهما، واختُلقت لها الأسانيد اختلاقاً، لتصير حقيقةً مسلّمة عند المسلمين، ففرضت سلطانها على الإسلام، وغلبت على تفسير القرآن وتاريخ النبوّات*[1]..

وقد اشترك مع أبي هريرة في هذه الجناية، آخرون منهم عبد الله بن عباس، ووهب ابن منبه الصنعاني، الذي روّج له وسوّق مفترياته كل من ابن قتيبة الدينوري في كتابيه، «المعارف»، و«عيون الأخبار»، وابن جرير الطبري الذي ندعوه «بالإمام الطبري»، الذي حفل تفسيره، ثم تاريخه، بإسرائيليات وهب ومنقولاته...

هل ما زلنا نقول (رضيّ الله عن أبي هريرة)؟... وهاهو قد تبدى لنا، رجلاً نكرة، يحوم الشك حول اسمه واسم أبيه، مدّعياً لصحبةٍ للنبي ما أتيحت له بالصورة التي أوهمنا بها، معترفاً بكذبه على رسول الله في حديث الجنابة والصيام، مسفَّهاً من زوجات النبي وأصحابه، مثبَتاً عليه سرقة أموال المسلمين في البحرين، مروّجاً لتفاهات تسيء إلى النبي، ومجرماً كافراً متآمراً مع اليهود ضد الإسلام... فماذا بعد؟.

دعونا نرى جانباً آخر، لنختم الصورة ....

بدأ الخلاف بين علي ومعاوية، وكان على أبي هريرة أن يحسم

(1) يوسف حسني الأطير - البدايات الأولى للإسرائيليات في تفسير القرآن.

موقفه في أي الفريقين يكون، مع علي بن أبي طالب التقي الورع المتقشّف، الذي لا يسكت عن الحق وصيانة الدين، والذي يحاسب أتباعه على الدرهم، أم مع معاوية، سليل أرستقراطيّة آل أميّة الطامعة في العودة للسيطرة على الدولة، والذي اعتمد الغاية تبريراً للوسيلة، والذي يعطي بلا حساب لمن يخدم مشروعه. . . .

لم يتأخر أبو هريرة في اتخاذ القرار الذي ينسجم مع أخلاقه وسيرته ومشروعه، عملاً بمقولته التي تلخص مفهومه الأخلاقي، إذ قال: *«الصلاة خلف علي أتم، وسماط معاوية أدسم»*، وحيث أنّ دسم السماط كان دائماً أكثر أهميّة من تمام الصلاة لديه، فقد انضم إلى معاوية، وعاش في قصره، وكان معه في معركة صفين، في مواجهة علي، وهو الذي لم يُعرف عنه أنّه كان مقاتلاً في سبيل الله، يقول الإمام أبو القاسم البلخي: (كان أبو هريرة مع معاوية في صفين، وكان يقول: لأن أرمي فيهم بسهم- يعني جيش علي - أحب إليّ من حمر النعم). . .

وحدّد معاوية لأبي هريرة دورين يخدمان مشروعيهما اللذين باتا يلتقيان بدرجة كبيرة. . .

الأول: أن يكون من بطانته المقربّة التي سعى معاوية لشرائها، وأراد من خلال وجودها معه الإيحاء للناس أن نصف (صحابة) رسول الله يقفون معه على الحق، في مواجهة (باطل) علي بن أبي طالب، ولهذا كان معاوية يوفد أبا هريرة في المهمات الكبيرة، *فأرسله مع أبي الدرداء إلى علي يدعوانه للشورى، فلم يقابلهما علي، وإنّما قابلهما*

عبد الرحمن بن غنم الأشعري، فكان ممّا قاله لهما: عجباً منكما، كيف جاز عليكما ما جئتما به؟ تدعوان علياً أن يجعلها شورى؟ وقد بايعه المهاجرون والأنصار وأهل الحجاز والعراق، وإنَّ مَن رضيَه خيرٌ ممن كرهه، ومَن بايعه خيرٌ ممن لم يبايعه، وأي مدخل لمعاوية من الشورى، وهو من الطلقاء الذين لا تجوز لهم الخلافة، وهو وأبوه من رؤوس الأحزاب(1).

وفي مهمة ثانية أرسل معاوية أبا هريرة والنعمان بن بشير الأنصاري إلى علي يسألانه أن يدفع قتلة عثمان إلى معاوية ليقيدهم به لعلّ الحرب أن تطفأ، وتكلّم أبو هريرة فلم يرد علي عليه بشيء، وقال للنعمان: حدثني عنك يا نعمان، أأنت أهدى قومك سبيلاً بين الأنصار؟ قال: لا، قال علي: كلُّ قومك اتبعني إلاّ شذاذاً منهم ثلاثة أو أربعة، أفتكون أنت من الشذاذ؟ قال النعمان: أصلحك الله، إنّما جئت لأكون معك وألزمك، وقد كان معاوية سألني أن أؤدي هذا الكلام، ورجوت أن يكون لي موقف معك، أجتمع فيه معك، وقد أقام النعمان عند علي، أمّا أبو هريرة فعاد إلى معاوية بالخبر...

وكان أبو هريرة في حاشية معاوية حين قدم الكوفة بعد أن تنازل له الحسن بن علي عن الخلافة في العام 41 هجري، ولم يمرّر المناسبة دون أن يكذب متجنياً على علي، ومتملقاً معاوية، فجاء المسجد، وجثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته وقال: يا أهل العراق أتزعمون أنّي أكذب على رسول الله وأحرق نفسي بالنار، والله لقد سمعت رسول الله

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

يقول: «إنَّ لكل نبي حرماً، وإنّ المدينة حرمي، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، وقال: أشهد بالله أن علي بن أبي طالب أحدث فيها... فلمّا بلغ معاوية مقالته أجازه وأكرمه وولاّه إمارة المدينة[1].

يقول الشيخ محمد عبده إن معاوية وضع قوماً من الصحابة والتابعين على رواية أخبار قبيحة على علي بن أبي طالب، تقضي الطعن فيه والبراء منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً، منهم أبو هريرة..

الثاني والأخطر: أن يتقوّل على لسان النبي من الأحاديث (الأمويّة لا النبويّة) ما يخدم مشروع معاوية، مستثمراً سطوة معاوية، وجهل مسلمي الشام بسيرته وكذبه...

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، أنّه قال: «*قال رسول الله: مَن أطاعني فقد أطاع الله، ومَن عصاني فقد عصى الله، ومَن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومَن عصى الأمير فقد عصاني*». وهل كان معاوية ليحتاج أكبر من هذه الحجّة لإسكات الناس؟. بلى، جاءه أبو هريرة بأكبر منها:

- حديث أن النبي قال: «*الأمناء عند الله ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية*»... معاوية في مقام الرسول وجبريل؟؟.

- حديث أن النبي أخذ القلم من يد علي فدفعه إلى معاوية.... إسقاط وقح لخدمة غرض مشين.

---

(1) المصدر السابق.

- حديث أن النبي ناول معاوية سهماً وقال: *«خذ هذا السهم حتى تلقاني في الجنّة»*. . . .

ويبدو أن الكذب على النبي لم يكفِ أبا هريرة، فتفنّن في تملّق معاوية، روى ابن عبد ربه عنه، أنّه نظر إلى عائشة بنت طلحة، وكانت مشهورة بجمالها، فقال: سبحان الله، ما أحسن ما غذّاك أهلك، والله ما رأيت وجهاً أحسن منك إلاّ وجه معاوية على منبر رسول الله. . . . ؟. . .

على أنّ أكبر الجرائم التي اقترفها أبو هريرة، في خضم اندفاعته في أحاديثه الأمويّة، خدمة للسلطان، كانت تلفيقه لحديث خطير، أسّس لنظريّة وصيغة جديدة للإسلام، لا كما أرادها الله ورسوله، ولكن كما أرادها بنو أميّة، أولياء نعمته، وطبعت العالم الإسلامي منذ ذاك اليوم وحتى يرث الله الأرض، حين اختزل الإسلام ومنهجه وشموليته، وأساسه العقائدي، في أركان تلغي المنهج والعقيدة الشاملة لمصلحة الطقوس، وتحوّل المسلم من مشارك فاعل في عمارة الأرض وإدارة شؤونه وشؤونها، ومساهم شريك للحاكم في إقامة العدل والتكافل الاجتماعي، إلى فرد بائس يبحث عن خلاصه الشخصي، لا في الحياة الدنيا، وإنّما في الآخرة. .

هذا الحديث، الذي لا يتوافق مع كتاب الله، أورده البخاري في «صحيحه» تحت رقم 1397، حيث ادّعى أبو هريرة، أن أعرابيّاً أتى النبي فقال: دُلّني على عمل، إذا عملته دخلت الجنّة، قال النبي: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة

المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا، فلّما ولّى قال النبي: «مَن سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة، فلينظر إلى هذا»......

هذا الحديث الذي جاء بصيغة جديدة مجتزأة للإسلام، أتاح لبني أميّة فصل الإسلام عن شؤون الحكم، واعتماد أداء الشعائر بديلاً عن بقيّة الإسلام، وتحويل المسلم إلى مواطن مسلوب الإرادة يبحث عن خلاصه الفردي في الآخرة، دون أي مسؤولية له عن حياته وعن شؤون الدولة التي تقرّر مصيره ومصير عياله...

وقد نجح أبو هريرة في تعويض الكل بالجزء، فقد أسقط الحديث - بسوء نيّة - كلّ الأركان والقواعد الأخرى للإسلام، الجماعية منها، كقاعدة العدل، عدل الحاكم في الرعيّة، وعدل الناس في بعضها، وقاعدة الرحمة في الاتجاهات كافة، وقاعدة الأمر بالمعروف، وقاعدة النهي عن المنكر، اللتين تمنحان المسلم سلطة التدخّل في الشؤون العامة، وتصويب الأمور، وعدم الركون والاستسلام لطغيان الحاكم، وكقاعدة مسؤوليّة المسلم عمّا كسبت يداه، التي يعني إقصاؤها تحويل المسلم إلى مواطن مكتوف اليدين، وأسير يدفع ظلماً ثمن ما كسبته أيدي بني أميّة، وكقاعدة الدفاع عن المستضعفين في الأرض في مواجهة الظلم، التي أدى إقصاؤها إلى تحويل المسلم إلى نفر في جيوش بني أميّة، يقاتل المستضعفين في الأرض دفاعاً عن الفرعون الذي أدانه الله، وكقاعدة المجادلة بالحسنى مع كل إخواننا في أرض الله، وقاعدة الإيمان بكلّ الرسل والكتب السماويّة، وقاعدة حفظ حق المرأة وحق الطفل وحق اليتيم، وقاعدة حريّة العقيدة، وقاعدة أن لا

تنام وجارك جائع، وقاعدة أن لا تزني، ولا تقتل، ولا تأكل أموال الناس بالحرام، وقواعد الوصايا العشر لسيّدنا موسى، ووصايا السيّد المسيح، وقاعدة العمل بكتاب الله، كلّه دون اختصار واختزال، و. . . و. . .

إنّ هذا المسلم الذي صنعه أبو هريرة على هوى معاوية، قد صار عمره الآن أربعة عشر قرناً دون أن يبلغ سن الرشد[1] . .

والغريب، أنّ أبا هريرة، حين نَسبَ هذا الحديث الكاذب إلى النبي، تناسى - كرمى لعيني معاوية - أنّه سبق أن قال حديثاً مناقضاً، حين نسب إلى النبي قوله: «أتدرون مَن المفلس؟»، قالوا: المفلس فينا مَن لا درهم له ولا متاع، قال «إنّ المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه، ثمّ طُرح في النار». . . أيّ الحديثين نصدّق؟ أم نقنع أنّ أبا هريرة كان مكنة لاختلاق الأحاديث الكاذبة، تبعاً للأهواء والمصالح. . . .

وبعد. . . . . هذا هو أبو هريرة. . . وهذه أخلاقه. . وهذا غيض من فيض جرائمه وأكاذيبه. . . وما أكثر أمثاله في تراثنا. .

هذا هو المصدر الأول، والأهم، الذي تستند إليه كتب الحديث

(1) الصادق النيهوم - الإسلام في الأسر.

المسمّاة صحاحاً وسنناً، *حتى بات أغلب المسلمين اليوم يجحدون بآيات الله ويفضّلون عليها آيات أبي هريرة*[1]، دون أن نغفل أن المصادر الأخرى المعتمدة لدى كلّ فرق الإسلام لم تكن أفضل حالاً وأكثر مصداقيّة، وما كان تعرّضنا لأبي هربرة هنا إلاّ دراسة لأحد النماذج الرئيسية، وأكثر الباقين ليسوا أفضل حالاً . . .

فهل نصرّ على تحريف شرع الله المحكم في كتابه، استناداً إلى أحاديث تفنّن الكذبة في نسبها إلى النبي؟

أليس من المنطق التزام ما لا شكّ فيه، (القرآن)، بدلاً من العمل بما يمتلئ شكّاً وتحوم حوله الشبهات؟ . . .

نختم، بقول الصادق النيهوم[2] : *إنّ الحديث ليس مصدره الدين بل مصدره السياسة، إنّه مجرّد حل توفيقي ابتكره الإقطاع ليكون «قرآناً» مضاداً، مهمته أن يبيح ما حرّم الله من تبرير حكم الطاغية، بموجب أحاديث من مثل: «إنّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، إلى توطيد سلطة الرجل على المرأة بأحاديث مريبة أخرى، مثل قوله: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، أو قوله: «النساء حبائل الشيطان»، والثابت أن علم الحديث - رغم جانبه الإيجابي في حفظ كنوز من الحكمة النبوية - قد فتح الباب أمام كل مَن هبَّ ودبَّ لكي يستغل اسم رسول الله عليه السلام في خدمة أغراض شخصية - وأحياناً رخيصة - وغير أخلاقيّة، فبائع الخواتم مثلاً يروي*

---

(1) نيازي عز الدين - من حقائق القرآن المسكوت عنها.
(2) الصادق النيهوم - الإسلام ضد الإسلام.

عنه أنه قال: «تختموا بالعقيق فإنّه ينفي الفقر»، وبائع التمر يروي عنه قوله: «مَن تصبّح كل يوم بسبع تمرات عجوة، لم يضرّه في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر»، أمّا الحلاّق فإنّه يختار أن يروي عنه قوله: «جزّ الشَّعر يزيد في الجماع»..



الإضاءة الخامسة

جناية كتبة الأحاديث

الصحاح ليست صحاحاً . .

البخاري نموذجاً

- «ما ضلَّ الأمم قبلكم إلاّ بما كتبوا من الكتب مع كتاب الله» . .

حديث شريف



يقول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1].

ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[2].

ويقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[3]

ويقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[4].

ويقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[5].

ويقول: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[6].

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي، أنَّه قال: «**لا تكتبوا عني غير القرآن، ومَن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدّثوا عنّي ولا حرج، ومَن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[7].

وعنه أيضاً: استأذنتُ رسول الله أن أكتب حديثه، فأبى أن يأذن لي..

---

(1) سورة الزمر، الآية: 36.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 51.
(3) سورة الأنعام، الآية: 38.
(4) سورة النحل، الآية: 89.
(5) سورة الأعراف، الآية: 52.
(6) سورة الأنعام، الآية: 126.
(7) صحيح مسلم.

وعن زيد بن ثابت: أن النبي نهانا أن نكتب حديثه...

وقد ورد النهي عن كتابة السنّة على لسان عدد من (الصحابة) منهم أبو هريرة، وزيد ابن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود[1].

وفي صحّة وأهمية حديث «الكذب على النبي»، يقول يحيى محمد[2] *«إنّ لهذا الحديث خصوصيّة لا يدانيه فيها حديث آخر قط من حيث الصحة والتواتر، إذ ليس هناك خبر كثرت طرق روايته وتخريجه كهذا الحديث، حتّى صوّره العلماء والحفاظ بأنّه فاق حد التواتر، ولم يكن هناك حديث قط بلغ المدى الذي بلغه.....*

كان هذا النهي قراراً استراتيجيّاً، من أهم القرارات التي اتخذها النبي لتحصين الدين الذي جاء مبشرّاً به، وهو استند في قراره هذا إلى سببين أساسيين على درجة كبيرة من الأهمية:

الأول: أمرُ الله، وهو قد استوعب وفهم مدلولات الآيات التي أوحى له ربُّه فيها بمرجعية القرآن لوحده منفرداً، حين خاطبه في أكثر من موقع في آيات قاطعة الدلالة أن الله قد فصّل الكتاب بعلمه الجليل، لم يفرّط فيه من شيء، أورد فيه آيات تفصيليّة تكفي العباد، وتبين لهم كلّ ما يحتاجون إليه بالقدر الذي يريده لهم.... بما لا يحتاج معه إلى إضافة أو توسّع ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[3]...

---

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.
(2) يحيى محمد - مشكلة الحديث.
(3) سورة الزمر، الآية: 36.

وجزم أنّ حديثه أحسن الحديث وأصدقه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[1]، ثمّ قطع ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[2]..

أكثر من ذلك، حذّره الله أنّ حوله منافقين يزيفون أقوالاً عليه لم يقلها، ويفترون أحاديث ما جاء بها «ويقولون طاعةٌ، فإذا برزوا من عندك بيّت طائفةٌ منهم غير الذي تقول، والله يكتب ما يبيّتون...»، وأمره بالإعراض عنهم وتفاديهم.. «فأعرض عنهم وتوكّل على الله»[3]..

وما كان النبي إلاّ طائعاً منفّذاً لأمر ربّه.

الثاني: عبقريّة فذّة في قراءة واقع ومآل الكتابين السابقين للقرآن، التوراة والإنجيل، مستندة إلى إشارات واضحة الدلالة ركّز عليها الوحي الإلهي، فوردت في العديد من الآيات.

فالإله أعلن بوضوح أنّ الكتابين هما كتابان سماويان أنزلهما على رسوليه موسى وعيسى، بذات الوضوح الذي أعلن فيه أنّ هذين الكتابين قد جرى تحريفهما والتلاعب بنصوصهما من قبِل الأتباع، فلم تقتصر التوراة على الوصايا العشر والوحي الإلهي لموسى عليه السلام، بقدر ما حوّلها الأتباع إلى كتاب للتاريخ والسيَر والوقائع والأحكام المدنيّة التفصيلية التي تعدّ على العباد أنفاسهم وترسم تحركاتهم وسلوكياتهم في أضيَق الدوائر، في حين لم تقتصر الأناجيل على نصوص الوحي

---

(1) سورة النساء، الآية: 87.
(2) سورة المرسلات، الآية: 50.
(3) سورة النساء، الآية: 81.

الإلهي المنزل على عيسى عليه السلام، وتحوّلت إلى كتب للسيرة تورد قصّة المسيح وأفعاله ومعجزاته، أكثر ممّا تركّز على آيات إلهية نقلها عليه السلام، وهي لم تفصل بين ما هو موحى له، وما هو من اجتهاده الخاص، في خلط متعمد لدور الإله والرسول.

من وجهة نظر القرآن، فقد كان تدخّل الأتباع هو السبب الأساس في تشويه الأصل، واختفاء النص الإلهي خلف السيرة البشريّة.

وهذا بالذات هو ما أراد محمد أن يجنبه رسالته، وهو قد وفّق في الشكل، لكنّه خسر رهانه في المضمون، كما سنرى...

وعلى امتداد قرن، التزم المسلمون بهذا النهي، وتشدّدوا في منع كتابة الأحاديث، إلى درجة التحريم الرسمي، مكتفين بتدوين النص الإلهي، وإن لم يتوقف الرواة الكاذبون عن قولها شفاهاً..

.. ولم يصرّح بتدوين السنّة حتى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 هـ - 101هـ)، والغريب أن المبرّر الذي سيق لتبرير مخالفة أوامر النبي بعدم التدوين، هو كثرة تداول الأحاديث الكاذبة المنسوبة إليه التي عمّت وانتشرت وطغت على الصحيح منها، دون أن يلتفت المصرّحون إلى أن هذا التصريح سيفتح الباب لتدوين الصالح والطالح، وتثبيته في كتب تتداولها الأجيال القادمة، فتضلّ الأمة كما حذّر النبي.

وتسابق المغرضون إلى نسب أحاديث إلى النبي تنسخ أحاديث المنع السابقة، لتبيح التدوين وتصرّح به، بل وتشجّع عليه، فالفرصة باتت سانحة ولا بدَّ من التقاطها واستثمارها...

وكان البخاري من أوائل من التقطوا الفرصة، وتبعه الآخرون، وسمّوا كتبهم صحاحاً وسنناً...

وعلى امتداد الألف ومائتي سنة اللاحقة، ظلَّ يردّد الكثير من المسلمين، عن جهل وتلقائيّة غير مبرّرة، واجترار أعمى لما في كتب السلف، أن «صحيح البخاري» هو أصدق كتاب بعد القرآن الكريم، يليه بالقطع باقي الصحاح والسنن لرواة الأحاديث الآخرين، مثل: مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة.

(الدكتور محمد أبو شهبة، أستاذ علوم القرآن والحديث بجامعة الأزهر وأم القرى، يذهب أبعد من ذلك، فينعت صحيح البخاري، ومعه صحيح مسلم، بأنّهما *«أصح الكتب البشريّة على الإطلاق»؟؟)*.... أيُّ افتئات وتجنّ على البشرية وعلومها هنا؟؟؟... وكيف يتأستذ هؤلاء الجهلة على أجيالنا؟...

نقول: عن جهل، وهذه ليست سبّةً، لأنَّ قراءة واعية لهذه الكتب تؤكّد أن أكثرهم لم يقرأها قراءة دارس عاقل، يُعمل فكره الذي كرّمه الله به في ما ضمّته في صفحاتها، لأنّه أغلق عقله، تأسيّاً بالسلف وعملاً بأوامرهم، ألم يقل لهم ابن القيّم *«أحاديث العقل كلّها كذب»*، *كما قال لهم السمعاني «إنّ الطريق هو اتباع السلف والاقتداء بهم دون الرجوع إلى الآراء، أي العقل»* وهذه مصيبة ودعوة إلى نبذ الكتاب الإلهي والالتزام بحكم الأموات، بالرغم من أنّ القرآن لم يخاطب إلاّ العقول، ولم يطلب الإيمان إلاّ بعد تفكّر وتدبّر في آيات الله في الكون والأنفس.

هل نتجنّى هنا على تراث أربعة عشر قرناً؟ وهل نتهم بالجهل بضعة مليارات من المسلمين توارثوا هذه الكتب منذ القرن الهجري الثاني حتى اليوم، مضفين عليها قداسة موهومة؟.......

حاشا أن يكون هذا هو القصد....

نحن هنا، نريد أن نكون من أتباع مَن يدّعون أن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً، دون أن نتّبعهم في تكفير مَن يجتهد...

وإذا كان السابقون قد اجتهدوا، فمن حقِّ اللاحقين أن يجتهدوا بدورهم، لا سيّما وقد توسعت المعارف والمدارك، واجتهادهم هذا يأتي من باب حيوية الدين وصلاحيته لكلِّ زمان ومكان، وقابلية مفاهيمه لمسايرة كلِّ العصور والثقافات.. أليس هذا ما نجترّه صباح مساء؟..

ثمَّ، إذا كانوا قد سمّوا كتبهم صحاحاً، فهل نحن ملزمون بتصديق صحّتها كما وردت والإقرار بها كمصدر أساسي للشرع الإسلامي، والعمل بما أوردته مخالفاً للنص الإلهي المحكَم؟.

من هذه الزاوية، نورد سؤالاً نراه مشروعاً يعكس حرص كلِّ مسلم على صورة دينه العظيم، بعد أن بات ملحوظاً الإقبال الواسع لدى شعوب العالم غير المسلمة على التعرّف على هذا الدين، فبات القرآن مترجَماً إلى معظم لغات العالم، ومثله بعض كتب التراث الإسلامي الأخرى، وربّما في مقدمتها كتب الحديث النبوي، كما بات دين الإسلام يُدَرَّس في معظم مدارس العالم وجامعاته. والسؤال: ما الذي يخرج به قارئ محايد، منفتح العقل، راغب في المعرفة الصحيحة،

عن الصورة التي رسمها أصحاب الصحاح عن الإسلام، وبالأخص عن نبيّه محمد؟...

وأخطر من ذلك، ما الذي سيخرج به قارئ منحاز، حاقد على الإسلام، راغب في البحث في ثنايا التراث الإسلامي عمّا يشوّه هذا الدين، حيث يُعجِزه القرآن، فيلقى ضالته في كتب الحديث؟..

قبل هؤلاء، أليس من حقِّ المسلم تنظيف تراثه، وإسقاط القداسة الكاذبة عن غير المقدّس، والدفاع عن نبيّه الكريم؟..

ألم تُثِر بضعة رسوم اعتُبرت مسيئة إلى النبي، نُشرت في صحيفة مغمورة، بلغة ليست من اللغات الحيّة، نقصد الدانمركيّة، ضجّةً تردّد صداها في أصقاع العالم، فساهمت في تشوّقه للاطّلاع عليها، بعد أن كانت مغمورة ومحصورة؟..

لِمَ نسارع إلى الدفاع عن نبيّنا الكريم حين يبادر دانمركي مغمور لرسم بضع صور عنه، وهو حقٌّ لنا، في حين نرفع إلى مرتبة التقديس مَن رسم صورة مشوّهة لهذا الرسول، كالبخاري وصحبه؟....

البيّنة على مَن ادّعى... وادّعاؤنا أن البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبا داود وابن ماجه، ومَن نقل عنهم، رسموا للنبي الكريم صورة النبي المشوّش الذهن والفكر، فنسبوا إليه أقوالاً متناقضة، وروايات لا تصحّ أن تصدر عن نبي، ومقالات تخالف الكتاب الذي حمل أمانةَ تبليغه للناس، وتناقض أحكام الشريعة الإلهية، ومواقف لم يكن فيها أميناً على الرسالة، ناهيك عن صورة الرجل الشبق جنسيّاً، والرجل الذي تعافه النساء... حاشا نبي الله عمّا يكذبون، كمّا ثبّتوا

الإسرائيليات في ما سموه صحاحهم ليبتلعها المسلمون السذّج. .

ونصرّ على القول إن ما جاءوا به في صحاحهم هو إساءة كبيرة إلى الدين القويم، ولا يختلف كثيراً عن التحريف الذي نتّهم اليهود والنصارى بممارسته على كتبهم، دون أن ننسى تدوينهم لأحاديث كاذبة تشكّك في القرآن من حيث سقوط آيات منه واختزال سوَر فيه، وكذلك تثبيتهم لأحاديث الإسرائيليّات في صحاحهم، مشاركين في جريمة تشويه الإسلام. .

ألا يؤكد لنا علماء الحديث أنفسهم أن الغالبية العظمى من الأحاديث المنسوبة إلى النبي هي أحاديث آحاد، تفيد الظن ولا تفيد اليقين. . . فهل نصرّ على اتباع الظن، وقد نهانا الله عنه؟. . .

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[1].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[2].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[3].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[4].

وأيّة حاجة لأحاديث البشر الظنيّة المشكوك فيها، في مواجهة حديث الله:

---

(1) سورة يونس، الآية: 36.
(2) سورة النجم، الآية: 23.
(3) سورة النجم، الآية: 28.
(4) سورة الأنعام، الآية: 116.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[1].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

إنَّ اعتماد موثوقيّة كتب الحديث بالمطلق، واعتبارها أساساً وركناً للشرع، هو تحريف صريح لكتاب الله، وحيث لم يتمكن أحد من تحريف نصوص الكتاب، فقد تم اللجوء إلى تشويه أحكامه بما ينسب إلى النبي، وهذه جريمة ما بعدها جريمة..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[4]..

فإذا كان هذا هو الادّعاء، فأين البيّنة؟..

لابدّ من إيرادها، قبل أن يسارع ذو عقل متحجّر إلى اتهامنا بالإساءة إلى ركن يعدّه أهم أركان الموروث الإسلامي، وإلى أنّنا ننحو منحى المستشرقين، وهذه تهمة جاهلة باطلة باتت متداولة في غياب حوار موضوعي عقلاني متّزن..

البيّنة فيما سنستعرضه من أحاديث وردت في هذه الصحاح، ونحاول معاً تلمّس الصورة التي حاول هؤلاء نقلها إلينا عن قائلها، ومنهجه...

---

(1) سورة النساء، الآية: 87.
(2) سورة المرسلات، الآية: 50.
(3) سورة الجاثية، الآية: 6.
(4) سورة فصلت، الآية: 26.

قبل ذلك، لا بدَّ من توضيح بضع نقاط:

- النقطة الأولى: أن الجريمة الكبرى بدأت في وضع منهج التأكّد من سلامة الحديث وصحته، نقصد بذلك منهج الجرح والتعديل، أي إقصاء صحّة متن النص ومدى توافقه، أو عدم توافقه مع القرآن، لمصلحة البحث في موثوقيّة السند، أي الرواة، بعد أن حُسِمَ اعتبار كلِّ صحابة النبي صالحين، أتقياء، ثقاتاً، صادقي القصد والنيّة، حريصين على الدين... وهي المغالطة التي أسّست لإطلاق مشروع التحريف، وقد لمسنا بطلانها الذي ينقض المبدأ الأكثر إغراقاً في الجهل، وهو مبدأ التواتر، أي ما اعتبره السلف بحكم الصحيح لتواتر نقله عن السابقين، دون أن يوضّحوا لنا إشكالية أن يكون أول الناقلين كاذباً، كأبي هريرة وغيره.. فهل يجعل التواتر من الأكاذيب مسلّمات؟..

يقول يحيى بن معين: *ما رأيت الصالحين يكذبون في شيء أكذب منهم في الحديث..*

أمّا كيف يكون الصالح كاذباً، أو الكاذب صالحاً، فهذا ما لم يكلّف أحدٌ من الفقهاء نفسه عناء تفسيره لنا.. ألم يتكئوا على جهلنا، وكفى؟...

- النقطة الثانية: إذا كان التأسيس لمنهج الجرح والتعديل سيئ الذكر لم يتم بسلامة نيّة، فإن العمل به اتصف هو الآخر بسوء نيّة وأهداف وغايات، نستغرب غيابها وفواتها على معظم فقهائنا طوال قرون.

وأبلغ دليل على ما نسوق هنا، هو اختلاف الأحاديث بين كتب

الصحاح والسنن، ممّا يظهر أن منهج الجرح والتعديل استُخدم انتقائيّاً من قبل كل منهم، تبعاً لميوله وغاياته وأهدافه...

يقول الحاكم النيسابوري في «المستدرك»: «عدد مَن أخرج لهم البخاري ولم يُخرج لهم مسلم بلغ 434 شيخاً، وعدد مَن أخرج لهم مسلم ولم يُخرج لهم البخاري بلغ 625 شيخاً»... أي إن هناك 1059 راوياً للحديث ضعّفهما كلّ من البخاري ومسلم منفردين..

واللافت أن نقرأ، *أن الحاكم النيسابوري تبنّى شروط البخاري ومسلم في الرواة، لكنّه وجد أنّهما أهملا الكثير من الأحاديث التي توافرت فيها شروطهما، فأوردها وسمّى كتابه «المستدرك»، أي الحاوي على ما فات على الشيخين وفق شروطهما بالذات..؟..*[1].

وقد روى البخاري أحاديثَ عن عكرمة مولى ابن عباس، الذي كذّبه الكثيرون، قال سعيد بن المسيب لمولاه برو: لا تكذب عليَّ كما كذب عكرمة على مولاه ابن عباس..، كما روى عن إسماعيل بن عبد الله الذي جرّحه النسائي، وقال عنه يحيى بن معين إنّه كذّاب..، وعن زياد بن عبد الله العامري الذي قال فيه الترمذي إنّه كان يكذب في الحديث، وعن الحسن بن مدرك السدوسي الطحان، الذي رماه أبو داود بالكذب، وعن أحمد بن صالح المصري الذي قال عنه النسائي إنّه ليس بثقة، ورماه يحيى بن معين بالكذب، ولم يروِ البخاري عن ابن جريج عالم مكّة، واعتبره من الضعفاء، بينما روى له مسلم وغيره من

---

(1) د. بكر شيخ أمين، أدب الحديث النبوي.

أصحاب السنن. . كما لم يروِ البخاري ولا مسلم عن الإمام الشافعي، لأنّه بزعمهما كان ضعيفاً في الرواية، وإنّ مذهبه في مراسيل الصحابة ليس حجّة، ولم يروِ البخاري عن الإمام أبي حنيفة، إذ اعتبره من الضعفاء المتروكين (؟). . .

المثال الأوضح حول انتقائيّة الكتبة للرواة تبعاً لمواقفهم، *هو اختلاف البخاري ومسلم في صحّة الرواية عمّن تشيعوا لعلي بن أبي طالب، فالبخاري يعتبر كل مَن تشيّع لعلي هو صاحب هوى غير موثوق، ولا تجوز الرواية عنه حتى ولو كان من الصحابة، وقد ذكر في صحيحه عن ابن سيرين أنّه قال: «إنّ عامّة ما يروى عن علي بن أبي طالب هو الكذب»، في حين لم يعتبر مسلم التشيّع لعلي سبباً في تضعيف الراوي. . . وكذلك اختلافهما في الرواية عن الخوارج الذين لم يجوّز مسلم الرواية عنهم في حين روى لهم البخاري. . . .*

وروى البخاري لمعاوية بن أبي سفيان، خصم علي، وخصّص له باباً في صحيحه سمّاه «باب ذكر معاوية رضي الله عنه»، في حين أن المؤرخين قالوا عنه إنّه من المؤلفة قلوبهم، وهم الذين آمنوا بلسانهم ولم يؤمنوا بقلوبهم[1].

يقول الطبري إنّ النبي، في غزوة حنين، قسم الفيء من الغنم والإبل، فأعطى المؤلفة قلوبهم، منهم أبو سفيان ابن حرب أعطاه مائة بعير، وابنه معاوية أعطاه مائة بعير. . .

(1) إبراهيم فوزي - تدوين السنّة.

وقد أطلق الطبري على هذا العطاء تعبير (الرشوة): *«إنما كانت المؤلفة قلوبهم على عهد النبي، فلما ولي أبو بكر انقطعت الرِّشا»* وهي رشوة أباحها الله لنبيه لشراء مؤيّدين للإسلام من زعماء قريش وبعض القبائل القوية في الحجاز، الذين لم يدخلوا الإسلام عن قناعة، وإنما تقرب لهم النبي بالأموال.

وقد اعترف النبي بذلك حين خطب بالأنصار الذين ساءهم عدم تخصيصهم بأي من غنائم حنين التي ذهب معظمها لسادة قريش والقبائل، فقال: (**أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألّفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟!**).

- النقطة الثالثة: تستمد مرجعيتها من نظرية المؤامرة، وهي نظرية نجد من الغباوة إنكارها دائماً، بعد أن أقنعنا الغرب أنّنا من ضحاياها، ليسهل عليه استغباؤنا. .

أكثر كتب أحاديث النبي اعتباراً هو كتاب البخاري، أي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن المغيرة ابن بَرِدِزبَه، الجعفيُّ ولاءً، البخاريُّ محتداً، كما جاء في ترجمته، وهو المولود ببخارى عام 194 هجري، والذي قال عنه القسطلاني في مقدمته: *أمّا تآليفه فسارت مسير الشمس، ودارت في الدنيا، فما جحد فضلها إلاّ الذي يتخبطه الشيطان من المس(؟)، ومن أهم كتبه وأعظمها فائدة هو «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري، فهو يُعتبر أجلّ كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى*. . هكذا. .

ابن بردزبه هذا هو من وضع للمسلمين أجلَّ كتبهم وأفضلها، لا يفضله إلاّ كتاب الله. . ؟ويا للمقارنة. . . .

بعد وفاة النبي، انتظر المسلمون مائتي عام. . قبل أن ينعم عليهم الله بابن بردزبه ليفصل لهم صحيح المنسوب من أحاديث لنبيّهم من كاذبها. . . ولابد أن نلاحظ أنّ معظم كتبة الأحاديث المعتمدين (باستثناء مالك بن أنس) كانوا من خارج حدود المنطقة العربية، من خراسان وجوارها حصراً، البخاري من بخارى، مسلم من قشير، أبو داود من سجستان، الترمذي من ترمذ، النسائي من خراسان، ابن ماجه من قزوين، الحاكم والاسفراييني وابن حمدان وأبو بكر الاسماعيلي وأبو عوانة من نيسابور، أبو نعيم الأصبهاني وابن منجويه من أصفهان، ابن حبان من خراسان، أحمد بن حنبل من مرو، الحافظ الذهبي من تركمانستان، البرقاني من خوارزم، والغزالي من طوس. . .، أي كلّهم من الموالي وأهل الذمة الذين جاءوا بخلفيات شعوبهم، فانتقموا من الإسلام وكتابه الذي برّر للعرب حكمهم.

ولابد من ملاحظة أنّ المناخ الذي عمل في ظلّه البخاري، كان مناخ الدولة السامانيّة التي قامت في بعض ولايات ما وراء النهر واتخذت من بخارى عاصمة لها، خارجة على الخلافة العباسيّة العربيّة. .

أليست ملاحظة جديرة بالانتباه، في ظل أهميّة الموضوع؟

ولماذا زاد هؤلاء على ما أورده مالك بن أنس في «الموطأ»، (ولا نبرئ مالكاً هنا)، ومالك أقربهم لزمن النبي، إذ ولد سنة ثلاثة وتسعين

للهجرة، أي قبل ولادة البخاري بمائة عام؟!(ذكر أبو بكر الأمهري أن جملة ما في موطأ مالك من الآثار عن النبي وعن الصحابة والتابعين ألف وسبعمائة وعشرون حديثاً، المسند منها ستمائة حديث، والمرسل مائتان واثنان وعشرون حديثاً، والموقوف ستمائة وثلاثة عشر حديثاً)...

صحيح أن هؤلاء لم يختلقوا من عندياتهم، لكنّه صحيحٌ أيضاً أنَّهم هم مَن وثّق الاختلاقات والأكاذيب، وهم مَن غش المسلمين الجهلة أن ما وثّقوه هو الصحيح من أحاديث النبي، وما هي كذلك...

ولابدّ من التأكيد، أننّا لسنا، هنا، بصدد إنكار دور المسلمين من غير العرب، في تشكيل الثقافة الإسلامية، وتالياً في ما عُرف بالحضارة الإسلاميّة، فلهؤلاء أدوارهم البارزة، *وكان الإسلام هو الوعاء الجامع لثقافات الآخرين، أو هو النهر الذي صبّت فيه كلّ جداول حضارات الآخرين، لتنتج حضارة هائلة*[1]، ولكنّنا نقبل هذا الأمر في كلّ أشكال العلوم والمعارف الدنيويّة، ونرفضه في ما يتعلّق بفهم واستيعاب وتأطير الأسس والمرتكزات القرآنية، وأبعاد الدور المحوري للنبي، المنسجم مع الرسالة، في نقاء لم تشوّهه خلفيات خارجيّة طارئة....

ولعلّ أكثر ما يثير الاستغراب، ويوحي بمدلول خطير، هو ما يتناقله أتباع نظرية الاجترار الجاهل، وما أوردته الكثير من المراجع والكتب، دون أن يثير لدى هؤلاء تساؤلاً بسيطاً حول مصداقيّة الرجل،

(1) فرهاد دفتري - المناهج والأعراف العقلانيّة في الإسلام.

الذي نقرأ أنّه صنّف كتابه من ستمائة ألف حديث، وكان يحفظ مائة ألف حديث صحيح بأسانيدها، ومائتي ألف حديث غير صحيح. .

ألا تثير الأرقام هنا الكثير من الشك؟ أم أن الجهل يعمي البصائر؟

كيف لرجل أن يحفظ ثلاثمائة ألف حديث مع أسانيدها؟ ولماذا نفترض السلف خوارق لطبيعة البشر؟. .

هل جرّب أحدُنا حفظَ عُشر هذا الرقم؟

ثمّ، متى تسنّى للنبي أن يقول هذا الكم الهائل من الأحاديث؟ وهو لم يتح له الحديث بشكل واسع إلاّ بعد هجرته إلى المدينة، أي على امتداد حوالى العشر سنوات، أي حوالى 3600 يوم، أي 87000 ساعة، نام ثلثها، وجهّز السرايا وقاتل ربعها، وأكل وشرب ولقي نساءه عُشرها، وصلّى بالمسلمين عُشرها، وقضى وحكم وأدار مجتمع المدينة عُشرها، وبقي له العشر من الوقت فقط ليفعل كلَّ شيء آخر ويقول فيها حديثاً، أي 8700 ساعة في أكثر التقديرات مبالغة، وهو لم يكن يلقي الحديث تباعاً، أي يجلس فيلقي حديثاً إثر الآخر، وإنّما كان الأمر يستلزم حدثاً يتطلب تدخّله، أو سؤالاً يوجّه إليه، فلو افترضنا أن كلَّ حديث تطلّب نصف الساعة لوقوع الحدث وتعليق النبي عليه، لما تجاوز ما تحدث به السبعة عشر ألف حديث، ولو ضاعفنا الرقم لوصلنا إلى أربعة وثلاثين ألف حديث، وهو رقم يتجاوز المنطق والمعقول، فمن أين حفظ البخاري مائة ألف حديث صحيح تتطلّب حوالى 80 سنة من حياة النبي وفق سيرته التي أشرنا إليها؟ أي أربعة أضعاف الفترة منذ بداية الرسالة حتى لقي وجه ربّه الكريم. . . .

ولعل مجرّد وجود ستمائة ألف حديث، منها أكثر من خمسمائة ألف حديث كاذب، حسب البخاري نفسه، هو مدعاة للشك، تدعو إلى الرفض والاستنكار.. ثمّ مَن قال إن البخاري أجاد فرز الصحيح بين هذا الكم الهائل من الأكاذيب؟... وسنثبت هنا أنّه لم يفعل، ولا فعل الآخرون...

ولابدّ أن نشير أن حمّى الاستخفاف بالأرقام الكبيرة، استغفالاً لعقول الناس، قد طالت فقهاء السنّة والشيعة على السواء، فذهب فيها الفريقان إلى أبعد الحدود، في إسفاف لا يقبله عقل...

كما لابدّ من ملاحظة دلالة غريبة، تثير العجب، إذ نقرأ أنَّ (علماء الحديث) وضعوا ألقاباً لكلّ مَن عمل بالحديث حسب نوع عمله، ودرجة إتقانه، وعلو رتبته، أشهرها:

1 - المبتدئ، 2 - المحدّث، 3 - الحافظ (وهو الذي أحاط بما لا يقل عن مائة ألف حديث متناً وسنداً؟)، 4 - الحجّة 5 - الحاكم... . والأخيران لا بدّ أن يحيطا بأضعاف ما يحفظ الحافظ ليتقدماه....؟.

- النقطة الرابعة: هي إجماع فقهاء السلف على اعتبار السنّة مصدراً ثانياً للتشريع، أيّة سنّة؟، ليست السنّة المؤكدة عن النبي، لكنها السنّة التي برع الموالي في تجميعها عن ألسنة الكذبة، ووثقوها في كتبهم، وإن تباينت توثيقاتهم، والخطير في الأمر أن هذه السنّة لا تعامل كمصدر ثانٍ للتشريع، ولكن كمصدر أول وأساسي لدرجة أنّها تنسخ بعض آيات القرآن..

لو سألتَ مسلماً عن أمرٍ، لندر أن يجيبك عمّا في القرآن، ولسارع إلى إطلاق فتواه كحقيقة مقرّرة، فإن سألت عن المستند، أجابك ببضع كلمات متعثرة، سمّاها حديثاً ونسبها إلى الرسول، ولأيّد كلامه بأنه متواتر، أو في الصحاح، فإن جئتَه بحديث مخالف لما يريد، من الصحاح ذاتها، حاجّك بأنه ضعيف، أو هو حديث آحاد، دون أن تعرف أن الحديث الذي جاء به لم يكن كذلك، فإن ذكرت ما يخالفه من (آيات) في القرآن، تهرّب من عجزه بأنّها منسوخة، لتقفا كلاكما أمام حائط مسدود، فكلام الله منسوخ، وكلام أبي هريرة وغيره مؤكّد بالتواتر... وهذا هو حال كلِّ النقاشات التي ترتبط بالدين، لذا يكثر الاختلاف، ويطال كلَّ جزئية، ومن النادر أن يتفق اثنان على أمر شرعي اتفاقاً مؤكداً، والعلّة واضحة، إقصاء كلام الله المحكم غير المشكوك فيه، لمصلحة كلام تافه جاء به رجل كاذب، وموثّق مغرض، ونسباه إلى رسول الله...

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(1).

وعلى وفرة المؤسسات والمراكز الإسلامية، بمسمياتها الرنانة، نجد التسابق قائماً بين الجميع على اجترار الأحاديث الكاذبة، والخروج بفتاوى مخجلة، تحرج الأتباع أمام الأغراب، دون أن نجد هؤلاء تداعوا لمرّة واحدة، للقيام بدورهم في إعادة النظر في كتب الموروث الرائجة، لتنقيحها مّما شابها من تعارض مع القرآن، ومن

(1) سورة الفرقان، الآية: 30.

أحاديث لا تفيد المسلم في دينه، ومن تناقضات لا تليق بالنبي الأعظم محمد بن عبد الله . .

كيف للعلماء والفقهاء المسلمين أن يتوارثوا ترك هذه الأمّة تضيع في خضمّ هذه الترهات؟ ومتى يحسّون أن واجبهم تجاه ربّهم ونبيّهم يحتّم عليهم تنظيف الموروث المشوّه، عسى أن تلقى الأجيال القادمة خيراً ممّا لقينا؟ وهو مما نشك فيه، فها نحن نخرج بفتاوى لم يأتِ بها السابقون، على امتداد أربعة عشر قرناً، فنفتي (من الأزهر) بوجوب إرضاع المرأة لزملائها في العمل،لتيسير الاختلاط، وقس على ذلك. . .

وبعد، دعونا نستعرض أمثلة على ما اتهمنا به هؤلاء الكتبة من الموالي، بالإساءة إلى الرسول الكريم، بأحاديث موضوعة كاذبة، وإذ لا يتسع المجال لإعادة النظر في كلِّ الأحاديث، وهذا ليس هدفنا هنا، فلنكتفِ بالأحاديث الواردة في الصفحات الأولى من مختصَر «صحيح البخاري»، وما يقابلها في باقي «الصحاح والسنن»، وبعض النماذج الأخرى ذات الدلالة، ومَن شاء الاستزادة فليعكف على القراءة الواعية ليرى العجاب . .

وحيث لابدّ لاستعراض هذه النماذج من اتباع منهج محدّد، تلافياً لأن نُتهم بالشطط، فإننّا لن نتبع هنا منهجاً من ابتكارنا، لكننّا سنعتمد المنهج ذاته الذي وضعه علماء الحديث ذاتهم، فنحاجّهم بمنهاجهم. . .

يلخّص لنا د. بكري شيخ أمين[1] ما سمّاه (دلائل وضع الحديث)، فيقول:

(1) بكري شيخ أمين - أدب الحديث النبوي.

(أمّا دلائل كون الحديث موضوعاً فكثيرة، منها ما يعود إلى المتن، ومنها ما يعود إلى السند، وقد وضع الجهابذة المحدثون (؟) قواعد دقيقة، ومنهجاً علمياً كاملاً، وموازين في غاية الحساسية، بها يميّزون الحديث الصحيح من الحديث المصنوع الموضوع. . وأشهر هذه القواعد هي:

القاعدة الأولى: أن يعترف الواضع نفسه باختلاقه الحديث، كما فعل عصمة بن نوح إذ أقرّ بوضعه على ابن عباس أحاديث في فضائل القرآن سورة سورة، وكما روى البخاري عن عمر بن صبح قوله: أنا وضعتُ خطبة النبي.

(تهرّب الكاتب هنا من إيراد مثال أبي هريرة الذي اعترف بكذبه في حديث جنابة الصائم الذي أوردناه في الإضاءة الثالثة، وهذا ديدن معروف عن هؤلاء النقلة). .

(تزخر مساجدنا وتكايانا وحسينيّاتنا وأسواقنا بملايين الكتيبات التي تورد أحاديث تتحدث عن فضائل تلاوة بعض السوَر، هي ذات الأحاديث التي اعترف عصمة بن نوح بوضعها كذباً على لسان النبي، من مثل أن قراءة سورة الفاتحة شفاء من كل داء، وقراءة البقرة تطرد الشيطان ثلاثة أيام، وقراءة سورة الكهف تجلب السكينة وتعصم من فتنه الدجّال، والإخلاص لغفران الخطايا خمسين عاماً، وسورة يس لغفران الذنوب وقضاء الحاجات، والحواميم لدخول رياض الجنّة، وسورة الملك هي المانعة المنجية من عذاب القبر، وثلاث آيات من أواخر سورة الحشر تجعل قراءتها من يموت في يومه شهيداً. . . ؟؟،

وقس على ذلك، كما لو كانت كلمات الله مطايا لتحقيق أغراض ومصالح شخصيّة، لا للتبصّر بها..).

القاعدة الثانية: أن يعرض كلام الراوي على محك التاريخ، كأن يتبيّن من مقارنة تاريخ ولادة الراوي بتاريخ ولادة الشيخ المروي عنه أنّ الراوي وُلِد بعد وفاة المروي عنه...

القاعدة الثالثة: أن يكون نص الحديث مخالفاً للعقل والحس، بحيث لا يقبل التأويل، مثل ما رواه ابن الجوزي من طريق عبد الرحمن بن أبيه عن جدّه مرفوعاً للنبي، أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً، وصلّت عند المقام ركعتين..

القاعدة الرابعة: أن يتضمّن الحديث ترتيب ثواب عظيم جداً على عمل يسير لا جهد فيه، ولا تضحية تستوجب هذا الثواب، ممّا يشجع على المعاصي والآثام، أو ترتيب عقاب عظيم على هفوة صغيرة كترك مندوب أو فعل مكروه..

القاعدة الخامسة: أن يتضمّن الحديث لوناً من الدعاوة لشخص أو بلد أو طعام أو شراب يخرج به عن الحد المعتاد في الكلام عن هذه الأمور، كرواية حديث «الهريسة تشدّ الظهر»..

القاعدة السادسة: أن يكون راوي الحديث مشهوراً بالكذب، رقيق الدين، لا يتورّع عن اختلاق الأحاديث والأسانيد انتصاراً لهوى شخصي (ألا نلمح شخصيّة أبي هريرة هنا؟).....

القاعدة السابعة: أن يتضمّن الحديث وقوع أمر علناً بمشهد جمهور عظيم، ممّا يستلزم أن يُنقل نقلاً مستفيضاً على نطاق واسع، ولكنّه لا

يشتهر ولا يرويه إلاّ واحد أو اثنان، كحديث غدير خم.. (؟)..

(الغريب أن الكاتب أورد هذا المنهج، ولم يعمل به، وبقي - هداه الله - مصرّاً أن صحيح البخاري أصدق كتاب بعد القرآن.؟)..

فلنستعرض......

النموذج الأول: اللعب على التاريخ

عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[1]، قال: كان رسول الله يعالج من التنزيل شدّةً، وكان ممّا يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله يحركهما، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه، (فإذا قرأته فاتّبع قرآنه) قال: فاستمع له وأنصِت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، ثم إنَّ علينا أن تقرأه، فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي كما قرأه[2].

ونتساءل:

- سورة القيامة كان ترتيب نزولها 31، أي في السنوات الخمس الأولى من الدعوة، فكم كان عُمرُ ابن عباس قبلها؟ وهل شهد نزول الوحي على الرسول في بدايات الدعوة حين كان يحرِّك شفتيه، حتى أمكنه تقليده، إذ إن الرسول توقف بعد هذه السورة عن تحريك شفتيه.

تخبرنا كتب السيرة أن ابن عباس وُلِدَ قبل الهجرة بثلاث سنين،

---

(1) سورة القيامة، الآيتان: 16 - 17.

(2) البخاري 5/ مسلم 1004/ الترمذي 3329/ النسائي 934.

وتوفي النبي وله ثلاث عشرة سنة. . .أي إنَّ سورة القيامة نزلت قبل ولادة ابن عباس بخمس سنين على الأقل، ولم يشهد النبي يحرّك شفتيه يوماً، فكيف يستقيم الحديث؟ أم أنَّ الرواة استغلّوا جهل المسلم بتاريخ نبيّه ورسالته، فخلطوا الأمور.

- لماذا امتنع أبو داود وابن ماجه عن إيراد الحديث في سننهما؟.

- ألم يكن من الأنسب أن ينسب الحديث إلى ابن عباس عن أبيه مثلاً، تلافياً للزلّة التاريخيّة؟.

- قبل كلِّ ذلك، أين هي الحكمة من هذا الحديث؟ وما الذي أضاف إلى الدين؟.

هذا الحديث إذاً، من الأحاديث الموضوعة تبعاً للقاعدة الثانية التي أوردناها أعلاه، فلماذا أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي؟ وهو ليس إلاّ نموذجاً لأحاديث كثيرة، لا يتسع لها المجال هنا، تلعب على التاريخ وتعاقب الأحداث، مستغفلة عقول المسلمين، ومطمئنة إلى جهلهم. .

النموذج الثاني: استغفال العقول

* عن ابن عباس أيضاً: أن أبا سفيان بن حرب أخبره: أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش. . . الخ حديث من أطوَل الأحاديث يتجاوز متنه الصفحتين، يشير في جزئه الأخير إلى أن هرقل اقتنع بالإسلام وبنبوّة محمد، وأسلم ودعا قومه الروم إلى الإسلام، حيث يتابع: فأذِنَ هرقل لعظماء الروم في دسكرةٍ له بحمص، ثم أمر بأبوابها

فغلّقت، ثم أطلَع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبُت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلّقت، فلمّا رأى هرقل نفرَتهم وآيسَ من الإيمان، قال: ردّوهم عَلَي، وقال: إنّي قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.. [1]

ونتساءل:

- لماذا لم يخبر أبو سفيان أحداً غير ابن العباس بهذه الرواية، فجاءت من مصدر آحاد؟ أما كان ليسمعها أكثر الصحابة، لا سيّما وأبو سفيان من المؤلفة قلوبهم (التعبير اللطيف لوصف المشكوك في إسلامهم)، وكان يحتاج إلى إبراز دور معقول لنفسه بين المسلمين الآخرين.

- هل أسلم هرقل؟ وهل أراد دعوة قومه للإسلام؟ وهل هذه هي الطريقة المناسبة لدعوة قومه، ولم نقرأ أن هرقل كان غبيّاً لهذه الدرجة؟ وهل تراجع بهذه السهولة عن إسلامه؟ وهل مات كافراً بعد ذلك؟ وما شأن الروايات التي تتحدث عن حربه وقتاله للمسلمين؟ أين الصحيح وأين الكذب؟.........

- لماذا لم يورد النسائي وابن ماجه هذا الحديث في سننهما؟.

هذا الحديث هو إذاً حديث موضوع، تبعاً للقاعدة السابعة أعلاه،

(1) البخاري 7/ مسلم 607/ أبو داود 5136/ الترمذي 2718.

إذ لم يروِها أصحاب أبي سفيان أو أصحاب هرقل الذين وجدوا في اجتماع عام كبير، كما لم ينقلها سوى ابن عباس... وهو أيضاً حديث موضوع، تبعاً للقاعدة الثالثة، إذ لا يقبله العقل والحس، فمَن يصدّق أن هرقل قد أسلم، لكنّه أخفى إسلامه، وقُتل في مواجهة المسلمين؟...

* حديث صريح الكذب يستغفل عقولنا مرّة أخرى، عن أبي هريرة أنّه لمّا أقبل يريد الإسلام، ومعه غلامه، ضلّ كلّ واحد منهما عن صاحبه، فأقبل بعد ذلك وأبو هريرة جالس مع النبي، فقال النبي: «يا أبا هريرة، هذا غلامك قد أتاك» فقال: أما إنّي أشهدك أنّه حر...[1]

الحديث يشير إلى لحظة قدوم أبي هريرة لإعلان إسلامه، أي في خيبر.

ونسأل:

1 - هل كان لأبي هريرة غلام يخدمه؟ وقد عرفناه غلاماً خادماً لغيره.

2 - في خضمّ انشغال النبي بمعركة خيبر، وتوزيع الغنائم، متى وجد وقتاً للجلوس مع أبي هريرة؟.

3 - كيف رفع النبي الكلفة مع أبي هريرة سريعاً؟ وكيف عرف غلامه؟ هل يستحق الأمر معجزة إلهية هبطت على النبي؟

4 - أوضح دليل على الكذب، هو أن النبي خاطبه «يا أبا هريرة»،

---

(1) البخاري 2530.

ولا ندري كيف عرف لقبه الخاص ولم يمض على لقائه به دقائق معدودات، ثم أنّ أبا هريرة يكذّب نفسه، فهو يقول في مقام آخر: *كان رسول الله يدعوني أبا هر، والناس يدعونني أبا هريرة، ولأن تكنّوني بالذكر أحب إليّ من أن تكنوني بالأنثى*. . أي إننا أمام روايتين متناقضتين للمدّعي ذاته، فأيهما نصدّق؟ وهل فاتت هذه الحقيقة على البخاري أم؟

النموذج الثالث: صورة النبي مشوّش الذهن

* عن عبد الله بن عمرو، عن النبي، قال: «المسلم مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر مَن هجرَ ما نهى الله عنه»[1]. .

ونتساءل:

- هل التعبير صحيح؟ هل كلُّ من سلم المسلمون من يده ولسانه هو مسلم؟ أليس المسلم هو مَن وحّد الله وآمن بالبعث وعمل صالحاً، كما أسلفنا؟، وهل نعتبر ثلاثة أرباع سكان الكرة الأرضية مسلمين لأنّهم ببساطة لم يؤذوا المسلمين، من مثل أهل الصين واليابان والماو ماو والواغا دوغو؟

- لماذا لم يورد مسلم في صحيحه، والترمذي وابن ماجه في سننهما هذا الحديث؟.

- ويرد المعنى في الشق الأول فقط، في صيغة أخرى، لراوٍ آخر،

---

(1) البخاري 10 / أبو داود 2481/ النسائي 5011.

هو أبو موسى إذ قال: «قالوا يا رسول الله، أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»[1] . ، مرّة ثانية لسنا نتصور أن أفضل المسلمين هم مَن سلم منهم المسلمون، فأين التقوى والإيمان والعمل الصالح، وهل ينزلق النبي، حاشاه، في هذا الاختزال المبتسر للدين العظيم؟

كما نلاحظ أن البخاري والنسائي اشتركا في إيراد الحديثين دون تحديد أيّهما النص الصحيح، في حين تجنّب ابن ماجه كلا الحديثين في سننه. . . .

- نلحظ تناقضاً واضحاً فيما يورد على لسان النبي، في الحديث الآخر: عن عبد الله بن عمرو، «أنَّ رجلاً سأل النبي: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على مَن عرفت ومَن لم تعرف». .[2].

وهنا اتفق خمسة من الرواة، وخالفهم أبو داود. . . ، ونتساءل: ما هذه اللخبطة، وكيف يجيب النبي إجابات متناقضة عن السؤال ذاته؟ وهل احتار أيُّ الإسلام خيرٌ أو أفضل، فجاء بإجابتين غير متوافقتين؟ أم نجد من يقول: أنَّ خير الإسلام غير أفضل الإسلام. . . حاشا رسول الله. . . .

- هناك ما هو أكثر، فالحديث التالي يكشف عن تناقض آخر: عن

---

(1) البخاري 11/ مسلم 164/ الترمذي 2504/ النسائي 5014.
(2) البخاري 12 / مسلم 160 / الترمذي 5194 / النسائي 5015/ ابن ماجه 3253.

أبي هريرة، أنَّ رسول الله سئل: أيُّ العمل أفضل؟ فقال: (إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور)[1]..

وإذا لم يكن مهمّاً أن أربعة من الرواة ،مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه أسقطوا الحديث ولم يوردوه، كما لم يكن مهمّاً أن النبي حدّد أفضليّات وأولويات، وأسقط الإيمان بالبعث والعمل الصالح والصلاة والزكاة والصيام...

لكن أين بات الصحيح؟ وهل نقبل تخبطاً مثل هذا ينسب إلى رسول الله؟

أي الإسلام أفضل؟، أيُّ العمل أفضل؟ أي الإسلام خير؟ هل تحتمل ثلاث إجابات متناقضة من نبي؟.

وما هي الغاية من تصوير النبي بصورة شخص مشوّش الأفكار،حتى فيما يتعلق بجوهر الدين وثوابته؟ هل النيّة صافية، أم أن الأمر مقصود؟ حاشا رسول الله..

* عن ابن عباس قال: قال النبي: «أُريتُ النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرنَ، قيل أيكفرن بالله؟ قال: يَكفُرنَ العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهر، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط»[2]..

---

(1) البخاري 26 / النسائي 5000.
(2) البخاري 29 / مسلم 2109 / أبو داود 1189 / النسائي 1492.

ونتساءل:

- قد يكون هذا رأياً شخصياً لابن عباس، الذي عرفنا أنّه لم يكن قد بلغ سن الحلم يوم مات النبي، أو لمن نسبه إليه، أو هو رأي دارج في حينه، أمّا أن يكون حديثاً عن النبي، فما لا يقبله العقل... فهل رأى النبي النار وفيها مَن يُعذّب قبل يوم القيامة؟ وهل النار موجودة في مكان ما قبل قيام الساعة؟ وهل كفر العشير سبب للذهاب إلى النار؟ وأين رحمة الله، وشروطه الأخرى لدخول الجنة من الإيمان والعمل الصالح واجتناب الفواحش... الخ؟ وهل يختلف حساب النساء عن حساب الرجال لدى الإله العادل الرحمن الرحيم؟؟؟..... ولماذا استغلال رسول الله في الإساءة إلى المرأة، وهو داعيّة الدين الذي نقول إنّه أعزها وأكرمها؟

- أي الحديثين نكذّب، هذا الحديث، أم الحديث التالي: عن أنس، عن النبي قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلاّ الله، وفي قلبه وزن شعيرةٍ من خير.... الخ»[1]، فهل النساء ينكرن قول لا إله إلا الله وتعدم قلوبهنَّ وزن شعيرة من خير؟ أم أن النبي رآهن في النار في لحظة نادرة، قبل خروجهنَّ منها؟ أم أن الرواة كاذبون؟.

- أكثر من ذلك، هناك الحديث الثالث الغريب، المنسوب كذباً إلى أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله: «أتاني آتٍ من ربّي فأخبرني، أو قال: بشّرني، أنّه مَن مات مِن أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة»،

---

(1) البخاري 44 / مسلم 478 / الترمذي 2593 / النسائي 1641 - 5050.

قلت: وإن زنى وإن سرق؟، قال: «وإن زنى وإن سرق»[1] .. فهل كفران العشير أسوأ عند الله من الزنى والسرقة، أم أن الأمر ينطبق على الرجال دون النساء، ممّا لا يتسق مع عدل المولى عزّ وجلّ ؟ وإن كان هذا الحديث، هو الآخر، ممّا يتعارض مع كلام الله الذي قال:

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾[2].

وقال:

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3].

أكثر من ذلك، ألم يساوِ الله بين الرجل والمرأة في التكليف والحساب، فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[4].

- أين هذا الحديث في سنن الترمذي وابن ماجه؟

- الأكثر غرابة، أن البخاري وصحبه يوردون الحديث مرّة ثانية، عن المصدر ذاته، أي ابن عباس، ولكن في سياق مختلف، إذ يرتبط

---

(1) البخاري 1237 / مسلم 272.
(2) سورة آل عمران، الآية: 195.
(3) سورة النحل، الآية: 97.
(4) سورة الأحزاب، الآية: 35.

هذه المرّة بحادثة كسوف الشمس: «عن ابن عباس، ذكر حديث الكسوف بطوله، ثم قال: قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك كعكعت؟» قال: «إني رأيت الجنّة فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريتُ النار، فلم أرَ منظراً كاليوم قطُّ أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء» قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: «بكفرهنَّ»، قيل: يكفرن بالله؟، قال: «يَكفُرنَ العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدهر كلَّه، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيتُ منك خيراً قطّ»[1] . . ولسنا نفهم لِمَ لم يرد الحديث في موضع واحد، ألم يدقّق البخاري وغيره في الأمر، فلا يأتون به بسياقين مختلفين. . .

تثيرنا ملاحظة أخرى، أن أبا داود لم يورد هذا الحديث تكراراً، واكتفى بالأول، في حين أن الترمذي وابن ماجه وجدا كلا الحديثين غير صحيح فلم يورداهما. . .

نحيل الأحاديث السابقة إلى القاعدتين الثالثة والرابعة السابقتين، للتأكّد من أنّها أحاديث موضوعة كاذبة لم يقلها النبي حاشاه. . . .

أحاديث متعاقبة

وهي تتناقض أيضاً مع الحديث السابق، ومع بعضها البعض. . . والغريب أنّها كلّها منسوبة إلى أبي هريرة بالذات:

---

(1) البخاري 1053.

الأول يقول: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «مَن يقم ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم مِن ذنبه».

الثاني يقول: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «مَن قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه».

الثالث يقول: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «مَن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه».

- والسؤال الكبير هو: لماذا ننسب هذا التخبط إلى رسول الله؟ ما الذي يغفر ما تقدَّم من الذنوب؟ هل هو قيام ليلة القدر، أم قيام رمضان، أم صيام رمضان؟ هل قالها النبي كلَّها؟ وهل سمعها أبو هريرة ثلاث مرّات، كلَّ مرّة بصيغة مختلفة؟؟؟ هل نقول إن النبي كان ينسى ما يقول، حاشاه؟ أم نقول إن أبا هريرة كان ينسى ما تقوّل على لسان النبي؟ أم كان يتقصّد الأمر؟ وأين أصحاب الصحاح من التدقيق في ما يشوّه صورة النبي؟.

- اشترك في إيراد الحديث الأول كلٌّ من البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي، وفي إيراد الثاني كلٌّ من البخاري ومسلم والنسائي، وفي إيراد الثالث كلٌّ من البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه، فمَن دقّق، ومن محّص، ومَن نقل عن مَن، ومَن المصيب ومَن المخطئ؟ وأين المسلم من كلِّ ذلك؟.

ونقول، إنّ الأحاديث الثلاثة كاذبة وموضوعة، تبعاً للقاعدتين الرابعة (ترتيب ثواب عظيم على عمل يسير)، والسادسة (أن يكون راوي الحديث مشهوراً بالكذب). . . . . .

حديث آخر:

* يكشف تناقض الأحاديث الثلاثة السابقة، ويزيد من الشك في صحتها، «عن أبي سعيد الخدري قال: إنَّه سمع رسول الله يقول: «إذا أسلم العبد فحسُن إسلامه، يكفّر الله عنه كلَّ سيئة كان زَلَفَها، وكان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلاَّ أن يتجاوز الله عنها»[1].

ونتساءل:

- يشترط النبي هنا حسن الإسلام بما يتطلّبه ذلك من التزام، لغفران الذنوب، فكيف اكتفى في الأحاديث السابقة بقيام ليلة القدر، أو صيام رمضان، أو قيامه؟ وأين الصحيح؟ أم أن النبي عاد إلى نسيان ثوابت الإيمان.. حاشاه؟..

- ألا ينطبق حسن الإسلام على النساء،أو حتى قيام رمضان، أو صيامه، أو قيام ليلة القدر بالحد الأدنى، فيغفر الله لهنَّ كفران العشير، فلا تمتلئ النار بهنَّ؟.. هزلت..

حديث آخر:

* عن طلحة بن عبيد الله يقول: جاء رجل من أهل نجد إلى رسول الله ثائر الرأس، يُسمع دوّي صوته ولا يُفقَه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال هل عليّ غيرها؟ قال «لا إلاّ أن تطوَّع» قال رسول الله «وصيام

(1) البخاري 41 / النسائي 5050 - 1641.

رمضان» قال: هل عليّ غيره؟، قال: «لا إلاَّ أن تطوّع»، قال: وذكر له رسول الله الزكاة، قال: وهل عليَّ غيرها؟ قال: «لا إلاَّ أن تطوّع»، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله: «أفلح إن صَدَق»[1].

ونتساءل:

- لماذا التصوير الدرامي والموسيقى التصويريّة في مقدّمة الحديث، هل السؤال عن الإسلام يستلزم ثوران الرأس، ودوّي الصوت، وكل هذه الجلبة؟.....

- سؤال الرجل بسيط، ومبَرّر، وهو موجّه إلى رسول الله، الذي نتوقع منه إجابة وافية شاملة تشرح للرجل ولنا ما هو الإسلام، في اختصار بسيط لكل ما ورد في كتاب الله عن جوهر هذا الدين العظيم.. . ولكن، ألا يفاجئنا هذا الجواب المسطح، المبتور، المشوِّه للدين، إذ استثنى الإيمان بالله وبرسله، والعمل الصالح، وصلة الرحم، والأخوّة، والتسامح.... الخ، وكيف فات النبي أن يذكر له الشهادتين، والحج إلى بيت الله؟ ألم يخبرنا رواة الأحاديث أن أركان الإسلام هي خمسة؟ فما الذي دفع النبي إلى اختزالها بثلاثة؟...

- هل يعني هذا أن النبي، أجاز للرجل الإبقاء على أخلاقه الجاهلية وسيرته في النهب والسلب ووأد البنات، واستباحة الأعراض، وعدم النطق بالشهادتين.. الخ، ما دام صلى وصام

(1) البخاري 46/ مسلم 100/ أبو داود 3252 - 392 - 391/ النسائي 457 - 2089 - 5043.

وزكّى؟ أليس معظم مسلمي اليوم هم على هذه الشاكلة، وكأنّهم عملوا بهذا الحديث دون سواه؟.

- ألا يتناقض هذا الحديث مع كلّ الأحاديث التي أشرنا إليها سابقاً، والتي هي متناقضة فيما بينها أصلاً؟

- هل اكتملت صورة النبي المشوّش، غير العارف بجوهر دينه وثوابته، الصورة التي أراد رواة الحديث إيصالها إلينا عن خير البرية؟... يبدو أنّه لا يزال لديهم الكثير...

* حديث آخر:

يزيد الطين بلّة، إذ نرى النبي، يعطي مرّة أخرى إجابة مناقضة، عن ابن عباس قال: إن وفد عبد القيس لمّا أتوا النبي قالوا: يا رسول الله، إنّا لا نستطيع أن نأتيك إلاّ في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفّار مضر، فمرنا بأمر فصل، نخبر به مَن وراءنا، وندخل به الجنّة، وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمَرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تُعطوا من المغنم الخمس»، ونهاهم عن أربع: عن الحنتم، والدّباء، والنقير، والمزفّت... وقال: احفظوهنَّ وأخبروا بهنَّ من ورائكم[1].

ولا داعي لأن نتساءل هنا، فالأمر بات واضحاً، وصرنا أمام

(1) البخاري 53 / مسلم 5178 / أبو داود 1599/ الترمذي 5046.

صورة مقصودة لنبي كلَّ يومٍ هو في رأي... أفلح الرواة... ونِعمَ صحاحهم.. ألا يردّد أغبياؤنا أن صحيح البخاري أصدق كتاب بعد القرآن؟ ربّما لأن معظمهم لم يقرأه، ومعظم مَن قرأه لم يفهمه.. ألسنا نتعامل مع أدبيات ديننا كالبغال التي تدير الطواحين؟ ومَن هم الصم البكم العمي الذين لا يفقهون؟

صدق الله العظيم..

كان هذا استعراضاً سريعاً لأول خمسين حديثاً وردت في صحيح البخاري، وما يقابلها لدى الآخرين، وحيث لا يمكن الإطالة باستعراض جميع الأحاديث على التتالي، دعونا نمرّ على بعض المقتطفات السريعة، ونترك التدقيق في كل أحاديث الصحاح والسنن، ومطابقتها مع كلام الله والعقل، للفقهاء والعلماء، أليس هذا دورهم؟...

النموذج الرابع: صورة النبي غير الأمين على الرسالة

عن عائشة قالت: سمع النبي رجلاً يقرأ في المسجد، فقال: «رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لقد أذكرني كذا وكذا آية، أسقطتهنّ من سورة كذا وكذا»... وفي رواية أخرى عن عائشة ذاتها قالت: تهجّد النبي في بيتي، فسمع صوت عبّاد يصلّي في المسجد، فقال: «يا عائشة، أصوت عبّادٍ هذا؟» قلت: نعم، قال: «اللهم ارحم عبّاداً فقد أذكرني... إلخ»[1].

---

(1) البخاري 2655/ مسلم 1837 / أبو داود 1331.

ها نحن أمام صورة مرعبة لرسول الله الذي ينسى.. وينسى ماذا؟ كلام الله وآياته، فيُسقِط سهواً بعض الآيات، ولولا مصادفة سماعها من أحد المصلّين لما جاءت في القرآن، أي لوصل إلينا القرآن ناقصاً. أيصدّق أحدٌ أن محمداً لم يكن أميناً في نقل الوحي، أو حريصاً عليه؟ أو أنَّ الله لم يلتزم وعده للنبي بقوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾؟، أليس هذا الحديث ممّا يرفض عقل المسلم تصديقه بحقّ نبيّه وكتابه؟

ألا تنطبق عليه القاعدة الثالثة لمخالفته للعقل والحس؟.

أليس كذبة كبيرة، أُريد بها تصوير رسول الله، عن عمد بهذه الصورة، والإيحاء بأنّه ربّما نسي آيات أخرى لم يتفق وجود من يذكّره بها، مما يُحتمل معه أن القرآن الذي بين أيدينا ناقص؟.. ولو حاجّنا أعداءُ الدين بهذا الحديث لتأكيد رأيهم في نقصان القرآن وبطلانه، فبماذا نجيبهم؟ نجزم القول أنّ البخاري وصحبه تعمّدوا ترويج هذه الصورة، لأن قراءة متأنية لعبارات الحديث تدل على كذبه، كيف؟

1 - ما دام مسلم قرأ هذه الآيات، فهذا يعني أن محمداً قام بإعلانها لأتباعه، فحفظوها وتداولوها، وبالتالي فهو أدّى أمانته ولم يسقطها ممّا أعلن من الوحي..

2 - ما معنى أن يقول النبي: أسقطتهنَّ من سورة كذا وكذا؟، هل يعني أنّه لم يقرأها على المسلمين؟ قطعاً لا، فهم حافظون لها، بدليل أن عبّاداً قرأها، هل يعني أنّه أسقطها من التدوين؟ ومحمد لم يكن يدوّن في كتاب واحد مجموع في قرطاس، كان يقرأ على أتباعه،

ويكتب أكثر من واحد ما يقرأه ويلقيه، فأين من معنى لأسقطتهنّ؟ ومن ماذا أسقطهنّ ما دمن محفوظات في صدور المسلمين ككل الآيات والسوَر؟

3 - يتشدّق ممتهنو تبييض الرجال، بأنّ البخاري كان يدقّق في رجال السند وسلوكيّاتهم إلى درجة كبيرة. . . فإذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا لم يدقّق في صحة النص والمتن، ومدى معقوليته، وقبل هذا مدى ملاءمة نسبه إلى الرسول دون الإساءة إليه. . . ومَن المسيء إلى الرسول هنا؟ راوي الحديث شفاهاً، أم مدوّن الحديث ومثبّته في كتاب عدّه الجهلة صحيحاً وتداولوه أربعة عشر قرناً؟. . .

4 - يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1] فهل نلحظ هنا اتهاماً للرسول، بكتمان بعض الكتاب، يعرّضه للعنة الله واللاعنين؟ حاشا رسول الله، وبئس ما جاءوا به.

النموذج الخامس: صورة النبي الشبق

اشترك البخاري والنسائي في إخراج هذا الحديث، عن أنس قال: كان رسول الله يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهنَّ إحدى عشرة، وفي رواية: تسعُ نسوة، قيل: أوَ كان يطيق ذلك؟، قال: كنّا نتحدّث أنّه أُعطيَ قوّة ثلاثين. . .

واشترك البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه في نسب

---

(1) سورة البقرة، الآية: 159.

هذا الحديث إلى عائشة، قالت: كان النبي يقبّل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه. . . .

واشترك البخاري ومسلم وأبو داود في إخراج هذا الحديث عن أبي هريرة، وقد عرفناه قبلاً، قال: أقيمت الصلاة وعُدّلت الصفوف قياماً، فخرج إلينا رسول الله، فلمّا قام في مصلاّه، ذكر أنّه جنب، فقال لنا: «مكانكم»، ثم رجع فاغتسل، ثم خرج إلينا ورأسه يقطر، فكبّر فصلّينا معه. . .

أيّة صورة للنبي هنا؟ وأيّ إسفاف في تصويره؟، ونتساءل:

- كان النبي يدور على نسائه كلّ يوم، لوصلهنّ والاطمئنان إليهنّ، ولكن، هل كان يضاجعهنّ، كلّهنّ، يوميّاً، حسبما يوحي الحديث عن قوّته في الجماع؟. .

- هل يرفع من مقام النبي مقدرته على مضاجعة إحدى عشرة امرأة، أو حتى تسع نساء، في ساعة واحدة؟. . .

- هل كان النبي شبقاً إلى هذه الدرجة؟ فلا يفوّت ساعة من نهار دون مضاجعة كلّ نسائه، ألم نقرأ أنه خصّص لكلٍّ منهن يوماً؟. .

- لماذا يعطيه الله قوّة ثلاثين رجلاً في الجماع؟، ولِمَ لم يعطه إيّاها في قتال المشركين مثلاً؟، وهل إكرام الله لعبده لا يصحّ إلا بهذه؟؟؟. .

- صدّقنا أنه كان يقبّل وهو صائم، وفيها أحاديث أخرى، كحديث أم سلمة، أمّا كيف نصدّق أن يباشر وهو صائم؟، ألا يفسد صيامه؟ وهل هذه رخصة لنا لمباشرة نسائنا خلال الصيام؟ ثمّ، ألا يضبط النبي

نفسه حتى موعد الإفطار؟ أيّ مَثَلٍ وأيّة قدوةٍ يتركها لنا هنا؟. . .
حاشاه. . وكذبوا. .

- والكارثة أن إحدى الفضائيات التي تتاجر بالدين أوردت هذا الحديث إجابة عن سؤال حول مشروعية المباشرة خلال الصيام، فأباحت ذلك، لكنّها اشترطت أن يكون المباشر شيخاً (؟) لا شابّاً، معزّزة فتواها بحديث آخر عجيب. . يا لابتلاء الإسلام؟.

- كانت عائشة الوحيدة التي تزوّجها النبي بكراً، أي هي لم تضاجع رجلاً قبله، فكيف عرفت أنّه (أملككم لإربه)؟ هل نلحظ هنا تلميحاً إلى عفاف أم المؤمنين الصالحة؟ أم هو إسقاط على، وتأكيد لحادثة الإفك؟. . .

- كيف ينسى النبي أنه ضاجع تواً، بين صلاتين، وأنه جنب؟ فيأتي إلى الصلاة جنباً، ولا يتذكّر إلى أن تقوم الصلاة وتستقيم الصفوف، ولا يجد غضاضة في أن يطلب من أتباعه التسمّر في أماكنهم ليذهب للاغتسال ثم يعاود الصلاة. . هل هذه صورة تليق بالنبي؟ . . . ولو حدث هذا الأمر، فلماذا لم يذكره باقي المصلّين، وهم كثر بالطبع؟ ولماذا انفرد به أبو هريرة؟!!! . .

- هل نصدّق حديث القرآن عن النبي وقيامه الليل مع أصحابه، وانشغالهم بالجهاد، أم نصدّق هذه الروايات السفيهة؟. . .

مرّة أخرى، يشترك البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه، في نسب حديث إلى عائشة، في المقام ذاته، ولعلّ الرواة وجدوا في عائشة بغيتهم فنسبوا إليها الخصوصيات، والحديث أنّها قالت: كانت

إحدانا إذا كانت **حائضاً**، فأراد رسول الله أن يباشرها، أمرها أن تتزر في فور حيضتها، **ثم يباشرها**، قالت: وأيّكم يملك إربه كما كان النبي يملك إربه؟:

- ألم ترد أحاديث مناقضة بعدم مباشرة الحائض ومضاجعتها مضاجعة كاملة؟، وذِكرُ ملك الإرب يشير إلى مضاجعة مكتملة الأركان..

- ما الذي يضطرّ النبي لمباشرة الحائض ولديه تسع زوجات؟ هل يفقد السيطرة على نفسه متى حضرت المرأة؟.. حاشاه...

- مرّة ثانية، كيف عرفت عائشة أنّه كان أملك لإربه من باقي الرجال؟...

- هل يخالف النبي كلام الله الذي بلّغه للمسلمين:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾[1] وهل كان مقصوداً إبراز هذه الصورة بالذات عن النبي؟..

ألا تنطبق هنا القاعدة الثالثة على هذه الأحاديث الكاذبة الموضوعة؟..

النموذج السادس: صورة مناقضة/ النبي رجل تعافه النساء:

أورد البخاري ثلاثة أحاديث متتابعة توحي بصورة مشوّهة غير مقبولة للنبي، لا تتفق مع أخلاقه وسيرته:

(1) سورة البقرة، الآية: 222.

الحديث 5254: عن عائشة، أنّ ابنة الجون، لمّا أُدخلت على رسول الله ودنا منها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها «قد عُذتِ بعظيم، الحقي بأهلك»..

ويؤكّد الرواية مرّة أخرى، من مصدر آخر...

الحديث 5255: عن أبي أُسيد قال: «خرجنا مع النبي حتى انطلقنا إلى حائط - أي بستان - يقال له الشوط، حتى انتهينا إلى حائطين فجلسنا بينهما، فقال النبي: اجلسوا هاهنا، ودخل وقد أُتيَ بالجونية فأنزلت في بيت نخل في بيت أميمة بنت النعمان ابن شراحيل ومعها دايتها حاضنة لها، فلمّا دخل عليها النبي قال: هبي نفسك لي...، قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوَقة، فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال «قد عذت بمعاذ» ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أسيد، اكسها رازقين، وألحقها بأهلها..»...

أيّة صورة هذه؟... النبي يحاول نكاح امرأة، فترفضه وتشتمه باحتقار، وتجعل منه شيطاناً فتستعيذ بالله منه..

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فقد رأينا أن الجونية التي رفضت النبي واستعاذت بالله منه، أُنزلت في بيت أميمة بنت شراحيل، وهناك حصلت الواقعة، إلاّ أنّ البخاري يريد إقناعنا أنّ النبي لم يكتف بصدّ الجونية وردّها له، فانقلب إلى أميمة بنت شراحيل ذاتها، وهو ما يخبرنا به الحديث التالي للحديثين السابقين..

الحديث 5256: عن سهل وأبي أسيد قالا: تزوّج النبي أميمة بنت

شراحيل، فلمّا أُدخلت عليه، بسط يده إليها، فكأنّها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين..

يبدو أبو أُسيد شاهد الحادثتين، في إيحاء بحدوثهما تباعاً، والنبي ترفضه الأولى وتستعيذ بالله منه، فينقلب إلى الثانية التي تبدي له كرهاً ونفوراً.

أيّ الصوّر نصدّق؟.. أم نرفضها كلّها محتفظين بصورة النبي الذي أقرّ الله له بأنه على خلق عظيم؟............

ألا تنطبق هنا القاعدة الثالثة، في مخالفة هذه الأحاديث للعقل والحس، فنصنفها في خانة الأحاديث الكاذبة الموضوعة، عملاً بقواعد (فقهاء) الحديث أنفسهم؟..

النموذج السادس: تثبيت الإسرائيليّات

رأينا في الإضاءة السابقة ،المتعلّقة بأبي هريرة وجريمته في نشر الإسرائيليات التي لقّنه إيّاها كعب الأحبار، كيف ساهم كتبة الأحاديث في تثبيت هذه الجريمة فيما سمّوه صحاحهم وسننهم، لترسيخ اتهام الرسول بما ادّعاه المشركون من أنّ القرآن إنّما يلقنه إياه أحبار اليهود ورهبان النصارى، ونضيف هنا نماذجَ أخرى...

فقد أورد البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، حديثاً منسوباً إلى عبد الله بن عمر، قال: صلّى بنا النبي العشاء في آخر حياته، فلمّا سلّم قام فقال: «**أرأيتم ليلتكم هذه، فإنّ رأس مائة سنة منها لا يبقى ممّن هو على ظهر الأرض أحدٌ**»..... في نسخٍ لقول منسوب إلى

السيّد المسيح في إنجيل متّى 24: 32 «**الحق أقول لكم، لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كلّه، السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول**»، وإذ يجمع الباحثون أنّ متّى كتب إنجيله للعبرانيين، وربّما لهذا نسب إليه ما لا يجوز لرسول أن يقوله، لا سيّما وقد كذّبته الأيام، فما الذي يبرّر للبخاري وصحبه قبول إيراد وتثبيت هذا الحديث على لسان محمد، خاصّة إذا لاحظنا أن أوّلهم - البخاري - ولِد في العام 194 هجري، أي بعد حوالى ثمانين سنة من الموعد الذي ادّعى الراوي الكاذب أنّ محمداً حدّده ليوم القيامة...

حديث آخر منسوب إلى أبي موسى، ورد لدى البخاري ومسلم، عن النبي أنّه قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث أصاب أرضاً، فكان منها نقيّة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع بها الله الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنّما هي قيعان لا تمسك الماء، ولا تنبت الكلأ، فذلك مَن فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلِم وعلَّمَ، ومَثَل مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسِلت به**»... والحديث منسوخ عن قول منسوب إلى السيّد المسيح في إنجيل متّى 24: 13 ...... والأمثلة كثيرة.

الجريمة الأخطر بحق الرسول

اختلاق قصّة زواجه بعائشة ابنة السادسة

لعلّ الموضوع الأكثر إحراجاً لنا، هو ما يثيره الآخرون من دهشة واستغراب، واستنكار لواقعة زواج النبي من عائشة بنت أبي بكر، وهي لمّا تبلغ السادسة من عمرها، وهو في عمر تجاوز الخمسين، والدخول بها وهي في سن التاسعة، وهو استغراب يثور حتى لدى المؤمنين بمحمد ورسالته، يصل إلى حدود الاستنكار المبطّن، مع عجز عن التبرير المنطقي والمعقول. . . .

فمن جاء بهذه الرواية، وسوّقها، وحوّلها إلى حقيقة ثابتة ورواية دارجة؟ . . . . .

بداية، لم يتساءل أحدٌ من أتباع محمد، لِمَ لَم يرد ذكر لهذه الواقعة في موطأ مالك، ومالك من أهل المدينة لا من الموالي(العربي الوحيد بين كتبة الأحاديث)، وهو أقرب إلى زمن الرسول والصحابة، إذ ولد عام 93 هجري، قبل مائة سنة من ولادة البخاري ومسلم وأشباههما؟ . .

هل حصلت الواقعة، كما وصلت إلينا، ولم يعرف بها أهل المدينة؟ أم لم يسمع بها مالك؟ أم أنّها رواية كاذبة لُفّقت بعد مائة سنة أخرى بقصد الإساءة إلى رسول الله؟ . .

أوّل مَن أورد هذه الأكذوبة، ووثقها، وعمّمها، كان البخاري، وتبعه مسلم، فقد أوردها البخاري في باب «تزويج النبي عائشة وقدومها المدينة، وبنائه بها»[1]، بالنص التالي (مختصراً): حدّثني فروة بن أبي المغراء، عن علي بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت «تزوّجني النبي وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، . . . . ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين». . بعدها تتردد أحاديث كاذبة أخرى حول لعبها بالعرائس والدمى، وجلب النبي للبنات الصغيرات للعب معها وتسليتها. . الخ.

يكشف لنا هذه الأكذوبة الخطيرة الباحث إسلام البحيري في دراسة له في مجلّة اليوم السابع المصريّة، ونلحظ من الردود والتعليقات أنّه سبق معالجة هذا الأمر من قبل المؤرّخ حسين مؤنس، وكذلك الكاتب محمد التاجي في كتابه «سيرة النبي العربي»، ونقتبس بتصرّف الشواهد التي أوردها البحيري لتفنيد هذه الأكذوبة الخطيرة:

«تتفق أمّهات كتب التاريخ والسيرة المؤصلة للبعثة النبويّة (الكامل - تاريخ دمشق - سيَر أعلام النبلاء - تاريخ الطبري - البداية والنهاية - تاريخ بغداد - وفيّات الأعيان - وغيرها كثير) على الخط الزمني لأحداث البعثة النبويّة، كالتالي: بدأت البعثة في عام 610 م، واستمرّت في مكّة ثلاث عشرة سنة، وكانت الهجرة إلى المدينة في عام 623 م، ووفاة النبي بعد عشر سنوات في العام 633 م. . . . والمفروض - تبعاً لرواية البخاري - أنّ النبي تزوّج عائشة قبل الهجرة

---

(1) الحديث 3894.

للمدينة بثلاثة أعوام، أي في عام 620م، الموافق للعاشر من بدء الوحي، وكانت تبلغ من العمر ست سنوات، ودخل بها في نهاية العام الأول للهجرة، أي في نهاية عام 623 م وكانت تبلغ تسع سنوات، ممّا يعني أنّها ولدت عام 614 م، أي في السنة الرابعة من بدء الوحي حسب البخاري، وهذا كذب وافتراء ووهم كبير... كيف؟...

1 - تقول كل المصادر سابقة الذكر، إنّ ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر كانت تكبر أختها عائشة بعشر سنوات، وتجمع هذه المصادر دون اختلاف بينها، أنّ أسماء ولِدت قبل الهجرة بسبعة وعشرين عاماً، أي إنّ عمرها لدى بدء البعثة النبويّة عام 610م كان 14 عاماً، ممّا يعني أنّ عمر عائشة لدى بدء البعثة كان أربع سنوات، وولادتها كانت عام 606 م، ومؤدّى ذلك بحساب بسيط أنّه حين عقد عليها النبي في مكّة في العام العاشر من البعثة كان عمرها 14 سنة، وهاجر بعد ثلاث سنوات، ودخل بها بعد ذلك في نهاية العام الأول وبداية الثاني من الهجرة، ممّا يجعل من عمرها حين دخل بها 18 عاماً، هي السن الحقيقيّة التي تزوّج فيها النبي الكريم عائشة، وليس تسع سنوات كما افترى البخاري...

2 - تؤكّد المصادر التاريخيّة السابقة، بلا خلاف بينها، أنّ أسماء بنت أبي بكر توفيت بعد حادثة شهيرة مؤرّخة ومثبتة، هي مقتل ابنها عبد الله بن الزبير على يد الحجّاج عام 73 هجري، وكانت تبلغ من العمر 100 عام، ممّا يؤكّد أنّ عمرها وقت الهجرة كان 100 - 73 = 27 عاماً، في تطابق مع عمرها المذكور صراحة في المصادر

التاريخيّة، وأنّ عمر عائشة التي تصغرها بعشر سنوات كان 17 عاماً حين الهجرة، و18 عاماً حين دخول النبي بها . . .

3 - يجزم الطبري بيقين في كتابه «تاريخ الأمم» أنّ كل أولاد أبي بكر قد ولدوا في الجاهليّة، قبل البعثة، في تأكيد آخر على ولادة عائشة في العام الرابع قبل البعثة . .

4 - يذكر ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» عن السابقين في الإسلام «ومن النساء . . . أسماء بنت أبي بكر، وعائشة وهي صغيرة، فكان إسلام هؤلاء في ثلاث سنين، ورسول الله يدعو في خفية، ثم أمر الله رسوله بإظهار الدعوى»، أي إنّ عائشة أسلمت قبل إظهار الدعوى في السنة الرابعة من بدء الوحي، فلو أنّها ولدت - حسب افتراء البخاري - عام 4 من بدء الوحي، لكان معنى ذلك أنها أسلمت قبل أن تولد، أو أنها كانت رضيعة حين أسلمت عند جهر النبي بالدعوة، وهذا تخريف يناقض كل الأدلّة السابقة بأنّها ولدت عام 4 قبل بدء الوحي، وكان عمرها 8 سنوات لدى الجهر بالدعوة، وهو ما يتفق مع الخط الزمني الصحيح للأحداث، ويناقض رواية البخاري. . . .

5 - أخرج البخاري نفسه، أن عائشة قالت: «لم أعقل أبويّ إلاّ وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلاّ يأتينا فيه رسول الله طرفي النهار بكرة وعشيّة، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً قبل الحبشة» . .

والثابت أنّ الهجرة إلى الحبشة كانت عام 5 من البعثة، وكانت عائشة تعقل وتدرك إسلام أبويها وزيارات النبي اليومية لبيتهم. . .

فلو كانت ولدت عام 4 من البعثة - كما افترى البخاري - فهل تعقل وتدرك رضيعة ابنة سنة واحدة؟ أم أن عمرها الصحيح حينذاك - في العام 5 من البعثة - كان حوالى التاسعة؟ . . .

6 - هل من مزيد؟ . . نعم . . أخرج أحمد في مسنده، عن عائشة قالت: «لمّا هلكت خديجة، جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله، ألا تتزوّج؟، قال مَن؟، قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال: فمَن البكر؟، قالت: أحبّ خلق الله إليك، عائشة ابنة أبي بكر» .

ونسأل: هل كانت خولة لتعرض على النبي بكراً جاهزة للزواج لو كانت عائشة طفلة في السادسة من عمرها، كما افترى البخاري؟ أم أنّها كانت حينها في الخامسة عشرة حسب كل الروايات التاريخيّة سابقة الذكر؟ . .

7 - أخرج أحمد أيضاً عن خولة بنت حكيم حديثاً طويلاً عن خطبة عائشة، المهم فيه أن أم رومان (زوجة أبي بكر وأم عائشة) قالت: إنّ مطعم بن عدي (وهو كافر) قد ذكرها على ابنه جبير (وهو كافر أيضاً وحارب المسلمين في بدر وأحد)، ووالله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه . . الخ . . والتتمة معروفة أنّ أبا بكر، لمّا خطب النبي عائشة منه، تخلّص من وعده لمطعم الكافر . . .

والسؤال: كان أبو بكر أول من أسلم، فلو كانت عائشة قد ولدت عام 4 بعد البعثة - كما يدّعي البخاري أفهل كان أبو بكر ليعطي وعداً لكافر ممّن يسومون المسلمين العذاب بتزويج ابنته؟، أليس هذا دليلاً

آخر أنّ عائشة ولدت قبل البعثة، وأن الوعد كان قبل إسلام أبي بكر؟؟..

8 - أخرج البخاري ذاته (ولا ندري كيف يناقض نفسه مراراً)، عن عائشة قالت: «لقد أنزل الله على محمد بمكّة، وإنّي جارية ألعب، «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمَرّ».. المعلوم أنّ سورة القمر نزلت في السنة الرابعة من البعثة، فلو صدّقنا رواية البخاري تكون عائشة إمّا أنّها لم تولد بعد، أو أنها رضيعة حديثة الولادة عند نزول السورة، ولكنّ عائشة تقول: كنت جارية ألعب.. فكيف تكون لم تولد بعد؟.. إنّ الحساب المتوافق مع الأحداث يؤكّد أنّ عمرها عام 4 من البعثة حين نزول سورة القمر، كان 8 سنوات، وهو ما يتّفق مع عبارة: كنت جارية ألعب....

9 - في تناقض آخر، أخرج البخاري ذاته، أنّ رسول الله قال: «لا تُنكَح البكر حتّى تُستأذَن، قالوا يا رسول الله وكيف إذنها؟، قال: أن تسكت»... فكيف يقول الرسول الكريم هذا ويفعل عكسه؟ فالحديث الذي أورده البخاري عن سن عائشة عند زواجها، ينسب إليها أنّها قالت: كنت ألعب بالبنات - العرائس، ولم يسألها أحدٌ عن إذنها في زواجها، وكيف يسألها وهي طفلة صغيرة جداً لا تعي معنى الزواج؟، وحتّى موافقتها في هذه السن لا تُنتج أثراً شرعياً، لأنّها من غير مكلّف ولا بالغ ولا عاقل..

أليس اتهاماً من البخاري للنبي الكريم بقول ما لا يلتزم به؟.....

جريمة البخاري هذه، التي ابتلعها المسلمون السذّج، بكل بساطة،

أسّست لشرع ليس من شرع الله، بل من شرع الغرائز المقيتة، بات الأكثر تداولاً لدى معظم المسلمين، هو إباحة الزواج من صغيرات لم يبلغن، ولو كان الزوج شيخاً، تحت ذريعة أنّها سنّة من سنن الرسول، وما هي كذلك، هذه الجناية نراها في السعودية بوضوح أكثر من غيرها من باقي الدول الإسلاميّة، بحيث باتت ظاهرة مقلقة تتطلّب المعالجة، مع الإشارة إلى أنّنا لم نجد مَن يتّبع سنّة الرسول الصحيحة والثابتة، حين تزوّج من خديجة الأكبر منه بخمسة عشر عاماً، كما قيل لنا في ذات الكتب والمراجع ..

والأخطر أن ابتلاع هذه الجريمة وقبولها لم يتم من قبل المسلمين السذج فحسب، ولكن أيضاً من قبل مَن نعدّهم أئمة وعلماء وفقهاء، وضعوا أسس شرعنا المشوّه..

فهاهم كبار فقهائنا، وقد انطلت عليهم الكذبة، يستندون إليها فيذهبون في تفسيراتهم، التي باتت ملزمة لنا، إلى ما لا يقرّه شرع الله، إذ أباحوا الزواج من صغيرة، لم تحض، تتبعاً لترهات وأكاذيب البخاري، بل وحدّدوا عدّتها حين الطلاق، نلمح ذلك في تفسيراتهم للآية 4 من سورة الطلاق:

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ . . .

وحيث نلاحظ أن الله عَزَّوَجَلَّ قد قسم، بكلّ وضوح، الزوجات هنا إلى مجموعتين:

الأولى: مجموعة النساء اللائي يئسن من المحيض وتعدين سن الولادة، وهؤلاء عدّتهنّ ثلاثة أشهر..

الثانية: مجموعة الحوامل بشكل واضح وبيّن، مع اللائي لم يحضن لاضطراب في دوراتهنّ الشهرية، بما قد يُشَك في حملهن (يُسمّى انقطاع الحيض، طبيّاً، بالضهى، أو الأمينورويا Amenorrhea، ويحصل نتيجة الحمل، أو الرضاع، أو نقص الوزن، أو اضطرابات الغدد، أو اضطرابات الجهاز التناسلي، أو مشاكل التغذية مثل البوليميا - شراهة الأكل - والأنوروكسانرفوزا - الامتناع عن الأكل، أو الرياضة العنيفة، وقد يستمر انقطاع الحيض لستة أشهر)، وهؤلاء عدّتهنّ حتى وضع الحمل، أو معاودة الحيض وانتظام الدورة...

الغريب أن ابن كثير والطبري والقرطبي والجلالين، ممَن نعدّهم أئمة كباراً وعلماء ومفسرين، نحتضن كتبهم ونعمل بها، قد تجاهلوا إعجاز القرآن في شموله لحالات فيزيولوجيّة للمرأة قبل أن يكتشفها الطب الحديث بأربعة عشر قرناً، وذهبوا كلّهم، بتأثير كذبة البخاري، إلى تفسير: «اللائي لم يحضنَ» بالبنات الصغيرات اللائي لم يبلغن سن البلوغ والحيض، دون أن يفسّروا لنا كيف تحمل مَن لم تصل إلى البلوغ، ومخالفين اللغة والمنطق بإخراج عبارة مَن لم يحضنَ من مجموعتها، والجملة الواقعة فيها، وإعادة لصقها بالمجموعة، والجملة السابقة....

فما الذي يسود لدى المسلمين اليوم، شرع الله، أم جنايات البخاري وصحبه؟....

الواقع يقول، وبشواهد كثيرة تعَدّ بالآلاف، وربّما بالملايين على مدى حوالى اثني عشر قرناً، أنّ جنايات البخاري وصحبه، لا شرع الله، هو ما يسود المجتمعات الإسلاميّة. .

وللتدليل على حجم الجريمة وبشاعتها، وتعارضها مع العقل والذوق ورحمة الله، نكتفي هنا بمثالين حديثين من اليمن السعيد. . .

الأول نشره موقع سيريا نيوز نقلاً عن وكالات أنباء، في شهر نيسان 2010، تحت عنوان «العنف الجنسي ينهي حياة قاصر يمنيّة بعد أربعة أيام من زواجها»، يقول الخبر:

توفيت فتاة يمنية في الثالثة عشرة من العمر بسبب نزف حاد ناجم عن تعرضها للعنف الجنسي وذلك بعد أربعة أيام فقط من تزويجها عبر ما يعرف بزواج البدل كما أعلنت منظمة حقوقية يمنية. . .

وقال «منتدى الشقائق العربي لحقوق الإنسان» في بيان إن الطفلة إلهام مهدي شوعي العسي توفيت الجمعة في 2 الجاري بسبب تمزق كامل في الأعضاء التناسلية ونزف مميت طبقاً لتقرير طبي صادر عن مستشفى الثورة، وذلك بعد أن تم زفافها يوم الاثنين 29 آذار/ مارس.

وكانت الطفلة إلهام، وهي من محافظة حجّة شمال غرب صنعاء، زوّجت ضمن ما يعرف بزواج البدل، إذ زوّجت إلى زوجها الثلاثيني مقابل تزويج أخت زوجها إلى أحد أفراد عائلتها. .

واعتبر منتدى الشقائق أنّ الطفلة إلهام شهيدة العبث بأرواح الأطفال في اليمن ونموذجاً صارخاً لما يشرعه دعاة عدم تحديد سن الزواج من قتل يطال الطفلات الصغيرات». ودعا المنتدى الذي يدافع

خصوصاً عن حقوق المرأة إلى أن تتحول الطفلة إلهام إلى رمز يؤكد بشاعة الجريمة والمخاطر التي تتعرض لها الطفلات الصغيرات بسبب الزواج المبكر. . .

وكان الجدل تصاعد أخيراً في اليمن حول ظاهرة تزويج القاصرات وهي ظاهرة منتشرة خصوصاً في المناطق الريفية، وقد نُظّمت تظاهرات تطالب بتحديد سن دنيا للزواج، بينما نُظّمت تظاهرات أخرى ضد ذلك بدعم من التيارات الدينية المتشددة. . . وكان البرلمان اليمني أقرّ العام الماضي مشروع قانون يضع حداً أدنى لسن الزواج هو 17 عاماً للنساء و18 عاماً للرجال، إلا أنّ نواباً من عدّة أطياف سياسيّة قدّموا إلى رئيس البرلمان طلباً لإعادة مناقشة القانون.

ولم تتم المصادقة على هذا القانون الذي يعوّل عليه من أجل الحد من ظاهرة تزويج الأطفال. . ويرى الإسلاميون أنّ الإسلام لم يحدد سناً للزواج، ويتذرعون بأن النبي محمّداً تزوج عائشة وهي في التاسعة من العمر. . وتزويج الفتيات وهن في سن الطفولة أمر شائع في اليمن الذي تحكمه التركيبة القبلية، ويحظى فيه الإسلاميّون بنفوذ كبير، وخصوصاً في المناطق الريفية، وكانت هيئة علماء اليمن التي يرأسها رجل الدين المتشدد والنافذ عبد المجيد الزنداني أصدرت بياناً ضد مشروع القانون، واعتبرت أنّ تحديد سن الزواج يعني «تحريم ما أباحه الله. .» ويطلق المجتمع المدني والصحافة على الفتيات اللواتي يتم تزويجهن في سن الطفولة اسم «عرائس الموت» ولا سيّما بعدما توفيت فتاة عمرها 12 عاماً بينما كانت تضع مولودها الأول في أيلول/ سبتمبر الماضي. . . .

أمّا الثاني، فنشره موقع سوريا الآن، في شهر آذار/مارس 2010، تحت عنوان «أول طفلة يمنيّة يتم تطليقها.. زوجي مارس معي الجماع بكلّ قوّة وعنف، ولم توقفه صرخاتي» يقول الخبر: كشفت الطفلة نجود علي عن الأحداث المؤلمة التي تعرّضت لها حينما كانت زوجة لرجل يمني يبلغ الثلاثين من العمر، في حين كانت في سن التاسعة، وأوضحت ما تعرضت له من عنف جنسي وضرب عنيف أثناء قيام زوجها بممارسة الجماع معها، وذلك في كتاب تمّ نشره في الولايات المتحدة الأمريكيّة بعنوان «أنا نجود.. عمري عشرة أعوام ومطلّقة» حيث ترجمته إلى الانكليزيّة المخرجة السينمائيّة خديجة السلامي، بعد أن كتبته الصحفيّة الفرنسيّة ديلفين مينوي، وتمّ نشره في فرنسا العام المنصرم، كما يخطّط العديد من دور النشر العالميّة لنشر الكتاب بعد أن حظي باهتمام عالمي بالغ...

وقد تناولت الصحف العالميّة قضيّة الطفلة نجود باهتمام كبير بعد أن نشرته صحيفة «يمن تايمز» للمرّة الأولى كطفلة عروس.

تقول الطفلة نجود في الكتاب إن زوجها أخرجها من المدرسة واصطحبها إلى منزل عائلته في إحدى القرى اليمنيّة، وهناك مارس معها الجماع بشكل عنيف، وأردفت قائلةً: مهما كنت أصرخ لم يأت أحد لمساعدتي، كان الأمر مؤلماً بدرجة كبيرة، وكنت وحيدة في مواجهة الألم.. وحينما سمح لها زوجها بزيارة أسرتها في مدينة صنعاء، هرولت سريعاً نحو سيّارة أجرة، وطلبت من سائقها التوجّه بها إلى المحكمة....

أليس من حق الطفلتين، إلهام ونجود، الادعاء ضد البخاري وصحبه، لما طالهما وملايين قبلهما على امتداد قرون، بسبب جريمة شنيعة مغرضة سوّقها الموالي تحت مسمّى سنّة رسول الله، حاشاه. .

لابد أن نكتفي، وأن نتوقف. . . وأن نطلب من كلِّ مسلم يخشى الله ويقدّر نبيّه، لا أن يحاكم البخاري وصحبه، فهذا فات أوانه منذ اثني عشر قرناً، ولكن أن يحاكم كتبهم، التي رأيناها تزخر بالأحاديث الموضوعة وفقاً لمنهاج هم واضعوه، وأن يتوقف عن تسميتها صحاحاً، وأصدق الكتب بعد القرآن، وأن يضعها حيث تستحق، وأن تتوقف المطابع عن طباعة هذه الجرائم بحق الله ودينه ونبيّه، إنقاذاً للأجيال القادمة من هذه الأمّة المبتلاة، وقبل كلِّ هذا أن يتوقف علماؤنا عن اجترار ما سمّوه فقهاً من هذا الموروث الأسود، الذي سوّقوه علينا على أنّه سنّة رسول الله. . . حاشا رسول الله عما يجرمون. . .

قبل أن نختم، دعونا نتبيّن حجم جناية البخاري وصحبه على عقول الأجيال، من خلال شيوخ الظلام الجدد الذين باتوا منتشرين على الفضائيات ومواقع الانترنت التي يستخدمها العالم لنشر العلم والثقافة، ونستخدمها لتكريس التخلّف والجهل، فعلى موقع (طريق الإسلام) - زاوية (موسوعة الفتاوى)، ورد سؤال يقول: قرأت حديثاً في صحيح البخاري، لا أصدّقه وأعتقد أنّه غير صحيح، رقم 234 الكتاب 4 مجلّد 1. . . وقد انبرى للإجابة عنه مَن دعاه الموقع بالمفتي عبد المنّان البخاري، الذي أسهب في الرد، نقتبس بعضاً منه، يقول *«فأولاً يجب على المسلم أن يعلم أنّ صحيح الإمام البخاري وصحيح*

الإمام مسلم رحمهما الله تعالى، يُعتبران أصح كتابين بعد كتاب الله تعالى (؟)، وما فيهما من الأحاديث الثابتة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم كلّها صحيحة يجب على المسلم الإيمان بها وتصديقها والعمل بمقتضاها، ولا يجوز للمسلم أن يشك فيها، أو يقول عنها لا أصدّقه وأعتقد أنّه غير صحيح. .، لأنّ الواجب على المسلم الانقياد والتسليم لأوامر الله ورسوله وأخبارهما، وتصديق كل ما ورد في الكتاب والسنّة من الأخبار والأحكام والرضا بها جملة وتفصيلاً، ويجب على المسلم إذا أشكل عليه شيء أن يتّهم فهمه وعقله(؟)، ثم ليبادر لسؤال أهل العلم (؟) المتخصصين في هذا المجال، ولا يجوز للمسلم أن يُعمِل عقله في رد نصوص الكتاب والسنّة، ومَن ردّ أمر الله ورسوله أو خبراً من الأخبار الواردة في الكتاب والسنّة بعد علمه أنّها حق وصدق (؟)، ولكن بعقله لم يتقبّله، فإنّه بعد التبيين له ونصحه وإصراره على رأيه يكفر كفراً أكبر، مُخرِجاً عن الملّة، وكذا مثله من شك فيهما مجرّد شك. . .».

ولنلاحظ أمرين خطيرين، أولهما التسليم بصحّة الأحاديث الواردة في الصحاح، دون نقاش أو إعمال للعقل الذي أمرنا الله بإعماله، واعتبار إعمال العقل أو حتّى مجرّد الشك كفراً أكبر يُخرج من الملّة، وثانيهما اعتبار ما ورد في الصحاح سنّة صحيحة عن النبي، وربطها بالكتاب أي القرآن، بما يخيف المسلم الجاهل من أن تشكيكه في الصحاح تشكيكٌ بالقرآن ذاته. . . فيا لهول كارثتنا. . .

(أتيح لي أخيراً الحصول على نسخة من كتاب زكريا أوزون القيّم

«جناية البخاري . . إنقاذ الدين من إمام المحدّثين»، وكتاب «تحرير العقل من النقل، وقراءة نقديّة لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم» لسامر الاسلامبولي وفيهما إضاءات موفّقة في هذا المجال، الأول حول البخاري، والثاني حول البخاري ومسلم، وأرى الرجوع إليهما مثرياً لمن شاء الاستزادة، ويبقى كتاب يحيى محمد «مشكلة الحديث» الذي استعنت بإحدى فقراته، لاطلاعي المتأخر عليه، من أوسع وأشمل الدراسات في هذا الخصوص).

الإضاءة السادسة

لا ناسخ ولا منسوخ

يقطع القرآن باتهام اليهود والنصارى
بتحريف نصوص كتبهم، وإذ لم يتمكّن
المسلمون من تحريف النص القرآني،
فقد لجأوا إلى التلاعب فيه بالتأويل
وتأسيس مدارس الهدم......



ظهرت مدرسة «الناسخ والمنسوخ» حين بدأ التلاعب في النص القرآني لمصلحة تحقيق غايات وأهداف، لا علاقة لها بالتشريع والعقيدة، بقدر ما تخدم غايات وأغراضاً أيديولوجية وسياسية، بالإضافة إلى محاولة الخروج من مأزق التعارض والتناقض الذي وقعت فيه المدارس الفقهية المتعارضة بسبب فهمها الخاطئ للنص الإلهي، ولم يكن من ذكرٍ لناسخٍ أو منسوخ طوال حياة النبي، وإن ظهر فجأة، بعد وفاته، بعضُ الأحاديث المختلَقة لتعزيز هذه المدرسة، التي بدأت تباشيرها يوم السقيفة، وتعززت في خلافة عثمان، لتترسخ بعد موقعتي الجمل وصفين، وتكتمل أركانُها في العهدين الأموي والعباسي.

كان لا بدّ، أولاً، من وضع الأساس لهذه المدرسة، فكيف يجوز اعتبار بعض كلام الله في كتابه المحكم منسوخاً، وبالتالي إسقاط بعض أحكامه وحدوده، وكأنّ الله كان يجهل عواقب الأمور، فغيّر هذه الأحكام بعد أن تبيّن له عدم ملاءمتها للواقع؟.. وكيف يمكن التوفيق بين النسخ والتعديل والتبديل والإلغاء، وبين الاعتقاد بقِدَم القرآن وأزليّة النص المحفوظ في كتاب مكنون؟.. ألا يفترض توقّع رفض المسلمين لهذا الكفر؟ بلى... ولكن كان لدى المؤسسين ثلاثة عناصر، توفر أرضيّةً ومناخاً للتأسيس والتعميم:

أوّلها: جهل الجموع الغفيرة من المسلمين حديثي العهد بالإسلام، واستعدادهم لتقبّل كل ما يُقَدّم لهم تحت عنوان العقيدة.

وثانيها: ركون هؤلاء المسلمين إلى بعض مَن كانوا من معاصري النبي، كأبي هريرة وغيره، ممَن افتَرَضُوا مصداقيّتهم وصدقهم، دون مناقشتها وتأكيدها.

وثالثها: سطوة الحاكم فوق الأرضيّة، المرتبطة ببعد إلهي، خليفة رسول الله، وأمير المؤمنين، ألم يعتقدوا أنّ الله طالبهم بإطاعة أولي الأمر، بقدر إطاعة الله والرسول، دون أن يفهموا المقصود بأولي الأمر؟، والحاكم استخدم فقهاء السلطان لديه لتعزيز مقولاته. . .

جاء فقهاء السلطان هؤلاء، أولاً، بوجود ناسخ ومنسوخ في القرآن، يشمل آيات الأحكام والحدود، مستندين إلى آيات في القرآن، يمكن التلاعب بمدلولاتها لتعزيز المعنى، ما دام الجاهل يقبل تفسير مَن يظنُّه عالِماً فقيهاً لكلام الله. . . وحين لم يكفِ ذلك، أي لم تتوافر لهم آيات يمكن التلاعب بمدلولاتها، جاءوا بجناية أكبر، قالوا إنّ السنّة تنسخ القرآن، أي إن أحاديث النبي التي نقلوها هم عنه، والأصح نسبوها إليه، يجوز أن تلغي بعض الأحكام، وتضع أحكاماً بديلة، وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فليس في الأمر مشكلة، إذ يمكن اعتبار حفظه بالقرآن والسنّة (؟؟). . . ألم يقل مكحول *«القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن»*، ويقل يحيى بن أبي كثير *«السنّة قاضية على الكتاب، ليس الكتاب قاضياً على السنّة»(؟؟)*. . . . وإذ قال الله:

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، فيجوز هنا استثناء النبي من هذه اللا، تحت ذرائع الوحي وتلبيس النبي ثوباً لم يلبسه...

ومَن عارَضَ هذه المدرسة، فالتهمة جاهزة، فقد قال أبو جعفر النحاس: *وهذا القول* (أي إنكار النسخ) *عظيم يؤول إلى الكفر.....*[1].

فهل نكفر هنا، ونتهم أحداً، أو نتجنّى؟ ربّما، ما لَم نتمكن من إثبات وجهة نظرنا...........

دعونا نناقش الأمر...

أ - نسخ القرآن بالقرآن

وهو الشق الأول في أسس المدرسة، ويعني أن تأتي آيةٌ فتنسخ آيةً قبلها أو حتّى (بعدها؟)...

فلنتحرَّ هل يمكن إثبات مبدأ النسخ بآيات من القرآن الكريم، وما هي الآيات التي استندوا إليها لوضع الأساس اللازم لهذه المدرسة؟!

ولكن قبل ذلك، لنعرّج قليلاً على معنى كلمة (آية) كما وردت في القرآن، ما الذي سمّاه الله «آية»؟ هل هي حصراً الجزء من السورة القرآنيّة؟ بمعنى عبارة أو جملة من كلمات القرآن، فقط أم أنّ لها معانيَ أخرى... لنستعرض:

---

(1) أبو جعفر النحاس - الناسخ والمنسوخ في القرآن.

آية في المعجم هي:

العلامة أو الأمارة، وهي العِبرة ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾(1).

وهي المعجزة: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾(2).

وهي من القرآن، جملة أو جمل يؤثَر الوقف في نهايتها، (وهذه لم تكن من كلام العرب، لا شعراً ولا نثراً، وإنّما أُحدثت لاحقاً بعد الإسلام ودرجت حتى يومنا هذا، والشاهد أننّا لا نجد في لسان العرب قبل الإسلام، أو في معجمهم اللغوي، أيَّ استخدام لكلمة آية على أنّها عبارات وجمل، فليس من آيات تشكّل قصيدة شعرية، أو نصّاً منثوراً، على العكس نجد استخدامها محصوراً بالمعنى الآخر، الأمارات والدلائل الربّانيّة غير اللفظيّة، كما وردت لدى الشاعر الجاهلي لبيد في قوله:

والماء والنيران من آياته ... فيهنَّ موعظةٌ لمَن لم يجهلِ

أمّا الاستخدام اللاحق لكلمة آية، في بعض القرآن وبعده على أنّها جملة أو عبارة، فهو استخدام مجازي جاء من منطلق أنّ كل جملة أو عبارة من جمل القرآن وعباراته، هي بحد ذاتها آية ودليل وأمارة على وجود الخالق وجلاله، لا من منطلق أنّها معنى مرادف حيثما وردت، كما فهمها فقهاؤنا المستنيرون (؟) وفرضوها علينا واستخدموها في تلفيق مبدأ النسخ). . .

---

(1) سورة يونس، الآية: 92.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 50.

ولنأخذ من القرآن الكريم مثالاً:

وردت كلمة «آية» مفردةً وجمعاً في سورة البقرة وحدها، عشرين مرّة...

مرّتان يجادل البعض بأنّها تحتمل فيهما معنى «الجمل والعبارات من كلام الله»، وذلك في الآيتين: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[1] و: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولًا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[2]، وهذا سنرد عليه.

ونقول إنَّ معناهما الأصحّ هو العلامات أو الأمارات، أي من الدلائل ما يثبت النبوّة والرسالة، بأن يسرد قصص مَن سبقَ من الأمم ويذكّر بآيات الله في خلقه(يتلو آيات)، ثمَّ يعلِّم الكتاب والحكمة، وهذا أحكم لأن المعنى الأول يفيد بتكرار لا داعٍ له، فإذا كانت الآيات هي جمل الكتاب، فهل يقول: يتلو جمل الكتاب ويعلّم الكتاب؟.

يؤكّد ذلك، في السورة نفسها، أنَّ الله عزّوجلّ سرد قصص بني إسرائيل وطالوت وجالوت وداود، ثم أردف بعدها: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[3].

وثمان عشرة مرّة بمعنى العلامة، الإشارة، المعجزة، بشكل واضح وصريح:

---

(1) سورة البقرة، الآية: 129.
(2) سورة البقرة، الآية: 151.
(3) سورة البقرة، الآية: 252.

﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[2].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3].

﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾[4].

﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾[6] (فلق البحر، رفع الجبل، إنزال المن والسلوى) . . . . . الخ

أيُّ المعاني بات أقرَب إلى العقل؟ وهل يمكن الركون بالمطلَق إلى أن معنى الآية دائماً، وحيث وردت، هو جملة أو عبارة؟ ولو كان ذلك

(1) سورة البقرة، الآية: 73.
(2) سورة البقرة، الآية: 164.
(3) سورة البقرة، الآية: 248.
(4) سورة البقرة، الآية: 259.
(5) سورة البقرة، الآية: 266.
(6) سورة البقرة، الآية: 211.

لَما قال الله في سورة الشعراء: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[1]..

وأوضحها أكثر ما يكون الإيضاح في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (أي معجزات) ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2]، فلو كانت الآيات هي عبارات القرآن لقرأها عليهم كلّما أنزلها الله عليه، ولَما قالوا ما قالوه...

وقد أكّد الله ذلك مراراً، فقال في سورة الإسراء، متحدّثاً عن المعجزات التي طلبها المشركون من النبي: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[3] .. وفي سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾[4].. وغيرها كثير..

ولنلاحظ أن الله عَزَّوَجَلَّ، حين تحدّث عن العبارات والجمل، أي مكونات النص في القرآن، سمّاها سوراً:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[5].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[6].

وفي مواقع أخرى أشار إليها بتعبير «كلمات»:

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 4.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 50.
(3) سورة الإسراء، الآية: 59.
(4) سورة يونس، الآية: 20.
(5) سورة البقرة، الآية: 23.
(6) سورة يونس، الآية: 38.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[2].

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[3].

وبتعبير «قول»، في مواقع أخرى:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[4]..

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[5].

ولتتضح الصورة، نأتي بتعريف الناسخ والمنسوخ، حسب أبي جعفر النحّاس، أحد عتاة هذه المدرسة، يقول:

- الناسخ هو المخالف للمنسوخ من جميع جهاته، الرافع له، المزيل لحكمه -...

وقد وردت في القرآن الكريم: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾[6]، أي يقصي أو يلغي أو يبطل.

فهل ينطبق هذا التعريف على ما جرى استخدامه، أم يناقضه تماماً؟... سنرى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 75.
(2) سورة الشورى، الآية: 24.
(3) سورة الكهف، الآية: 27.
(4) سورة المزمل، الآية: 5.
(5) سورة الزمر، الآية: 18.
(6) سورة الحج، الآية: 52.

يستند مؤسّسو مدرسة الناسخ والمنسوخ - فيما وصلنا - إلى (آيتين) وردتا في القرآن:

الأولى في سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فهل قصد الله تعالى، نغير من جملة أو عبارة؟ أم قصدَ علامةً بعلامة، أو معجزة بمعجزة، أو حتى أحكاماً بأحكام، ألم تغيّر المسيحية بعض الأحكام السائدة لليهوديّة، وغيّر الإسلام بعض أحكامهما؟.

ثمَّ لاحظ أنّ الله اتبعها بقوله: (ألم تعلم أنَّ الله على كلٍّ شيءٍ قدير) أيعقل أنَّه عنى قدرته على تغيير عبارات وجمل؟، وهذه بمقدور أيٍّ كان، لا تحتاج إلى قدرة الله بجلاله، فكيف يستخدمها الله في مقام إثبات وتأكيد قدرته؟. . . . .

أكثر من ذلك، هو اتبعها بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2]، تأكيداً على تصرّفه بالآيات في مُلكه في السموات والأرض، لا في جملٍ في كتاب. . .

ولسنا نفهم، لماذا لم يقس هؤلاء الفقهاء، كلمة (آية) هنا، على الكلمة ذاتها في مواقع أخرى من القرآن؟، كما في قوله في سورة الزخرف، متحدّثاً عن ملأ فرعون:

(1) سورة البقرة، الآية: 106.
(2) سورة البقرة، الآية: 107.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾(1).

هل قصد جملة أكبر من جملة، أو أطول..؟.....

هل يقول الإله العظيم ذلك؟....

إنّ قراءة هذه (الآية) في سياق (الآيات) السابقة لها 105 واللاحقة لها 107، وليس اقتطاعها من السياق كما فعل فقهاء السلطان، يجعل من معناها أنّ العلامات الدالّة على نبوّة الأنبياء يمكن أن يغيّرها الله، بما هو أفضل منها في الدلالة، أو يأتي على الأقل بما يماثلها، ولا يمكن أن يحتمل أبداً معنى العبارات والجمل..

ثمّ هل يغيّر الله عبارات بمثلها؟ ما الجدوى في ذلك؟ ..

الثانيّة في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(2).

بدّلَ الشيء، في المعجم: غيَّر صورته، وبالشيء: جعله مكانه...أي أزلنا الشيء ووضعنا شيئاً آخر محلَّه..

وفي هذا المعنى، كان يتوجب أن يزيل الله الجمل والعبارات ويضع محلَّها جملاً وعبارات أخرى، لا أن يبقيها في محلِّها ويأتي بغيرها في مكان آخر، لأنَّ هذا يناقض: (بدّلنا آية مكان آية).

ولنلاحظ أنّ الله لم يقل: «وإذا استبدلنا» واستبدل في المعجم: جعل بدلاً منه..... فَلِمَ؟.

(1) سورة الزخرف، الآية: 48.
(2) سورة النحل، الآية: 101.

ولنلاحظ أيضاً أنَّ الله تعالى قال:

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾[1]،
وقال: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[2].

والآية الأخيرة تأكيد واضح على أنّ الله لم يشأ أن يُذهِب شيئاً ممّا أوحى لرسوله..

فلَو أراد الله نسخ بعض العبارات والجمل، ممّا أوحى به لرسوله، لَذهبَ بها، ولما تركها، متذكرين أن جبريل عليه السلام كان يراجع القرآن مع الرسول كلَّ رمضان، أما كان ليشطب ما لم يعد سارياً من الأحكام، وما لم يعد له حاجة من مئات (الآيات) التي يحاولون إقناعنا بأنّها باتت منسوخة؟.

لكنّه عز وجل، لم يفعل.....

ومع ذلك، حاول فقهاء النسخ اللعب والتحايل على هذه النقطة، بتوليف روايات تخالفها، وتحاول إثبات العكس، إذ نجد أنَّ ابن الجوزي قد أورد: *وقد كانَ جماعة من الصحابة يحفظون سوراً وآياتٍ فشذَّت عنهم، فأخبرهم النبي أنَّها رُفِعَت.*

وذَكر غيره، على ذمّة النحاس ذاته، فقال: *تنزل الآية وتُتلى في القرآن، ثمَّ تُنسخ فلا تُتلى في القرآن،* ***ولا تُثبّت في الخط***، *ويكون حكمها ثابتاً (؟).*

(1) سورة الأعلى، الآيتان: 6/ 7.
(2) سورة الإسراء، الآية: 86.

في استخفاف كبير بعقول المسلمين، الذين لا يستطيعون فهم الغاية من إلغاء الآية من التلاوة، مع إبقاء حكمها ثابتاً معمولاً به...

وفي حديث منسوب لابن عبّاس قال: خطبَنا عمر بن الخطاب فقال: كنّا نقرأ: «الشيخ والشيخة إذا زَنَيا، فارجموهما البتّة بما قَضَيا من اللذّة»، ولولا أنّي أكرَه أن يقال زاد عمر في القرآن لَزدته.

والحديث الأخير لا يمكن أن يصح، وكذبه مفضوح لمن امتلك عقلاً، *فالمتأمل فيما سمّيت (آية الرجم)، أي قول: والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة، يجدها تفتقر إلى أبسط مقومات البيان القرآني، فهل هي عامّة في كل شيخ وشيخة؟ أم خاصّة بالشيخ المحصن؟ أم أن الشاب المحصن يدخل معه؟ أم أنّها خاصّة في اللفظ عامّة في المعنى فتشمل كل محصن ومحصنة؟ وما مقياس الشيخوخة؟ هل هي سن اليأس عند النساء؟ وتجاوز سن الإربة عند الرجال والنساء؟ أم ماذا؟، إنّ ما يطرحه هذا النص من مشاكل على القرآن نفسه وتناقضات واختلافات، ليكشف أنّه من عند غير الله، وأنّه ليس قرآناً ولا علاقة له بكلام الله...*[1].

ثمّ، هل كان بمقدور أيٍّ كان، عمر أو غيره أن يزيد في القرآن؟

على أنّنا إذا تجاوزنا ذلك، وجارينا فقهاء النسخ، وقبلنا، جدلاً، صحّة هذه الأحاديث، فهذا يعني أنّه إذا كان ثمّة (آيات) نُسخت، فقد جرى حذفُها في حينه من قراءة القرآن، ومن أيّة صحف كتبت فيها،

---

(1) د. مصطفى بو هندي - التأثير المسيحي في تفسير القرآن.

وبالتالي لم يجرِ تدوينها في المصحف الذي بين أيدينا، والذي دوِّنَ فيه هو ما ثبتَ دون نسخ، فكيف نجد في هذا المصحف آيات منسوخة؟ أليس استخفافاً بالعقل ما يريد أنصار مدرسة الناسخ والمنسوخ إقناعنا به؟ .

أكثر من ذلك، كانت الوسيلة الأساسية للرسول في نشر دعوته وتبليغ كلام الله هي «الإعلان على الملأ»، الذي كان بمثابة الجريدة الرسميّة له، ولو وجد الرسول فيما أوحى له جبريل نسخاً، لأعلنه على الملأ، وأذاعه للعمل به والتزامه، ولا تزوّدنا كتب الحديث بأي حديث صحيح محدّد يتناول إعلان الرسول لأتباعه أنّ آية ما قد نسخت آيات سابقة. . .

هل من نتيجة نخرج بها هنا؟ نعم، (آيات) القرآن المثبتة فيه لا تنسخ بعضَها بعضاً، ولا ناسخ ولا منسوخ في كتاب الله المحكَم. .

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾(1).

أمّا التناقض والتعارض في بعض (الآيات)، والذي كان الأساس لإطلاق مفهوم النسخ، فهو تعارض وتناقض وهمي، لم يوجد إلاّ في عقول هؤلاء الفقهاء، نتيجة قصور كبير في فهمهم وإدراكهم لكلام الله، فالله جلّ وعلا أنزل أحكاماً متباينة لتتوافق مع ظروف وحالات

(1) سورة البقرة، الآية: 85.

مختلفة، في مجتمعات مختلفة ومتغيّرة على الدوام، وطلب من عباده التزام الحكم الذي يتوافق مع واقع كلّ منهم، فهو قال:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[1]، وقال ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[2]، وعبارة «أحسن ما أُنزل» لا يمكن أن تعني أنّ هناك عبارات أحسن من عبارات، وبالتالي هناك عبارات أسوأ من عبارات في التنزيل الحكيم، حاشا الله عن ذلك، ولكنّها يجب أن تعني أن هناك أحكاماً أحسن لظرف ما، وأنسب للتطبيق على حالة ما، وهنا تكمن عظمة وشموليّة الدين...

لتأكيد هذه النقطة، وزيادة في إيضاحها، نعود إلى كتاب الله للرد على أنصار مدرسة الناسخ والمنسوخ في اعتبارهم لنزول القرآن على مراحل، على امتداد ثلاثة وعشرين عاماً، كأحد تسويغات النسخ، بما أورده الله عز وجل حول ألواح موسى التي نزلت عليه دفعة واحدة، لا على مراحل، لنجد أنّ الله استخدم التعبير ذاته حول التوراة الذي استخدمه حول القرآن ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا...﴾[3].

إنّ عدم استيعاب وفهم هذه النقطة، كان هو الأساس لتورّط الفقهاء في هذا التضليل..

والغريب أن فقهاء هذه المدرسة اختلفوا في تحديد عدد الآيات

---

(1) سورة الزمر، الآية: 18.

(2) سورة الزمر، الآية: 55.

(3) سورة الأعراف، الآية: 145.

الناسخة والآيات المنسوخة فقال السيوطي إنّها 20 (آية)، والبغدادي إنّها 66، والنحّاس إنّها 134، وابن سلامة إنّها 213، وابن حزم إنّها 214، ومكّي إنّها 255 أي إن (الآيات) المنسوخة يمكن أن تجمع في سورة أطول من كل سور القرآن عدا البقرة . . . تخيّلوا شطب 255 (آية) من القرآن لعدم الحاجة إليها كونها باطلة وغير سارية المفعول. . .

إنّ مقارنة الأعداد السابقة توحي بمصيبة ومهزلة كبيرتين، في آن واحد، فقرآن السيوطي (؟) وفقهه يقرّ بآيات محكمة عددها 235 آية، أكثر ممّا يقرّها قرآن مكّي (؟) وفقهه (255 - 20 = 235)، و194 آية محكمة أكثر ممّا يقرّه قرآن ابن حزم (؟) وفقهه. . . وهلمّ جرّاً. . دون أن يعرف المسلم أيَّ قرآنٍ يتبع. . أليست هذه جريمة ما بعدها جريمة؟. .

أكثر من ذلك، إنّ مجرد اختلافهم قد يوحي باحتمال وجود (آيات) أخرى، لا ندري عددها، قد تكون منسوخة، وهذه كارثة كبيرة، وجناية على التنزيل الحكيم. . . .

ثمّ، إنّ اختلافهم هو دليل بحد ذاته، أنّ النسخ ليس من عند الله، ولا يوجد في كتابه، تصديقاً لقول الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(1).

فكلّ ما هو من عند الله، لا باب للاختلاف فيه. . .

هنا رأينا تهافت المبدأ الذي أُسِّست عليه المدرسة، ولكن ألا يحتمل أن التطبيق قد يأتي بشيء آخر، يغيّر الصورة؟ أم أنّه سيؤكّد

(1) سورة النساء، الآية: 82.

مقولتنا؟، لا بدَّ من دراسة بعض النماذج، كما وردت في كتب الناسخ والمنسوخ، وإعطاء الطرف الآخر حقَّه في الجدال..

النموذج الأول: تغيير القبلة

صلّى النبي في مكة متوجهاً إلى بيت المقدس تتبعاً لآثار الأنبياء قبله، وتابع ذلك في المدينة لستة عشر شهراً، دون أن يرد فيما نزل من القرآن طوال هذه الفترة، ما يحدّد أو يغيّر من هذه القبلة، ثمَّ نزلت (الآية): ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[1] هل هذا دليل على نسخ (الآيات)؟.

نقول: ما الذي نسخته هذه (الآية)؟ هل كان هناك (آية) سابقة حدّدت القبلة، فجاءت هذه ونسختها؟ الجواب: لا لم يكن هناك (آية)، فما الذي نُسخ إذاً؟..

ما نُسخ هو فعل النبي باتخاذ القبلة إلى بيت المقدس، بمبادرة منه اقتفاءً لآثار سابقيه من الأنبياء، مثلما أبطل الله وأد البنات، وكثيراً من ممارسات امتدت من الجاهلية، دون أن يكون هناك (آيات) سابقة فيها، فإذاً لا (آية) منسوخة هنا، بل (فعل) منسوخ ومبطَل... وبالتالي لا علاقة للناسخ والمنسوخ في القرآن بهذه الآية.

هذا النموذج يتكرّر في حالات كثيرة، يعتبرها هؤلاء الفقهاء نسخاً

(1) سورة البقرة، الآية: 144.

وما هي بذلك. . . مثل (الآية) في سورة المجادلة التي حرَّمت الظِّهار الذي كان **فعلاً سائداً** في الجاهليّة، أي قول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمّي، فتحرم عليه، ويبقيها معلّقة، فنزلت (الآية): ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[1]، وهذه أيضاً اعتبروها ناسخة، رغم عدم وجود (آية) سابقة تحلّل أو تبيح الظهار، وهي نسخت **فعلاً أو عادةً سائدة**، ومثله كثير، ألم يأت الإسلام بنظام جديد للحياة، يلغي معظم ممارسات الجاهلية، فنسخ مجتمعاً وأقام مجتمعاً جديداً، وحتى نسخ أحكاماً سابقة على نزول القرآن وجاء بأحكام جديدة، فكيف نبرّر القول أن (آيات) نسخت (آيات)؟ . . .

النموذج الثاني: (آيات) منسوخة بالاستثناء بعدها؟

تتوَسع مدرسة الناسخ والمنسوخ، لتشمل بالنسخ ما هو غير ذلك. . كيف؟ لنقرأ سورة العصر:

﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ③﴾.

العبارات مترابطة وجميلة في هذه السورة القصيرة، فالإنسان خاسر إلاّ إذا عمل صالحاً وتواصى بالحق والصبر. . . . فكيف تلاعب بها روّاد مدرسة النسخ لتحقيق غرضهم؟ قالوا: *إن الجملة الأولى نُسخت أي أُبطلت بما بعدها . . إلاّ الذين*. . . وهذا الاستثناء عدّوه نسخاً، فلَم تسلم حتّى أقصر السور من عبَثِهم.

---

(1) سورة المجادلة، الآية: 3.

تريدون مثالاً آخر، قالوا:

إنَّ (الآية 173) في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ منسوخة بالاستثناء (بالجملة) التي بعدها مباشرة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وقالوا: *صار حكم من اضطر منسوخاً وفي غير المضطر محكماً*، فهل هذا نسخ أم تأكيد للقاعدة مع استثناء المضطر لطفاً من الله؟؟

ويورد النحّاس - في هذا النموذج - ثلاثة وعشرين موضعاً نُسِخَت بالاستثناء كهاتين السورتين، لا مجال للإطالة في عرضها، ومَن شاء فليرجع إلى كتابه.

لكنّنا نشير إلى ما قاله ابن الجوزي[1] حول النسخ بالاستثناء، يقول: (*وقد زعم قوم، أنّ المستثنى ناسخ لما استُثنيَ منه، وليس هذا بكلام مَن يعرف ما يقول، لأنّ الاستثناء إخراج بعض ما شمله اللفظ، وليس ذلك بنسخ، وكذلك التخصيص*)... وابن الجوزي هنا ينعت النحّاس بمَن لا يعرف ما يقول، ولا ندري بما كان النحاس سينعت ابن الجوزي لو عاش بعده...

النموذج الثالث: (آيات) منسوخة بما بعدها

وهنا تزداد الغرابة، حين نجد (آيات) متصلة بعضها ببعض، لكنَّ اللاحق منها ينسخ السابق...

يقولون إنَّ (الآية183 من سورة البقرة): (كُتِبَ عليكم الصيام كما

---

(1) ابن الجوزي - نواسخ القرآن.

كتب على الذين من قبلكم) منسوخة (بآيتين) وردتا بعدها في السورة ذاتها، الأولى (الآية 185):

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ والثانية (الآية187): ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾.

أيُّ نسخ هنا، هل أبطلَت (الآيتان) اللاحقتان (الآية) الأولى، أم أكّدتاها بتفصيل واضح؟

فكل الأقوام كتب الله عليها الصيام كجزء من العقيدة، كلٌّ منها بطريقة وبتوقيت محدّدين، وحدّد للمسلمين أن توقيتهم هو في شهر رمضان، وبيّن أن مضاجعة الأزواج جائزة بعد الإفطار، فما الذي نسخ ماذا؟

هل يقصدون طريقة الصيام، وهي غير مشار إليها في (الآية) الأولى أصلاً؟؟؟.

النموذج الرابع: (آيات) منسوخة الطرفين، محكمة الوسط

يورد الزركشي في «البرهان في علوم القرآن»، : قال ابن العربي: *ومن أغرب آية في النسخ قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أولها وآخرها منسوخان، ووسطها محكم..*

إذا كان الحال كذلك، فهل مَن يدلنا كيف نقرأ القرآن؟..

ثمّ إنّ النسخ، لو جاريناهم، لا يصحّ لجزء من آية، وإنّما يجب أن يطالها كلّها، على اعتبار سكوتنا عن فهمهم المغلوط لقول الله ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾، فهو لم يقل: «ما ننسخ نصفاً أو ثلثاً أو جزءاً من آية»....

النموذج الخامس: (آيات) أكثر من ناسخة.. ماسحة

يذكر النحّاس أنَّ (آية السيف)، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[1] *هذه (الآية) نسخت مائة وثلاثة عشر موضعاً من القرآن موزعة في خمسين سورة*، تخيّلوا العدد، هذه (الآية) البلدوزر مسحت 113 (آية)، منها على سبيل المثال: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2] أي بات يفترَض أن لا نجادل أهل الكتاب بالحسنى، بل نقاتلهم في كل الأحوال، ودون جدال، علماً أن الله والرسول ميّزا دائماً بين (المشركين) وبين أهل الكتاب، سواء في الموقف منهم أو في التعامل معهم، ومع أنَّ (الآية) ذاتها تذكر المشركين لا أهل الكتاب فكيف تنسخ تلك هذه؟ .... ومنها أيضاً: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾...

الأكثر غرابة هو القول الذي أورده الزركشي عن ابن العربي أنَّ *(هذه الآية نسخت 114 آية، ثم صار آخرها ناسخاً لأولها، وهي قولــه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾*...، ونتساءل: كيف تنسخ آية 114 آية، ثم تصبح ذاتها منسوخة؟، وإذا اعتبرنا أن نسخ النسخ هو إبطال له، فهل نعود إلى أن الآيات المائة وأربع عشرة لم تعد منسوخة، لأن ناسخها قد نُسخ؟

(1) سورة التوبة، الآية: 5.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 46.

وقس على ذلك من تخريف. . .

تُرى ما الذي بقي من القرآن، وكيف نقرؤه؟ هل نشطب (الآيات) المنسوخة؟ وهل تستقيم المعاني إذا فعلنا ذلك؟؟؟. . .

تخيَّل أن تقرأ سورة البقرة، مستثنياً منها أربعة وثلاثين موضعاً منسوخاً، وسورة النساء المليئة بالأحكام، وفيها اثنان وعشرون موضعاً منسوخاً، وسورة العصر المكوّنة من آيتين فقط بعد القَسَم، إحداهما منسوخة، والأخرى ناسخة؟.

حول هذه النماذج والتخبط الحاصل لدى الفقهاء، يفيدنا الرجوع إلى أحدهم وهو السيوطي[1]، يقول:

(إنّ الذي أورده المكثرون أقسام: قسم ليس من النسخ في شيء، ولا من التخصيص، ولا له بهما علاقة بوجه من الوجوه. . وقسم هو من قسم المخصوص لا من قسم المنسوخ. . . وقسم رَفَعَ ما كان عليه الأمر في الجاهلية، أو في شرائع من قبلنا، أو في أول الإسلام ولم ينزل في القرآن كإبطال نكاح نساء الآباء ومشروعيّة القصاص والديّة وحصر الطلاق في الثلاث، وهذا إدخاله في قسم الناسخ قريب، ولكن عدم إدخاله أقرب، وهو الذي رجّحه مكّي وغيره ووجّهوه بأنّ ذلك لو عدّ في الناسخ لعدّ جميع القرآن منه، إذ كلّه أو أكثره رافع لما كان عليه الكفّار وأهل الكتاب. قالوا وإنّما حق الناسخ والمنسوخ أن تكون آية نسخت آية. . . فإذا علمت ذلك فقد خرج من الآيات التي أوردها

(1) السيوطي - الإتقان في علوم القرآن.

المكثرون الجمُّ الغفير مع آيات الصفح والعفو إن قلنا إنّ آية السيف لم تنسخها)..

أخيراً، أليس غريباً عجيباً أنَّ ما اعتبروه (آيات منسوخة) لا تزال تُقرأ في الصلاة؟، فإذا كان الحكم قد نُسخ فيها فأي معنى لقراءتها وتعبّد الله بها؟ وهل يُتعبّد الله بألفاظ معانيها ساقطة؟ بل أيّ معنى لبقائها في القرآن، وأيّ فائدة في تلاوتها؟؟...

نقول إنَّ القرآن لا يأتيه الباطل من فوقه ولا من تحته.. فكيف نقبل أنَّ الباطل والمبطل، أي الناسخ والمنسوخ، موجودان في متنه؟

ب - نسخ القرآن بالسنّة

كما أسلفنا، حين لم تتوافر لروّاد مدرسة الناسخ والمنسوخ (آيات) كافية لنسخ أحكام لم تناسب سلاطينهم، جاء بعضُهم بجناية لا مثيل لها على الإسلام، فخرجوا بكفرٍ بيِّن، السنّة تنسخ القرآن، أي إن أحاديث النبي يمكن أن تنسخ (آيات) القرآن وتبطل أحكامه، رغم أن القرآن محكمٌ متفق عليه، محفوظ من الله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، بينما الأحاديث غيرُ متفق عليها، ومعروف الدس والاختلاق والكذب في بعضها، فكيف ينسخ ما هو مشكوك فيه، ما هو محفوظٌ من الله؟........

لا مشكلة لديهم، فالغاية تبرّر الوسيلة عندهم.. ويمكن استخدام بعض (الآيات) في القرآن، وتطويع معانيها ومدلولاتها لتخدم الغرض، ما دامت الجموع جاهلة وقابلة.

فإلامَ استندوا؟ قالوا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

﴿فَانتَهُوا﴾[1]، مع أن هذه (الآية) تتحدث عن توزيع الغنائم والفيء لا عن الأحكام، فالنص الكامل للآية يقول: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (وما آتاكم الرسول فخذوه أعطاكم من الفيء، حسب تفسير الجلالين) وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب.

و(الآية): ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

مع أنَّ عدم مخالفة أمر الرسول لا علاقة لها باعتبار كلامه فوق كلام الله، والنبي لم (يأمر) بتقديم كلامه على وحي ربّه..

و: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[3]، مع أنَّ الواضح هنا تحكيم النبي في الخلافات بين الناس، ولسنا نفهم علاقتها بكلام الله و(آياته)، ولم نسمع أن خلافاً شجر بين المسلمين على القرآن استلزم تحكيم النبي فيه.

أمّا في (الآية): (فرُدّوه إلى الله والرسول) فنلاحظ أنَّ الله لم يقل فردوه إلى الله أو الرسول، أي إنَّ الأساس هو ما يأتي عن الله، أمّا مهمة الرسول فهي الإنذار والتبليغ لا أكثر ولا أقل.

هل هذه (الآيات) التي استندوا إليها مقنعة لغير الجاهل؟ وهل

---

(1) سورة الحشر، الآية: 7.

(2) سورة النور، الآية: 63.

(3) سورة النساء، الآية: 65.

يأتينا الرسول بما يلغي أحكام الله، أو ينهانا عما أراد لنا الله؟ أليست مهمة الرسول هي التبليغ ونقل الرسالة وتوضيح ما يلزم فقط؟ ألم يحدّد الله دورَه؟:

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

أكثر من ذلك، يؤكّد الإله حكمه في ما يحتمل خلافاً، فيقول في سورة الشورى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، لم يقل: فحكمه إلى الله أو الرسول، في تحديد واضح للأدوار، لا مجال للخلط فيه لمن امتلك ذرّة عقلٍ..

أم أنَّهم اعتبروا كلَّ هذه (الآيات) منسوخة، لا يعتد بها؟..

وكيف للنبي أن يأتي بما ينسخ القرآن؟، وهو العاجز أن يأتي بمثله، كما حسم الله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[1]، فهل يأتي بما ينسخه؟..

ألم يأمر الله رسوله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾[2]؟، مع أنَّهم جاءوا بفتوى عجيبة لهذه (الآية) فقالوا: *لم ينسخه من تلقاء نفسه بل بوحي من غير القرآن*، تخيلوا أن الوحي ينزل بالأحكام بما هو قرآن وما هو غير قرآن، فيختلط الأمر وتضل

(1) سورة الإسراء، الآية: 88.
(2) سورة يونس، الآية: 15.

الأمة. . . أليس هذا اتهاماً للقرآن بالنقص الذي يستلزم الاستكمال أو التعديل من قبل النبي؟!.

ثمَّ، إنَّ في كتب الحديث أحاديث عديدة تبين أنَّ ما كان يتحدث به النبي عن غير طريق جبريل كان من اجتهاده، ولم يكن وحياً من الله تعالى، كالحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن رجلين جاءا يختصمان إلى النبي وليس بينهما بيّنة، فقال النبي: (إنّكما تختصمان إليَّ وأنا بشر، ولعلّ بعضكما ألحن بحجته من بعض، **وإنّما أقضي بينكما على نحو ما أسمع**)، وفي رواية أبي داود: (إنّما أقضي بينكما برأي في ما لم ينزل عليَّ، فمَن قضيتُ له من حقٍّ أخيه فلا يأخذه، فإنّما أقطع له قطعة من نار). .

أليس هذا دليلاً على أن النبي يعلن أن أحكامه ليست كأحكام الله التي جاءت في القرآن؟. . . . . كما هي أعماله وممارساته ليست بالضرورة وحياً من الله، ألم يقبل مشورة أصحابه في غزوة بدر حين نزل بهم منزلاً، فسأله بعضهم: أعن أمرٍ من الله نزل بهم هذا المنزل، أم هو الرأي والمكيدة؟، فقال: بل هو الرأي والمكيدة، فأشير عليه حينئذٍ أن يمضي بالمسلمين عن هذا المنزل الذي لم يكن يلائم خطط الحرب، حتى ينزل بهم في المنزل الملائم قرب الماء. . . .

ثمَّ ألم يقل الله في سورة الحاقة متحدثاً عن الرسول: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (أي الكتاب) ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ (أي محمد) عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (أي لعاقبناه بقوة) ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (أي لقطعنا

نياط قلبه) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (أي لَما استطاع أحدٌ منكم منعَ عقابنا عنه) ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

بعد هذا الوعيد الصريح، هل كان النبي ليقبل أن يدّعي أحدٌ أنّه تقوّل على ربِّه، وأبطل (آياتٍ) من كتابه المحكم؟...

وإذا كان هذا الوعيد والإنذار موجهين إلى النبي، فأيُّ وعيد، وأيُّ إنذار لغيره من التابعين؟؟

النموذج الأسطع، والأخطر

إبّان الخلاف بين علي ومعاوية على الخلافة، ظهرت المقولة المنسوبة إلى عبد الله بن سبأ بوصاية علي، أي إنَّ النبي وصّى لعليّ بعده، فاستنفر معاوية مَن حوله، لإبطال هذه المقولة، خوفاً من تأثيرها على المسلمين، وجاء بحديث عن أهل المغازي (؟)، أي العسكر الذين قدموا من الجزيرة إلى الشام، دون تحديد، منسوباً إلى النبي، هو حديث: (لا وصيّة لوارث) الشهير، الذي يعني أنَّ المتوفى لا يجوز أن يوصي لأحد من ورثته، ممّا حفف على معاوية الذي استثمر الحديث للعب بعقول الجهلة من المسلمين، وترسَّخ هذا الحديث طوال العصر الأموي، ثم أكَّده العباسيون، حيث أنَّه يخدمهم في مواجهة أبناء عمومتهم آل علي...

هذا الحديث نسخ (آيات) صريحة في القرآن، وأحد الأحكام

(1) سورة الحاقة، الآيات: 43/ 48.

والحدود التي أمرَنا الله بالتزامها، وجَعَلَ مصير من يتعدّاها ويخالفها إلى النار.. وهي (الآيات) من سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[1] .. والتي تفرض حداً من حدود الله، تماماً (كالآية) بعدها التي تحدثت عن حدٍّ آخر هو الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

كما نسخ (آيات) المواريث في سورة النساء، التي فصّل فيها توزيع الإرث، بعد تنفيذ الوصيّة وسداد الدين: (من بعد وصيّة.. أو دين) وكرَّرها خمس مرّات... و(الآية) في سورة المائدة التي أرشدنا فيها إلى كيفيّة التوصية قبل الموت: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾[3]، انظر بحثنا «الوصية للوارث».

وهو - أي الحديث - نسخَ أيضاً حديثاً آخر للنبي، يؤكّد (الآيات) السابقة، وينسجم معها، وهو الحديث الذي نقله عبد الله بن عمر، عن النبي قال: «ما حقُّ امرئ مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين، إلاّ ووصيّته مكتوبة عنده»، وحديثه الآخر الذي حدّد فيه مقدار الوصيّة، حين عاد سعد بن أبي وقاص في مرضه، فقال: (الثلث، والثلث كثير).....

تصوّروا، حديث من ثلاث كلمات، جاء به معاوية وزبانيته، يلغي

(1) سورة البقرة، الآية: 180.
(2) سورة البقرة، الآية: 183.
(3) سورة المائدة، الآية: 106.

وينسخ كلَّ هذه (الآيات) والأحاديث المتوافقة معها، أليست مصلحة السلطان، وسطوته، أهم من أحكام الله لديهم؟!.

ونشير إلى أنَّ المحاكم الشرعيّة في أكثر البلاد العربية والإسلامية، لا تزال حتى يومنا هذا تأخذ بهذا الحديث، وترفض أيّة وصية، فأيُّ جناية هذه؟ مع العلم أن الشافعي واضع أسس الفقه السنّي أنكر نسخ الحديث للقرآن.

لننهِ الجدال.. كانت سورة المائدة من أواخر السور التي نزلت قبل وفاة النبي، فهي **السورة الثالثة قبل الأخيرة** (بعدها التوبة والنصر فقط)، واستهلّها في (الآية) الثالثة منها بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، ولهذا أعطى الله فيها أحكاماً نهائيّة، وفصّل ما يتعلّق بالحلال والحرام والمعاملات والطعام والشراب والزواج والعبادات والحكم والقضاء والشهادات وإقامة العدل..

في هذه السورة، يحذرنا الله من الحكم بغير ما أنزل، ويكرّر التحذير أربع مرات:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3].

---

(1) سورة المائدة، الآية: 44.

(2) سورة المائدة، الآية: 45.

(3) سورة المائدة، الآية: 47.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

أليست هذه (الآيات) واضحة وصريحة في الأمر باتّباع أحكام الله، ومَن أحسن من الله حكماً؟؟ . .

ولو حاججنا أنصار مدرسة الناسخ والمنسوخ بحججهم ومنطقهم، لجاز لنا أن نقول: ألا تنسخ هذه (الآيات)، وهي أواخر ما نزل من القرآن، (الآيات) التي استندوا إليها في تبرير النسخ؟ ولندعُهم لملاحظة أن الله عزّ وجلّ لم يقل في (الآيات) الأربع: بما أنزل الله والرسول، ولكن بما أنزل الله، فقط . . . . .

ولنتذكر ما فصل الله في سورة الأنعام:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[2]، وما أكّده في(الآية) اللاحقة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3] وصدق الله العظيم.

بعد هذا، هل يجوز لعاقل أن يُنكر من كلام الله شيئاً، بحجّة أنّه منسوخ؟ وهل مقولة الناسخ والمنسوخ هي مما يقبله عقل المسلم؟ . . . .

ألسنا نسِم اليهود والنصارى بتحريف كتبهم؟، وألسنا ننحو نحوهم

(1) سورة المائدة، الآية: 50.
(2) سورة الأنعام، الآية: 114.
(3) سورة الأنعام، الآية: 115.

هنا، فإذ يتعذر علينا تحريف النص، نلجأ إلى التأويل والأحاديث غير الموثوقة لتحريف أحكام الله؟؟.

ألا يتوجب على المسلم العاقل أن يبحث عن المعاني الصحيحة (لآيات) يريدون إيهامه أنَّها تعارض بعضها بعضاً، بدلاً من الاستسلام للنقل والموروث عن فقهاء السلاطين:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾(1).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(2).

إنّ قراءة كلّ (آيات) القرآن، وربطها بظروف تنزيلها، وتدبّر معانيها الصحيحة، بعد سقوط وتهافت مفهوم الناسخ والمنسوخ، هو السبيل إلى فهم الرسالة، كما أراد لنا الله أن نفهمها ونعيها...

وأول ما يتوجّب علينا إدراكه أن (آيات) السيف لم تنسخ (آيات) الخطاب والمجادلة بالحسنى لإخواننا المسلمين أتباع الشرائع السماوية الأخرى..

وغير ذلك كثير ممّا حلّلنا وحرّمنا تحت مسمّيات باطلة كالمندوب والمكروه وأباطيل السلف الأخرى...

(1) سورة الإسراء، الآية: 46.

(2) سورة محمد، الآية: 24.

الإضاءة السابعة

الوصيّة للوارث

نموذجاً



فَرَضَ الله على المسلمين مجموعة من الأحكام، في سورة البقرة، أوردها عَزَّوَجَلَّ بصيغة: كُتِبَ عليكم، أحد هذه الأحكام هو واحد مما اعتُبر أحد (الأركان) الأساسيّة للإيمان بشرعة محمد، وهو الصيام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

وهذا فرضٌ قطعيُّ الدلالة، لا تجوز مخالفته، باستثناء الشروط التي حدّدها الإله للحالات الخاصّة كالسفر والمرض والعذر والبدل.

الحكمان الآخران اللذان وردا في السياق ذاته متقدماً حكم الصوم، تباعاً، هما القصاص في الآية 178:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾.

والوصيّة في الآيتين 180/ 181، وهي هنا موضع بحثنا. . .

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾.

يقول عمرو خالد في كتابه: «خواطر قرآنيّة»: *إنَّ هذه المحاور الثلاثة المتتابعة - القصاص والوصيّة والصيام - هي سياج يحمي*

(1) سورة البقرة، الآية: 183.

المنهج، ذُكِرَت بطريقة مترابطة ومدهشة لا تشبه طريقة البشر في الشرح والعرض.

فالوصيّة فرضٌ، كما الصيام والقصاص، وهي فرض على المؤمن حدّده الله للوالدين وللأقربين الذين هم بالأساس من الوارثين حكماً.

والخطاب، يا أيّها الذين آمنوا، لا يا أيّها الناس، لأنَّ التزام الفروض والحدود جزءٌ من الإيمان، كما أن ذلك حقٌ على المتقين، أي شرط للتقوى أكّدَ عليه في الآيات ذاتها...

وحين فصَّل الله المواريث في سورة النساء، أكَّدَ على أسبقيّة الوصيّة على قسمة الميراث بكافة أشكاله:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ (ووصيّة الله فرضٌ وأمرٌ وحَدٌ) فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ (من البنين أو البنات) فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

يوصينا الله، ويؤكّد أنّها فريضة، أن ننفّذ الوصيّة ونسد الدين، قبل القسمة بين الوارثين... وفي تفصيلٍ واضح، يشمل المرأة والفرد والجماعة بحكم التوصية، نتابع:

---

(1) سورة النساء، الآية: 11.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ (أي نساؤكم) إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً (أي لا والد له ولا ولد) أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ (بأن يوصي أكثر من الثلث، كما ورد في الحديث) وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾[1].

والكلام هنا عن حدود يُجزى من يُطعها، ويُعاقَب عاصيها ومتعديها بنار جهنم، دون إشارة إلى احتمال المغفرة فيها، فالحَدُّ صريحٌ وملزم لا مراعاة فيه. . . .

فالله عز وجل، كَتَبَ وفَرَضَ علينا الوصية، ثمَّ أمرنا بإعطائها الأسبقية على التوزيع الشرعي للميراث، وجعل من ذلك حدّاً ملزماً يفصل بين مآلنا إلى الجنة أم النار.

وحيث أنَّ الله عز وجل أراد أن يكون هذا الحد واضحاً لا لبس فيه،

(1) سورة النساء، الآيتان: 12/ 14.

فقد فصّل فيه بأكثر ممّا فصّل في حكم الصلاة مثلاً، لارتباطه بالعلاقة بين العباد بعضهم ببعض، فجاء في سورة المائدة بأدق التفاصيل عن كيفيّة التوصية والإشهاد على الوصيّة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ (من المؤمنين) أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ (إن لم يتوفر مؤمنان) إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[1] وتتابع الآيتان اللاحقتان التفصيل أكثر.

وهو عَزَّوَجَلَّ يخصّ الزوجة بوصيّة:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم﴾[2].

(آيات) عديدة في ثلاث سوَرٍ من القرآن، في تفصيل واضح، تجاوز تفصيل أيَّ حدٍّ آخر من حدود الله. . . .

وقد أمرَنا الله عَزَّوَجَلَّ بأخذ الإسلام بأحكامه كلِّها، وحذَّرنا من أخذ جزء وترك جزء آخر، كما فعل اليهود:

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾[3].

ولم يفُت النبي تأكيد هذا الأمر، فخاطب المسلمين، في حديث عبد الله بن عمر - إن صحّ - بقوله: (ما حقُّ امرئ مسلمٍ، له شيءٌ

(1) سورة المائدة، الآية: 106.
(2) سورة البقرة، الآية: 240.
(3) سورة البقرة، الآية: 36.

يوصى فيه، يَبيتُ ليلتين إلاّ ووصيتُه مكتوبةٌ عندَه)[1]، وهو وضع تقديراً للوصيّة، في حديثه لسعد بن أبي وقّاص، حين عاده مريضاً - إن صحَّ - بقوله: «الثلث، والثلثُ كثير»[2].

قيل إنَّ النبي لم يوصِ بمال، وهو اعتبر أن الأنبياء لا يورثون: «نحن الأنبياء لا نورِّث، مالنا صدقة» وهذه تخصّ الأنبياء، إن صحّ الحديث، لكن، ألم يوصِ بالتزام كتاب الله؟..

نستحضر روايةً ذاتَ مدلول كبير، حول التزام المسلمين ممّن صاحب النبي، بالوصيّة عملاً بالنص الإلهي، إذ تورد كتب السيرة هذا النص: ...(يقول عبد الله بن الزبير بن العوام أنّه غداة مقتل أبيه الزبير في يوم الجمل، وبعد أن سدّد ديونه، ونفّذ وصيته قسّم تركته، وكان له أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف درهم، وكان جميع ماله خمسين ألف ألف ومائتي ألف دينار...؟؟.).

فإذا كان هذا هو فهم وتطبيق المسلمين القريبين من النبي لمبدأ الوصيّة، فهل التزم المسلمون بعد ذلك بحدود الله، وأوامر نبيّه؟

لعل من المثير للاستغراب والاستنكار، أنّ معظمَهم خالف وعمل بعكس ذلك، في عصيان لله ورسوله وتعدٍّ للحدود في الوصية، رغم تهديدهم بنار جهنم....

نقول معظمهم، لأن هذا العصيان بات من مذاهب أهل السنّة، أمّا الشيعة فالتزموا النص..

---

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه البخاري.

وعلى امتداد أربعة عشر قرناً، حُرِم مليارات من المسلمين أتباع المذهب السنّي من إطاعة الله في حدٍ من حدوده، بالوصيّة قبل موتهم، ومَن فعلها، رفضت المحاكم الشرعية في معظم البلدان الإسلامية الاعتراف بوصيّته، ضاربة عرض الحائط بكتاب الله، مما ألجأ الكثير من المسلمين إلى عقود البيع دون مقابل، للتخلص من عَنَتِ هذه المحاكم ورفضها الامتثال لحدود الله (فعلها جدّي لأمي، وحيدته).

فما مستند الشرع السائد والموروث في مخالفة حدود الله المؤكدة تكراراً في القرآن والحديث؟

الإجابة توحي بمهزلة تدعو إلى الرثاء لحال الفقه الإسلامي المتوارَث والمبتلي.

حين بدأ الخلاف بين عليّ ومعاوية بن أبي سفيان، حول الحكم والملك، وانتشرت دكاكين الدعوة لهذا الطرف أو ذاك، أحدَثَ عبد الله بن سبأ، اليهودي، (حسب بعض المصادر) القول بوصيّة النبي بالإمامة لعليّ من بعده: (قبل أن يتمادى بالقول في ألوهيّة عليّ)، مضفياً بعداً قدسيّاً على حقِّ علي، لم يكن يحتاج إليه لحقّه البيّن في الخلافة، فكان لا بدَّ للطرف الآخر أن يتصدّى للأمر، لا بنكران وصيّة النبي لعلي، وإنّما بنقض مبدأ الوصيّة من أساسه، وهنا استعان معاوية الذي استثمر كل قواه في تحقيق أهدافه، دون أن يردعه رادعٍ عن الإساءة إلى المقرَّبين من الرسول وأهل بيته وبيت علي، ببعض (الصحابة)، مستغلاً سطوته وضعفهم، لنسب أحاديث إلى الرسول تنقض الوصايا المفترَضة.

فجاءوا بحديث عن الأسود قال: ذكروا عند عائشة أنّ عليّاً كان وصيّاً، فقالت: متى أَوصى إليه؟، وقد كنتُ مسنِدته إلى صدري، فدعا بالطّست، فلقد انخنَثَ في حجري، فما شعرتُ أنّه مات، فمتى أوصى إليه[1]؟.

وحيث أنَّ عائشة كانت طرفاً في الخلاف مع عليّ، فقد خُشِي أن لا يؤخَذ بقولها، فكان الأحكم نقضُ المبدأ من أساسه، فجاء فقهاء معاوية بالحديث الغريب، الأشهر الذي أُسنِدَ إلى (أهل المغازي؟) ناسبين إلى النبي أنّه قال «لا وصيّة لوارث»....

وقد ورد هذا الحديث، عن مصدر آحاد، هو عمرو بن خارجة، أنّ رسول الله قال في حجّة الوداع: «أيّها الناس، إنّ الله أدّى إلى كلّ ذي حق حقه، وإنّه لا تجوز وصيّة لوارث،...» أخرجه الترمذي في سننه، والنسائي في سننه، وأحمد في مسنده، دون أن يخرجه الآخرون، ولنلاحظ أنّ النبي خاطب الناس في حجّة الوداع، فكيف لم يروه غير عمرو بن خارجة، ولم يرد في الخطبة المعروفة، وهي آخر ما خاطب به محمّدٌ أتباعه علانية وجهاراً؟.

ثلاث كلمات كانت كافية، بحكم الجهل وسطوة معاوية، لإلغاء (آيات) عديدة من كلام الله في محكم كتابه، وأحاديث أخرى للنبي، وشطب حد من حدود الله..

ولتعزيز الأمر أكثر، ظهرت مدرسة «الناسخ والمنسوخ»، دون التفات إلى قول الله بأن لا مبدّل لكلماته، (وقد فصّلنا ذلك في الإضاءة

(1) أخرجه البخاري.

السابقة)، فاعتبر فقهاء السلطان أنّ سورة المواريث في آية النساء نسخت حكم الوصيّة، مع أن أكثرَنا جهلاً يلحظ أنّها أكّدتها ولم تنسخها، وكيف ينسخ الله حكماً وثّقه (كُتِبَ عليكم) وجعله (حقّاً على المتقين)؟.

وجاء آخرون أكثر إسفافاً، فقالوا *بأن السنّة، أي الحديث، تنسخ القرآن؟*، وأُقصِيَت (الآيات) والحديث الأول للرسول: (ما حقُّ امرئ مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلاّ ووصيّته مكتوبة عنده) لمصلحة «لا وصيّة لوارث»، فكان هذا مستنداً لحكم آل أميّة (الطلقاء) الذي امتد 91 عاماً، ولم ينقضه فقهاء السلطان الآخرون في العهد العباسي لأنّه يعمل لمصلحتهم في مواجهة أبناء عمومتهم، آل علي، كما لم يجرؤ فقيه صالح على نقضه على امتداد القرون اللاحقة.

هل يمكن تصوّر أننا لا نزال محكومين بفقه، بُنيَ على كذبةٍ استلزمها صراع لا دور لنا فيه، ولم يعد يعنينا، مخالفين حدود الله، بعصيان نَبَّهَنا أن عقابه نار جهنّم.

وكيف ننصت إلى مئات الفقهاء الذين يحاضرون علينا يوميّاً، على شاشات الفضائيات، مالئين البرامج الدينيّة زعيقاً وصراخاً، مكتفين بالنقل دون العقل؟ أليست مهمتهم إعمال عقولهم (إن كان لهم عقول تتجاوز مساحة الفتاوى المخزية التي يتحفوننا بها)، وتصحيح هذه الكارثة ومثيلاتها التي تنعكس على حياة كلِّ مسلم؟.

تخيّلوا أحدَنا حضرَه الموتُ، ولديه أمٌّ عاجزة تحتاج إلى رعاية، أو ابنٌ مريضٌ، أو أختٌ أو بنتٌ عانس، أو عدّة أبناء صرف على

أكبرهم فأنهوا تعليمهم، وأمّن لكل منهم سكناً وعملاً، وبقي بعض الصغار يحتاجون إلى الرعاية والتعليم والمساندة في ترتيب أمور حياتهم، ممّا يستلزم التوصية لهم بحاجتهم، والأمثلة الأخرى كثيرة وموجودة في واقعنا... فهل من المعقول أن يكون الحل في التلاعب والتحايل والدوران على القوانين وتزوير عقود البيع الوهمية، في حين لدينا شرع الله الذي أقصيناه كرمى لخلاف عليٍّ ومعاوية الذي فات عليه أربعة عشر قرناً؟.

ولماذا نهمل الآية:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

أليس المسلمون هم الأمّة الوحيدة التي لا تعمل بالوصيّة؟

ثم، أليس من الواجب أن تتحرك الحكومات، والمجالس النيابيّة، لتصويب التشريع، والعودة إلى شرع الله الصحيح، ورفع الظلم عن أهل هذا الدين، دون أن ننسى دور المثقفين ووسائل الإعلام في التوعية والتأثير حتى يسود الحق، ويعود المسلم إلى الرشد والعمل بكلام ربّه:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾[2].

---

(1) سورة الشورى، الآية: 10.

(2) سورة البقرة، الآيتان: 180 و 181.



جناية الأئمة والفقهاء

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79]

(فقه التخريف في لمس المصحف الشريف)

نموذج مخجل أول

- ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: 69-71]

- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21]

- «إنّما أخاف على أمتي الأئمة المضلّين»

حديث شريف



نشر أحد المواقع الاليكترونية الإسلامية على شبكة الانترنت خبراً مختصراً يفيد بأنّ حكومة الدانمرك أقرّت تدريس مادة الدين الإسلامي والقرآن الكريم لطلاب المدارس الثانويّة.

وقد عكست معظم التعليقات ردود فعل إيجابيّة على الخبر، مستبشرة به، واجدة فيه باباً جديداً يُفتح لانتشار الإسلام، من منطلق أن من دَرَسَ هذا الدين وجد فيه ما يملأ روحه ويحترم عقله، وبات أقرب إلى سبيل الهداية.

إلاّ أنّ الطامة الكبرى كانت في بعض التعليقات الأخرى، التي رأت أن الأمر يعني أن القرآن سيكون بين أيادي الطلاب الدانمركيين غير المسلمين، وغير الطاهرين (؟)، وأنّ في ذلك مخالفة لقول الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، وأن نبل الغاية يجب أن لا يبرر مخالفة كلام الله، وبالتالي يجب معارضة هذا الأمر....

والفاجعة أن المسلمين الذين يتفقون مع هذا الرأي الغريب ويعملون به، هم أكثر ممّن يعارضونه.

هذا الفهم القاصر، الكارثي المغلوط، يملأ عقول ملايين المسلمين، بل المليارات منهم، منذ أكثر من ألف عام، ولا يزال، وسيستمر جيلاً بعد جيل.

فمن أين تأتّى هذا الفهم، وما سببه، وهل هو تقصير الفرد المسلم

في استيعاب كلام الله وفهم نصوص الكتاب؟ أم أنّ هناك من يقف خلف هذا القصور، ومَن أسّس له، ونشره وعمّمه، مستغلاً جهل الجمهور، وتقاعس المسلمين عن الدراسة الواعية المستندة إلى العقل، لكتابهم الكريم؟.

ولكن، ماهو المعنى الصحيح الذي أراده الله تعالى بهذه العبارة؟

قبل أن نعمل العقل، دعونا نبحر في صفحات الكتاب، ونتحرى المعنى والمدلول، من خلال متابعة ما أخبر الله به نبيّه وعبادَه عن القرآن، ملتزمين تسلسل نزول السور.

أول ذكر لكلمة القرآن ورد في سورة (المزّمل) وهي ثاني سورة نزلت على النبي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[1] . ثم تتابعت الآيات:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[2] أي كتاباً يقرأه..

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾[3]، وصحف مكرمة (عند الله)، ومرفوعة (في السماء)، ومطهّرة (منزّهة عن مس الشياطين)، بأيدي سفَرة (كتبة ينسخونها في اللوح المحفوظ)، وكرام بررة (مطيعين لله وهم الملائكة)[4].

---

(1) سورة المزمل، الآيات: 1/ 5.
(2) سورة المدثر، الآية: 52.
(3) سورة عبس، الآيات: 12/ 16.
(4) تفسير الجلالين.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾[1].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[2].

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾[3] . . . فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾[4].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أربعة مرات[5].

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[6].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾، ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[7] وإن كانت أسباب النزول تشير إلى أن الآية الأخيرة مدنية.

---

(1) سورة البروج، الآيتان: 21/ 22.
(2) سورة القيامة، الآيات: 16/ 19.
(3) سورة ق، الآيات: 1/ 2. . . و45.
(4) سورة الطارق، الآيتان: 13/ 14.
(5) سورة القمر، الآيات: 17 - 22 - 32 - 40.
(6) سورة ص، الآيات: 1 - 29 - 67/ 68 - 87.
(7) سورة الأعراف، الآيات: 52 - 196 - 204.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[1].

﴿يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (4) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5)﴾، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69)﴾[2].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1)﴾، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (6)﴾، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)﴾[3].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾[4].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[5].

﴿طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (3)

---

(1) سورة الجن، الآية: 1.
(2) سورة يس، الآيات: 1/5 - 69.
(3) سورة الفرقان، الآيات: 1 - 4 - 5 - 6 - 30 - 32.
(4) سورة فاطر، الآيتان: 31/ 32.
(5) سورة مريم، الآية: 97.

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[1].

حتى الآن، يتحدث الله عَزَّوَجَلَّ عن مفاهيم وعقائد يجري حفظها في صحف مطهرة، في لوح في السماوات العليا، بأيدي ملائكة بررة كرام، (والصحف واللوح معنَيان مجازيّان هنا)، بغية تنزيلها إلى المتلقين الأوائل وهم الرسل، لإعلانها على الناس، ولا يتحدث عن كتاب كمجموعة أوراق مجلّدة بين دفتي كتاب مغلّف، أو قرطاس بأيادي البشر.

يؤكد هذا المعنى في سورة الواقعة، وهي بيت القصيد هنا ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[2].

فهل في الآية ما يفيد بمعنى جديد مغاير للآيات السابقة لها، أم أنّها تؤكد وترسخ المعنى ذاته، في السياق؟

وكيف يمكن حتى للجاهل استنباط مدلول أن المقصود هو كتاب مجلّد بغلافين، لا يسمح لغير الطاهر والمتوضّئ لمسه بيديه؟ تماماً كما أراد المشركون حين قال عنهم باستنكار في سورة المدّثر: ﴿بَلْ

(1) سورة طه، الآيات: 1/ 4 - 113/ 114.
(2) سورة الواقعة، الآيتان: 75/ 80.

﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[1] . . . . . . وهل هناك إصرار على فهم المعنى بالمقلوب المستنكر من الله؟.

أكثر من ذلك، حين أراد الله عَزَّوَجَلَّ الحديث عن كتاب مجلّد، وعن لمس باليد، أشار إلى ذلك صراحة وبوضوح، حين قال:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2].

وهنا، لسنا نفهم كيف فات المعنى والمدلول الصحيحان على الإمامين اللذين وضعا «تفسير الجلالين» واسع الانتشار، جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلّي، حين أوردا المعنى المغلوط في تفسيرهما العتيد، مناقضين تفسيرهما لسورة عَبَسَ السابقة التنزيل. . ، وكلّنا أمل أن لا تكون معظم تفسيراتهما بالمقدار ذاته من الصحّة، والقدر ذاته من التناقض والتضارب، وإن كنا لم نجد في معظم ما وقع بين أيادينا من تفاسير أخرى مَن يعطي المعنى الصحيح، بل إنّ بعضها يشير إلى الوجهين، وهذه كارثة لا حدود لها. . . . . .

هذا في سور القرآن، وبعد، فما الذي يقودنا إليه إعمال العقل كما أمرنا الله؟

فأولاً، توفي النبي دون أن يوجد قرآن في قرطاس مجموع، باستثناء بعض الرقاع والعسب من جريد النخل، لدى كتبة لا يتجاوز

(1) سورة المدّثر، الآية: 74.
(2) سورة الأنعام، الآية: 7.

عددهم عدد أصابع اليدين، وظلّت كلمة القرآن تعني للنبي وأتباعه كلام الله المحفوظ في كتاب مكنون في السماء، ومحفوظ شفاهاً ما نزِّل منه في صدورهم، فأيّ قرطاس، وأي لمس باليد، وأي طهور ووضوء؟.

وإن كان هناك من لفّق أحاديث غريبة عن النبي كحديث رواه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده (؟) أن النبي كتب كتاباً إلى أهل اليمن وكان فيه: (لا يمس القرآن إلاّ طاهر)، وأكّدوا اللفظ ذاته على لسان عبد الله بن عمر، كما لو كان هناك قرآن في قرطاس حينها، وفات واضع الحديث أن يشير إلى ما إذا كان النبي قد طلب من أهل اليمن الوضوء قبل قراءة كتابه الحاوي على عبارات من القرآن.

كما لم نجد في الرسالتين اللتين أرسلهما النبي إلى النجاشي والمقوقس، وقد أثبتنا نصّيهما في الإضاءة الأولى، إشارة إلى هذا الأمر، رغم ورود كلام الله في كليهما..

كما كان هناك من لفق كذبة كبيرة، حين أورد حادثة إسلام عمر، وأنّ أخته فاطمة بنت الخطّاب طلبت منه أن يغتسل قبل الإمساك وقراءة الصحيفة التي تضم سورة طه، عملاً بالآية ذاتها (لا يمسّه إلاّ المطهرون) ليقنعنا بما لم يرده الله، فما سند القصة، ومَن قال إن فاطمة أخت عمر فقيهة في الدين، وهل صحيح أنّها قالت ذلك، واستجاب عمر، وما تعليق النبي إذا كان قد سمع القصّة،؟؟ كما أنّ سورة الواقعة نزلت بعد سورة طه، وكان ترتيب عمر في الإسلام التاسع والثلاثين، أي في مرحلة مبكرة إلى حدٍّ ما من الدعوة، فهل نزلت سورتا طه والواقعة، وتسلسلهما 45 و46، قبل إسلام عمر أم بعد ذلك؟ ثمّ ألم

يسمع عمر - قبل ذلك - القرآن الذي كان يتردّد في مكّة، ويثير حفيظة قريش؟....

ثم إن الحال استمر بدون وجود قرآن في قرطاس متداول بين أيادي المسلمين، طوال خلافتي أبي بكر وعمر، وبالتالي لم يكن موضوع اللمس باليد وارداً في أذهان المسلمين، وحتى في خلافة عثمان الذي جمع القرآن ونسخه على خمس نسخ، وقيل سبع، ووزعه على البلدان المفتوحة، لم نسمع أن عثمان أوصى مراسليه الذين أرسلهم بالنسخ إلى الأمصار بالمداومة على الوضوء حتى يصلوا إلى مبتغاهم.

زوّدني محاور متفتح الذهن، بما يفيد في هذا المجال، كتب لي:

(جاء في صحيح البخاري من حديث عائشة قالت: خرجنا لا نرى إلا الحج، فلما كنا بسرِف حِضْتُ، فدخل عليَّ رسول الله وأنا أبكي، قال: (مالك؟ أنفستِ؟) قلت: نعم. قال: ***(إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، فاقضي ما يقضي الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت)*** *.*

الحائض - وهي أكثر بعداً عن الطهارة من غير المتوضئ - تقضي ما يقضي الحاج أي تذهب إلى مِنى ثم عرفة ثم المزدلفة ثم تنحر أضحيتها وترمي الحجر وتقص شعرها، وهذه كلها عبادات فيها دعاء الله وتهليل وتسبيح بحمده. ترى، ألم يراعِ الله قدسية اسمه فسمح للحائض أن تذكره وتؤدي شعائره؟ حاشا لله، فهي مطهَّرَة بإيمانها ولذلك تذكر اسم الله، فمن باب أولى أن تمس ورقاً مكتوباً عليه كلام الله، لأن قدسية الكلام لم تأتِ أصلاً إلا من قدسية قائله سبحانه وتعالى، ولا تنسحب هذه القدسية على الشيء الذي كُتِبَ عليه، وإلا

لما سمح رسول الله بكتابة الآيات على جريد النخل أو على عظام الحيوانات وجلودها.

وفي صحيح البخاري عن عائشة: أن النبي كان يتكئ في حجري وأنا حائض ثم يقرأ القرآن.

وفي صحيح البخاري عن إبراهيم قال: لم يرَ ابن عباس بالقراءة للجنب بأساً)، انتهى.

وثانياً، لم ترد الآية في سورة الواقعة بصيغة الأمر، بل وردت إخباريّة تتحدث عن واقع حال أن القرآن الكريم في كتاب مكنون محفوظ في السماء لا يقترب منه إلاّ الملائكة الأطهار البررة الذين يكلّفهم الله بذلك، و(لا) هنا نافية في هذا السياق وليست ناهية، وهو واقع حال مؤكد وثابت وغير قابل للتبديل، وغير متروك لتصرّف العباد، ولو كانت ناهية لكانت جازمة ولجزمت الفعل، ولقال لا يمسَسْه، وليس لا يمسَّه، فكيف حوّل الفقهاء الموضوع إلى أمر إلهي واجب الاتباع، وقابل لعدم الاتباع، ككل الأوامر التي تجد مَن يلتزم بها ومَن يخالفها عن قصد أو دونه؟ وكيف نقبل تفسير القرآن ممَّن لا يرى فرقاً بين (لا) النافية، و(لا) الناهية الجازمة؟.

وهنا أعود لما جاء به محاوري، قال:

(هذه واحدة من الآيات التي فُسِّرَتْ خطأً ومشى الناس على هذا الخطأ قروناً عديدة، لسببٍ بسيطٍ، هو أن أحداً لا يريد أن يدرس التفاسير القديمة ليرى صحتها من خطئها، فاستسلم الجميع لها واعتبروها صحيحةً مائة بالمائة)!!!

فتعال لنفسر هذه الآية الكريمة لغوياً ثم من السنة النبوية والسيرة، وبعدها انظر ما جناه الناس على أنفسهم باستسلامهم للتفاسير القديمة وعدم تدبرهم كتاب الله بأنفسهم.

(لا) في اللغة العربية تأتي بمعنيين: ناهية، وإخبارية،

الناهية يأتي بعدها بالضرورة فعل مضارع مجزوم بها وتأتي للمخاطب فرداً أو جماعةً، ذكوراً أو إناثاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ (1) هنا الفعل المنهي عنه (يسخر) له فاعل هو القوم، وفاعل (يغتب) هو بعضكم.

﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ (2).

فاعل الفعل المنهي عنه (تقصص) هو ضمير مستتر تقديره أنتَ، ومثله في الآيات التالية:

﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ

(1) سورة الحجرات، الآيتان: 11/ 12.
(2) سورة يوسف، الآية: 5.

فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (1).

هذه هي الـ(لا) الناهية، وإذا نظرتَ إليها في الآية التي نتحدث عنها فإنك ستجدها غير ذلك (لا يمسُّه) لأنها لو كانت ناهية لجزمت الفعل فكان: لا يمسَسْه. كما أنها غير موجهة لمخاطَب وليس لها فاعل. إذاً هي ليست ناهية في هذه الآية، وبالتالي فالآية لا تعني النهي عن لمس المصحف.

الإخبارية هي التي ترد في سياق الحديث عن شيء وليس بالضرورة أن تكون للمخاطَب أو يأتي بعدها فعل، وتعني (ليس) ولا تؤثر على حركة ما بعدها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ (2) هنا الـ(لا) إخبارية لأن معنى الآية إخبار عن صفة البقرة المطلوبة وأنها ليست ذلولاً وليست قائمةً بحراثة الأرض وليس فيها علامة.

﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ (3) أي ليس لدينا قدرة على مواجهة جالوت.

---

(1) سورة لقمان، الآيات: 13/ 18.

(2) سورة البقرة، الآية: 71.

(3) سورة البقرة، الآية: 249.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[1] أي لا يتعرض للنعاس والنوم.

هذه هي الـ(لا) الإخبارية، وإذا نظرتَ إليها في الآية التي نتحدث عنها فإنك ستجدها مطابقة (لا يمسه) أي ليس يمسه، فالمعنى إخبار عمَّن يمسه.

(المطهَّرون) مبني للمجهول، لأن الفاعل المعلوم هو: المتطهِرون. أما هنا (المطهَّرون) أي إن هناك مَن طهَّرهم ولم يطهّروا هم أنفسهم، فمن هو؟

هنا نقطة مهمة تؤكد ما قلته آنفاً عن الخلفية الجيدة في اللغة العربية، التي تريك البيان الإلهي: المطهِّر الذي جعل أولئك الماسّين مطهَّرين، هو الله عَزَّوَجَلَّ، حين هداهم إلى الإيمان فآمنوا، ولكن الفاعل المباشر لعملية التطهير هو المؤمن نفسه الذي اهتدى فتطهّر بالإيمان، إلا أن المؤمن هو مجرد عاملٍ بالأسباب، والإيمان الذي دخل قلبه هو السبب، أما المسبِّب - وهو الفاعل الحقيقي - فهو الله عَزَّوَجَلَّ، الذي يعطي الأجر لمن قصد بعمله وجهه الكريم ولم يقصد به أحداً من المخلوقات، ولذلك فإن القرآن، إذ يمكن أن يقرأه الكافر - كما فعل المشركون في مكة - من أجل العثور على خطأٍ فيه يكون مطعَناً له، فإنهم ليس لهم ثواب في قراءته، أما المسلم فإنه يقرأه للتعلُّم أو التدبُّر أو الخشوع. . . أي لله، فإن الله يجزيه على قراءته ويثيبه عليها، ومن هنا (لا يمسه إلا المطهرون) أي لا يمس ثوابه إلا مَن طهّرهم الله بإيمانهم.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 255.

فالمعنى إخباري وليس فيه أمر أو نهي انتهى.

وثالثاً، لا يقول الله تعالى إلاّ الحق، وهو العارف العالم أن هذا القرآن سيجمع يوماً في قرطاس، وسيتداوله المسلم وغير المسلم، الطاهر وغير الطاهر، وحاشا لله أن يقول عبثاً، ولا يستقيم الأمر أن نقول إنّه إذا مسّ غير الطاهر القرآن فالآية غير صحيحة (؟)، لا سيّما وأن الله عزّ وجلّ يقسم قسماً عظيماً.

ولكن، ألا نعذر للمسلم العادي فهمه المغلوط لمعنى الآية ومدلولها، وعمله بهذا الفهم، إذا ما تحرينا ما جاء به (الفقهاء وأئمة المذاهب) الذين وضعوا للمسلم /كتالوغاً/ لدينه، بات يحكمه ويلزمه، ثم أغلقوا باب التفكير والاجتهاد، وختموا على العقل المسلم؟.

نتلمس جناية كبرى أتى بها هؤلاء حين نقرأ ما تركوا لنا بهذا الخصوص، ولنتابع...

في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» للجُزيري نجد في فصل كتاب الطهارة - المبحث الثاني - حكم الوضوء وما يتعلق به من مس المصحف ونحوه.... *(فالوضوء فرض لازم لأداء هذه الأعمال، فلا يحل لغير المتوضئ أن يفعلها، ومثلها مس المصحف، **فإنّه يجب (؟) له الوضوء، سواء أراد أن يمسّه كلّه أو بعضَه، ولو آية واحدة (؟)، إلاّ** بشروط مفصّلة في المذاهب)(؟).*

فما هي هذه الشروط؟.... يورد:

* **المالكيّة** قالوا: *يشترط لحل حمل المصحف، أو بعضه بدون وضوء، شروط:*

أحدها: أن يكون مكتوباً بلغة غير عربية، أمّا المكتوب بالعربية فلا يحلّ مسّه على أي حال، ولو كان مكتوباً بالكوفي أو المغربي، أو نحوهما.

ثانيها: أن يكون منقوشاً على درهم أو دينار أو نحوهما، دفعاً للمشقة والحرج (؟).

ثالثها: أن يُتّخذ المصحف كلّه، أو بعضه حرزاً، بشرطين، أن يكون حامله مسلماً، وأن يكون المصحف مستوراً بساتر يمنع وصول الأقذار إليه.

رابعها: أن يكون حامله معلّماً أو متعلماً، فيجوز لهما مسُّه بدون وضوء، ولا فرق في ذلك بين المكلّف وغيره، حتى ولو كانت امرأة حائضاً، وفيما عدا ذلك فلا يجوز حمله على أي حال، فلا يحلّ لغير المتوضئ أن يحمله بغلاف أو علاّقة، كما لا يحلّ له أن يحمل ما وضع عليه المصحف من صندوق، أو وسادة أو كرسي، وإذا كان موضوعاً في أمتعة جاز حمله تبعاً للأمتعة، فلو قصد حمله وحده، دون الأمتعة فإنّه لا يحلّ، أمّا قراءة القرآن بدون مصحف فإنّها جائزة لغير المتوضئ، ولكن الأفضل له أن يتوضأ.

* الحنابلة قالوا: يشترط لحمل المصحف، أو مسّه بدون وضوء، أن يكون في غلاف منفصل عنه، فإن كان في غلاف ملصق به، كأن يكون في كيس أو ملفوفاً في منديل أو ورق، أو يكون موضوعاً في صندوق أو يكون في أمتعة المنزل التي يراد نقلها، سواء كان المصحف مقصوداً باللمس أو لا، فإنّه في هذه الأحوال يجوز مسه أو

حمله، وكذا يحل اتخاذ المصحف حرزاً، بشرط أن يجعله في شيء يستره من خرقة ظاهرة ونحوها، ثم إنّ الوضوء شرط لجواز حمل المصحف، سواء كان حامله مكلفاً أو غير مكلّف، إلاّ أن الصبي الذي لم يكلّف لا يجب الوضوء عليه، بل يجب على وليّه أن يأمره بالوضوء عندما يريد الصبي حمل المصحف.

* الحنفيّة قالوا: يشترط لجواز مس المصحف، كلّه أو بعضه، أو كتابته (؟)، شروط:

أحدها: حالة الضرورة، كما إذا خاف على المصحف من الغرق، أو الحرق، فيجوز له في هذه الحالة أن يمسّه لإنقاذه.

ثانيها: أن يكون المصحف في غلاف منفصل عنه، كأن يكون موضوعاً في كيس أو جلد أو ورقة، أو ملفوفاً في منديل أو نحو ذلك، فإنّه في هذه الحالة يجوز مسّه أو حمله، أمّا جلده المتصل به، وكل ما يدخل في بيعه، بدون نص عليه عند البيع فإنّه لا يحلّ مسه، ولو كان منفصلاً عنه.

ثالثها: أن يمسّه غير بالغ، ليتعلّم منه، دفعاً للحرج والمشقّة، أمّا البالغ والحائض سواء كان معلّماً أو متعلّماً فإنّه لا يجوز لهما مسّه.

رابعها: أن يكون مسلماً، فلا يحل لغير المسلم أن يمكّن غيره من مسّه إذا قدر، وقال محمد: يجوز لغير المسلم أن يمسّه إذا اغتسل، أمّا تحفيظ غير المسلم القرآن فإنّه جائز، فإذا تخلّفت هذه الشروط، فإنّه لا يحل لغير الطاهر المتوضئ أن يمس المصحف بيده، أو بأي عضو من أعضاء جسده، أمّا تلاوة القرآن بدون مصحف، فإنّها تجوز

لغير المتوضئ، وتحرم على الجنب والحائض، ولكن يُستحب لغير المتوضئ أن يتوضأ إذا أراد قراءة القرآن، هذا، ويكره مس التفسير بغير وضوء، أمّا غيره من كتب الفقه والحديث ونحوها، فإنّه يجوز بدون وضوء من باب الرخصة.

* الشافعية قالوا: يجوز مس المصحف وحمله، كلاّ أو بعضاً، بشروط:

أحدها: أن يحمله حرزاً.

ثانيها: أن يكون مكتوباً على درهم أو دينار.

ثالثها: أن يكون بعض القرآن مكتوباً في كتب العلم، للاستشهاد به، ولا فرق في ذلك أن تكون الآيات المكتوبة قليلة أو كثيرة، أمّا كتب التفسير فإنّه يجوز مسّها بغير وضوء بشرط أن يكون التفسير أكثر من القرآن، فإن كان القرآن أكثر فإنّه لا يحل مسّها.

رابعها: أن تكون الآيات القرآنية مكتوبة على الثياب، كالثياب التي تطرّز بها كسوة الكعبة ونحوها.

خامسها: أن يمسّه ليتعلم فيه، فيجوز لوليه أن يمكنه من مسّه وحمله للتعلّم، ولو كان حافظاً له عن ظهر غيب. فإن تخلّف شرط من هذه الشروط، فإنّه يحرّم مس القرآن، ولو آية واحدة، ولو بحائل منفصل عن المصحف، من جلد وغيره، فلو وُضع المصحف في صندوق صغير كالصندوق الذي توضع فيه أجزاء القرآن - الربعة - أو وضع على كرسي صغير، فإنّه لا يحل مس ذلك الصندوق أو ذلك الكرسي (؟) ما دام المصحف موضوعاً فوقهما، أمّا إذا وضع في

صندوق كبير أو في كيس كبير فإنّه لا يحرم مس ذلك الصندوق أو الكيس، إلاّ الجزء المحاذي للمصحف منهما، وإذا انفصل جلد المصحف منه ولم يبق فيه شيء من المصحف فإنّه يُحرّم مسّه إلاّ إذا جُعل جلداً لكتاب آخر غير القرآن، أمّا ما دام منسوباً إلى المصحف المنزوع منه فإنّه لا يحل مسّه، وكذلك يحرّم مس ما كتب فيه القرآن كاللوح، فلا يجوز للمحدِث أن يمس أي جزء منه، حتى لو محيت الكتابة (؟)، على أنّه يجوز للمكلّف أن يكتب القرآن وهو محدِث في لوح أو نحوه بشرط أن لا يمسّه.

هذا، وإذا كان المصحف موضوعاً في أمتعة المنزل، من صندوق أو ملابس أو نحو ذلك، فإنّه لا يحل حمل هذه الأمتعة بدون وضوء، إلاّ إذا كانت هي المقصودة بالحمل وحدها، فإذا قُصد حمل المصحف معها أو قُصد حمله وحده، حرّم ذلك بدون وضوء.

انتهى الاقتباس من المذاهب، أوردناه مفصّلاً لتبيان حجم الجناية على الله ودينه.

يحلّ ويحرّم، ويجوز ولا يجوز. . . من أباح لهم ذلك؟ أليست المحرمات محددة من الباري، أم هم موكّلون منه عزّ وجلّ بالتحريم والتحليل، أي بما لم يمنحه الله للنبي؟.

تخريف وتضليل وضلال، واتفاق على فهم مغلوط للقرآن، مع بعض الاختلاف على التفاصيل التافهة، واستخفاف بالعقل الذي كرَّم الله به عباده، ممَّن يعَدونَ أئمة وفقهاء وتابعين ومؤسسين لمذاهب، أو ممّن نسب ذلك إليهم من أتباع مدارسهم، فكم هو حجم الكارثة كبير،

وأيّة بلوى ابتلونا بها، وأما كانوا ليختلفوا فيما يفيد المسلمين ويحترم عقولهم... جزاؤهم على الله الذي يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾[1].

ويقول: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[2].

صدق الله العظيم

---

(1) سورة الحج، الآيتان: 3/ 4.
(2) سورة الزخرف، الآية: 37.

الإضاءة التاسعة

ملامسة النساء...
هل تنقض الوضوء؟

(الفقه الغثاء. . . . . في ملامسة النساء)

نموذج مخجل ثان



قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

لامستم النساء: جاء تفسيرها في «تفسير الجلالين» وفي «أيسر التفاسير» على أنّه *الجس أو اللمس باليد، على ما قاله ابن عمر والشافعي، وألحقا به المس بباقي البشرة.*

وهو الجماع على رأي ابن عباس.

(1) سورة النساء، الآية: 43.

(2) سورة المائدة، الآية: 6.

أيُّ الرأيين أصح؟ والأمر مهم جداً لارتباطه بحياة ملايين المسلمين ، سنّة وشيعة، وسلوكهم اليومي منذ ألف وأربعمائة سنة حتى يرث الله الأرض وما عليها . . . . .

هل هو الأول، بمعنى أن مجرد لمس المرأة ولو بطرف الإصبع ينقض الوضوء، ويُحتاج معه إلى إعادة الوضوء لتصح الصلاة، كما يظن كثير من الجاهلين والجاهلات على امتداد العالم الإسلامي؟ .

(الأخطر أنّ التخلف والجهل ذهبا بالأمر أبعد من الوضوء بكثير، فجعلا من مصافحة المرأة للرجل حراماً، وبتنا نرى حتى رؤساء وزعماء مسلمين - سنّة وشيعة - يمتنعون عن مصافحة ضيوفهم من النساء المسلمات وغير المسلمات، في فضيحةٍ مدوّيةٍ أمام شاشات التلفزة) . . .

وهل يتساوى في هذه الحالة لمس المرأة مع إتيان الغائط، مع ما في ذلك من امتهان لمكانة المرأة، كما يحاجُّ الكثير من أعداء الإسلام، في حين يصرّ المسلمون أن دينهم أكرمها؟ .

أم هو الثاني، أي حالة الجماع والمضاجعة التي تقتضي الغسل، وقد رحم الله عباده فأباح لهم التيمم حتّى في هذه الحالة إن لم يجدوا ماءً؟ وهو ما يؤكده حديث ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم، (إن صحَّ)، عن عمران بن الحصين الخزاعي، وفيه أن رجلاً تخلّف عن الصلاة، وهم على سفر، فسأله النبي : «ما منعك يا فلان أن تصلّي مع القوم، قال: أصابتني جنابة ولا ماء، قال: عليك بالصعيد أي التيمم، فإنّه يكفيك» .

إذا رجعنا إلى معجم «مختار الصحاح»، نجد أنَّه لا يخبرنا شيئاً عن معنى (لامَسَ)، وهي لا ترد في باب ل ا م، وإنَّما نجد (لَمَسَ) - *اللمس هو المس باليد، وقد (لَمَسَهُ) من باب ضَرَبَ وَنَصَرَ، و(الالتماس) الطلب، و(التلَمُّس) التطلُّب مرة بعد أخرى، و(الملامسة) هو أن يقول: إذا لَمَستَ المَبيعَ فقد وَجَبَ البيع بيننا بكذا.*

ونجد في باب الميم، م س س *(مَسَّ) الشيء يَمَسَهُ (مَسَّاً) وبابه فَهِمَ وهذه هي اللغة الفصيحة، وفيه لغة أخرى من باب رَدَّ، وربما قالوا (مِستُ) الشيء. . و(المسيس) المَس. . و(المماسّة) كناية عن المباضعة أي المضاجعة، وكذا (التماس)، قال الله تعالى: ﴿مِن قَبلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ .*

أمّا «المعجم الوسيط» الذي أصدره مجمع اللغة العربية، فيورد في طبعته الرابعة، *(لَمَسَ - لَمساً: مسّه بيده، فهو لامس، والمرأة: باشرها)، ويوضّح أكثر (لامسه: ماسّه، **والمرأة باشرها)، أي** ضاجعها. .*

فالمعنى لغةً إذاً ينحصر بين معنيين (لَمَسَ باليد، وضاجَعَ المرأة)، فأيٌّ من هذين المعنيين أراد الله تعالى في السورتين السابقتين؟.

ينير لنا الله المعنى، حين يخاطب السيّدة مريم على لسان جبريل عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾[1].

---

(1) سورة مريم، الآيتان: 19/ 20.

والمعنى واضح أن المس هنا عنى المضاجعة والمباشرة .

ثم يؤكّد المعنى ذاته في سورة المجادلة/ مدنية التي نزلت بعد سورتي مريم والنساء وقبل سورة المائدة في حديثه عن المرأة (خولة بنت ثعلبة) التي جاءت تجادل النبي وتشتكي زوجها (أوس بن الصامت) الذي قال لها (أنتِ عليَّ كَظهرِ أُمّي) وامتنع عن معاشرتها معاشرة الأزواج، فأجابها النبي بأنّها حَرُمَت عليهِ، على ما هو معهود عندهم (أي في الجاهلية، وفي الإسلام قبل نزول النص) من أن الظهار موجبه فُرقةٌ مؤَبدة[1] .

يقول تعالى مخاطباً الرسول:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا . . . ﴿٤﴾﴾[2] .

وهنا يفسّر «تفسير الجلالين» يتماسا بالوطء أي المضاجعة، ص 725.

أكثر من ذلك، يرد المعنى بوضوح أكبر، لا جدال فيه، في قوله

---

(1) تفسير الجلالين ص 724.

(2) سورة المجادلة، الآيات: 1/ 4.

تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾[1] . . . . والعدّة هي الفترة التي تقضيها المرأة دون زواج بعد طلاقها، لاستبراء رحمها إن كان قد مسّها مطلّقها، فهل يمكن هنا أن يخطئ عاقل في معنى المسّ؟. . . .

إذن، فقد حسم الله تعالى، حين يتعلق الأمر بالمرأة، أن الملامسة التي توجب الكفّارة في حالة المظاهرة، وتوجب الاغتسال في الأحوال العاديّة، والتيمم في حال نقص الماء، مقصودٌ بها المضاجعة، وليس اللمس باليد أو بباقي البشرة.

وهذا هو المعنى الذي ذهب إليه ابن عباس، وهو ما يتفق مع العقل ومنطق الأمور، وينفي الحط من قيمة المرأة بمساواة لمسها بإتيان الغائط، ويؤكد أن الله عزّ وجلّ يريد بعباده اليسر لا العسر، وهو العالم بحاجة الرجل إلى لمس زوجته بيده تكراراً في البيت، وغير زوجته حاجةً أو اضطراراً خارج البيت في إطار المعاملات اليومية الكثيرة، كالبيع والشراء، ووسائل المواصلات والشوارع المزدحمة، والطواف حول الكعبة وغيرها، لا سيّما والإسلام جاء شاملاً لكل المجتمعات وكل العصور.

ونستذكر هنا قولاً اتفق على إخراجه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه، عن ابن عمر قال: *كان الرجال والنساء يتوضأون في زمان رسول الله جميعاً، أي معاً* . . . . والدلالة واضحة، وهي تكذّب فقهاء اللمس وفقهاء حجاب المرأة ونقابها. . . .

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 49.

ولكن، كيف فهم فقهاؤنا، وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة شيوخ المذهب السنّي، هذا الأمر، وكيف خاضوا فيه، وما الذي تركوه لمئات الملايين من أتباع مذاهبهم منذ أكثر من ألف عام؟

في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» لعبد الرحمن الجُزيري، فصل كتاب الطهارة - مبحث نواقض الوضوء - القسم الثاني، صفحة 51، ورد ما يلي:

القسم الثاني: من النواقض بغير الخارج (من أحد السبيلين، الدبر والقبل) لمس مَن يُشتَهى، سواء كان امرأة أو غلاماً (؟)، وقد اصطلح الفقهاء على أنَّ اللمس يكون تارة باليد، وتارة يكون بغيرها من أجزاء البدن، أمّا المس فإنّه ما كان باليد خاصّةً، ولكل منهما أحكام، فأمّا لمس مَن يُشتهى فإنّه ينقض الوضوء بشروط مفصّلة في المذاهب.

أي إنَّ فقهاءنا لم يفهموا، أو هم لم يتنبّهوا إلى المعنى الذي أراده الله تعالى، وبيّنه لهم ولنا في سورتي مريم والمجادلة، وهم أهملوا المعاني المتعددة التي عرفها العرب وهم سادة الكلام، كما أسقطوا رحمة الله بعباده، وما يريد بهم من اليسر لا العسر.

وجاء تابعوهم - بكلّ جهل وعمى - فتمسّكوا بهذا الفهم الضّال وعملوا به، مؤكّدين قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾[1].

أكثر من ذلك، زادوا على لمس المرأة كناقض للوضوء، لمس

(1) سورة الصافات، الآيتان: 69/ 70.

الغلام، ومَن يُشتهى، وكأنّ الله تعالى سَها (حاشا لله) عن ذكر الغلام، فقاموا باستدراك النقص في القرآن الكريم، ناسين قول الله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(1)، وواضعين المسلم في خانة ذوي الرغبات الحيوانية والشاذة، وغافلين عن تهذيب الدّين للبشر.

دعونا نستعرض ما فصّل لنا كلٌّ مذهب من مذاهب الأئمة الأربعة في هذا الخصوص، وعذراً للإطالة فهي منهم لا منّا، ونقتبس:

1 - الشافعية والحنابلة اصطلحوا على خلط أحكام المس بأحكام اللمس، بخلاف المالكية والحنفية فقد ذكروا حكم اللمس وحده، وحكم المس وحده، وخصّوا المس بما كان باليد، والأمر في ذلك سهل.

2 - الشافعية قالوا: إنّ لمس الأجنبية - ويسمى مسّاً - ينقض الوضوء مطلقاً، ولو بدون لذة، ولو كان الرجل هرماً والمرأة عجوزاً شوهاء، كان اللامس شيخاً أو شاباً، وقد يُقال: إنّ الشأن في المرأة العجوز الشوهاء عدم التلذذ بلمسها، فأجابوا بأنّ المرأة ما دامت على قيد الحياة لا تعدم من يتلذذ بها (؟)، وإنّما ينقض اللمس بشرط عدم الحائل بين بشرة - جلد - اللامس والملموس، ويكفي الحائل الرقيق عندهم، ولو كان الحائل من الوسخ المتراكم من الغبار لا من العرق، فلا ينقض لمس رجل لرجل آخر (؟)، ولو كان الملموس أمرد جميلاً، ولكن يُسَن منه الوضوء، ولا ينقض لمس أنثى لمثلها، ولا خنثى لخنثى

---

(1) سورة الزمر، الآية: 28.

أو لرجل أو لامرأة، ولا ينقض إلاّ إذا بلغ اللامس والملموس حد الشهوة عند أرباب الطباع السليمة(؟)، واستثنوا من بدن المرأة شعرها وسنّها وظفرها (؟)، فإنّ لمسها لا ينقض الوضوء ولو تلذذ به، لأنّ من شأن لمسها عدم التلذذ، وقد يقال إنّ السن في الفم، والناس يتغزلون بالأسنان ويتلذذون بها أكثر من سائر أجزاء البدن، فكيف يكون الشأن في لمسها عدم اللذة؟ ولكن الشافعية يقولون: إنّه لو صرف النظر عن لمس الفم، ولمس ما يحيط بالأسنان، كان السن مجرد عظم لا يتلذذ به، وهذا هو المعنى أنّ الشأن عدم التلذذ، وينتقض الوضوء بلمس الميّت، ولا ينتقض بلمس المحرَم، وهي من حرم نكاحها على التأبيد بسبب نسب أو رضاع أو مصاهرة، أمّا التي لا يحرم نكاحها على التأبيد، كأخت الزوجة أو عمتها أو خالتها، فإنّ لمس إحداهن ينقض الوضوء، وكذا ينتقض بلمس أم الموطوءة بشبهة وبنتها، فإنّ زواجهما وإن كان محرماً على التأبيد، لكن التحريم لم يكن بنسب ولا رضاع ولا مصاهرة، وقد عرفت أنّ كلّ ذلك يسمى مسّاً كما يسمى لمساً. (هكذا).

الحنابلة قالوا: ينتقض الوضوء بلمس المرأة بشهوة بلا حائل، لا فرق بين كونها أجنبية أو محرماً، ولا بين كونها حيّة أو ميتة، شابة أو عجوزاً، كبيرة أو صغيرة (؟)، تُشتهى عادةً، ومثل الرجل في ذلك المرأة، بحيث لو لمست رجلاً انتقض وضوؤها بالشروط المذكورة، ولا ينقض اللمس إلاّ إذا كان لجزء من أجزاء البدن، غير الشعر والسن والظفر، فإذا لمس هذه الأجزاء الثلاثة لا ينتقض الوضوء، أمّا

الملموس فإنّه لا ينتقض وضوؤه، ولو وجد لذة، ولا ينقض لمس رجل لرجل، ولو كان أمرد جميلاً، ولا لمس امرأة لامرأة، ولا خنثى لخنثى، ولو وجد اللامس لذة.

المالكية قالوا: إذا لمس المتوضئ غيره بيده أو بجزء من بدنه فإن وضوءه ينتقض، بشروط بعضها في اللامس وبعضها في الملموس، فيُشترط في اللامس أن يكون بالغاً، وأن يقصد اللذة، أو يجدها بدون قصد، فمتى قصد اللذة انتقض وضوؤه، ولو لم يلتذ باللمس، وأن يكون الملموس عارياً أو مستوراً بستر خفيف، فإن كان الساتر كثيفاً فلا ينقض الوضوء، إلاّ إذا كان اللمس بالقبض على عضو وقصدَ اللذة أو وجدها، وأن يكون الملموس ممن يشتهى عادةً، فلا ينتقض الوضوء بلمس صغيرة لا تُشتهى، كبنت خمس سنين، ولا بلمس عجوز انتهى أرب الرجال منها، لأن النفوس تنفر عنها، ومن أجزاء البدن الشعر، فينتقض الوضوء بلمس شعر المرأة إذا قصد اللذة أو وجدها، أمّا إذا لمست المرأة بشعرها يداً فإنّ وضوءها لا ينتقض، وكذا لا ينتقض بلمس شعر رجل لشعر امرأة، أو بلمس ظفر بظفر، لفقد الإحساس فيهما عادةً، وقد عرفت أن المدار في اللمس على قصد اللذة أو وجدانها، لا فرق بين أن يكون الملموس امرأة أجنبية، أو زوجة، أو شاباً أمرد (؟)، أو شاباً له لحية جديدة (؟)، **يلتذ به عادة** (؟؟؟)، أما إذا كان الملموس محرماً، كأخت أو بنتها أو عمة أو خالة، وكان اللامس شهوياً (؟) فقصد اللذة ولكنه لم يجدها، فإنّ وضوءه لا ينتقض بمجرد قصد اللذة، بخلاف ما إذا كانت أجنبية، ومن

اللمس القبلة على الفم، وتنقض الوضوء مطلقاً، ولو لم يقصد اللذة أو يجدها أو كانت القبلة بإكراه، ولا تنتقض القبلة إذا كانت لوداع أو رحمة، بحيث يكون الغرض منها ذلك في نفسه، بدون أن يجد لذة، فإن وجد لذة فإنّها تنقض.

هذا كلّه بالنسبة للامس، أمّا الملموس فإن كان بالغاً ووجد اللذة انتقض وضوؤه، فإن قصد اللذة فإنّه يصير لامساً يجري عليه حكمه السابق، هذا ولا ينتقض الوضوء بفكر أو نظر من غير لمس، ولو قصد اللذة أو وجدها أو حصل له إنعاظ؟، فإن أمذى بسبب الفكر أو النظر انتقض وضوؤه بالمذي، وإن أمنى وجب عليه الغسل بخروج المني.

الحنفية قالوا: إن اللمس لا ينقض بأي جزء من أجزاء البدن، ولو كان اللامس والملموس عاريين، فلو كان الرجل متوضئاً ونام مع زوجته في فراش واحد، وهما عاريان متلاصقان، فإنّ وضوءهما لا ينتقض إلاّ في حالتين:

- الأولى أن يخرج منهما شيء من مذي ونحوه.

- الثانية أن يضع فرجه على فرجها، وذلك ينقض وضوء الرجل بشرطين، الأول أن ينتصب الرجل، والثاني أن لا يوجد حائل يمنع حرارة البدن، أمّا وضوء المرأة فإنّه ينتقض بمجرد التلاصق متى كان الرجل منتصباً، فإذا فرض ونامت امرأة مع امرأة أخرى وتلاصقتا بهذه الكيفية (؟) فإن وضوءهما ينتقض بمجرد تلاصق الفرجين ببعضهما وهما عاريتان، وبقيت صورة أخرى، وهي أن يتلاصق رجل مع رجل آخر وهما عاريان، كما قد يقع في الحمام في حالة الزحام، وحكم

هذه الحالة أنّه لا ينتقض وضوؤهما إلاّ إذا كان اللامس منتصباً.

وبذلك نعلم أنّ الحنفية اختلفوا مع سائر الأئمة في هذا الحكم، أما المالكية فقد رتبّوا النقض على قصد اللذة أو وجدانها، فخالفوا الشافعية والحنابلة في مس العجوز التي لا تُشتهى، فقالوا إنّه لا ينقض، والشافعية والحنابلة قالوا إنّه ينقض، وكذا خالفوهم في مس الأمرد الجميل، فقال المالكية إنّه ينقض، وقال الشافعية والحنابلة إنّه لا ينقض، ووافقوهم على أن اللمس لا ينقض إلاّ إذا كان الملموس عارياً، أو مستوراً بساتر خفيف. . . . الخ.

انتهى الاقتباس الطويل من كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة».

أمّا كتاب «فقه السنّة»[1]، باب الطهارة، فصل نواقض الوضوء، فإنّه يعدّد هذه النواقض بأربعة، دون أن نعرف إلى أي مذهب استند، وهي:

1 - كل ما خرج من السبيلين.

2 - النوم المستغرق.

3 - زوال العقل

4 - مس الفرج بدون حائل(؟)

دون أن يأتي على ذكر ما أورده الأئمة الأربعة حول لمس المرأة والغلام الأمرد الجميل، وأكثر من ذلك يشير في باب «ما لا ينقض الوضوء» فيقول: *أحببنا أن نشير إلى ما ظُنَّ أنّه ناقض للوضوء،* *ولیس*

(1) السيّد سابق - فقه السنّة.

بناقض، لعدم ورود دليل صحيح يمكن أن يعوّل عليه في ذلك، ويبدأ بـ«المس المرأة بدون حائل» فيذكر عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله قبّلها وهو صائم، وقال «إنّ القبلة لا تنقض الوضوء ولا تفطر الصائم»، وعنها: «أنّ النبي قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ» وعنها أيضاً قالت: «كنت أنام بين يدي النبي ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي» . . . .

هل فاتت هذه الأحاديث على الفقهاء والأئمة، أم أهملوها، أم اعتبروها منحولة على لسان عائشة كونها لم تتوافق مع آرائهم واجتهاداتهم؟

ولماذا أغفل الأئمة رحمة الله بعباده، فضيقوا الخناق عليهم؟

وكيف نقبل منهم أحكاماً لم يجيدوا استخلاصها من كلام الله؟. . . فأساءوا عن جهل أو قصد.

وإلام استندوا حين أضافوا لمس الغلام الأمرد الجميل؟ هل لنقص في القرآن أرادوا استدراكه؟ وأيّة صورة كانت في خواطرهم للمسلمين أفراداً ومجتمعات؟ ولماذا خاطبوهم بهذا الامتهان لعقولهم وهذا الامتهان لطباعهم وأخلاقهم؟ وهل في خلافهم رحمة للأمة كما يشاع؟؟؟. .

نقول إنّهم ربّما تأثّروا بفسوق عصرهم، الذي درج فيه نكاح الغلمان وتفضيلهم على النساء، سواء من قبل الخلفاء والأمراء وساكني القصور، أو لدى العامّة، وهو بات في حينه سلوكاً شائعاً، وحتى مدعاة للتفاخر، وتمتلئ الروايات والسيَر التي تمّ التعمية عليها

قصداً، بشواهد وحكايات يشيب لها الرأس، نجدها في شعر أبي النوّاس والعشرات غيره، من شعراء ذاك العصر، يقول أبو النوّاس، في مثال من آلاف الأمثلة:

وعاذلةٍ تلومُ على اصطفائي غلاماً واضحاً مثلَ المهاةِ
وقالت قد حُرمتَ ولم تُوفَّق لطيب هوى وصالِ الغانياتِ
فقلتُ لها جَهِلتِ فليس مثلي يخادع نفسَه بالترّهاتِ
أأختار البحارَ على البراري وحيتاناً على ظبي الفلاةِ؟
دعيني لا تلوميني فإنّي على ما تكرهين إلى المماتِ
بذا أوصى كتابُ الله فينا بتفضيل البنين على البناتِ[1]

لكنّنا نقول، إنّ فسوقَ عصرٍ بعينه، وفجورَ ناسه، لا يبرّران ابتكارَ شرعٍ جديد، والإتيان بما لم يقل الله في كتابه المحكم، والقعود مقام بدلاء الله أو وكلائه، حتى لو افترضوا من عندهم أنّ المسلمين كلّهم كذلك، وسيظلّون كذلك، حتى يوم القيامة. .

ألسنا أمام جناية كبيرة ارتكبها فقهاؤنا بحقّ ديننا السمح وشرعنا، وهي جناية لم تقتصر على هذا الأمر، بقدر ما توسّعت إلى أمور ومناحٍ كثيرة طبعت حياتنا وقناعاتنا وسلوكيّاتنا، جزاؤهم على الله. . .

يزوّدنا هنا، الإمام الشيخ محمد عبده بإضاءة حول جناية هؤلاء الفقهاء على شرع الله، في مثال آخر يتجاوز اللمس والمس إلى أطهر العلاقات البشريّة، يقول:

(1) أبو نواس - النصوص المحرّمة - تحقيق جمال جمعة.

«رأيت في كتب الفقهاء أنّهم يعرّفون الزواج بأنّه (عقد يملك به الرجل بضع المرأة) أي فرجها، (وهو تعريف يليق ببيوت الدعارة، لا بيوت المسلمين)، وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير إلى أن بين الزوج والزوجة شيئاً آخر غير التمتّع بقضاء الشهوة الجسدانية، وكلّها خالية من الإشارة إلى الواجبات الأدبيّة التي هي أعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كلّ منهما من الآخر، وقد رأيت في القرآن الشريف كلاماً ينطبق على الزواج، ويصحّ أن يكون تعريفاً له، ولا أعلم أنّ شريعة من شرائع الأمم التي وصلت إلى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، والذي يقارن بين التعريف الأول الذي فاض عن علم «الفقهاء» علينا، وبين التعريف الثاني الذي نزل من عند الله، يرى بنفسه إلى أي درجة وصل انحطاط هذا» الفقه . .

آخر الكلام، ربّما نترحم على السابقين من هؤلاء الفقهاء، متى رأينا اللاحقين أكثرَ جهلاً بالدين وتجنّياً عليه، يستنبطون بعبقريّات فذّة فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان ولا كتاب، وما سبقهم إليها نبيّ ولا فقيه ،إذ طالعتنا جريدة الشرق الأوسط في أحد أعداد مارس/آذار 2002 بفتوى خطيرة للشيخ عطية صقر، قال فيها - لا فضّ فوه - «إنّ مصافحة الرجل للمرأة زنى»، مستنداً - ربّما - إلى ترهات سلفه الطبري الذي أورد حديثاً عن معقل بن يسار منسوباً إلى النبي أنّه قال

(1) سورة الروم، الآية: 21.

«لأن يُطعن في رأس الرجل بمخيط من حديد خيرٌ من أن يمسّ امرأة لا تحلّ له» حاشا رسول الله.

تصوّروا.... المصافحة تساوي الزنى... ومثلها فحص الطبيب أو إجراء عمليّة جراحيّة من قبل طبيب مختصّ لامرأة تقارب الموت... وهلمّ جرّاً... دون أن نعرف كيف صنّف هؤلاء نسيبة بنت كعب الأنصاريّة التي شاركت في غزوة أحد، وسقت المقاتلين وداوت الجرحى، ثم حملت ترساً ودافعت عن النبي، حين انفضّ الرجال من حوله، فقتلت اثنين من المشركين، ثم شاركت في الحديبية، وحنين، ومعركة اليمامة، وساهمت بنفسها في قتل مسيلمة الكذّاب... هل صنّفوها كزانية لكونها لامست الرجال، وعاركتهم، وقاتلتهم؟، أم نقول إنّها مجاهدة ذات فضل؟....

كما نقرأ نصّاً لفتوى تقرر *(أنّ من أخطر المفاسد التي ابتُليت بها أمتنا العظيمة ما يسمّى بالكرسي.. وما يشبهه من الكنبات وخلافها، أولاً لأنّ السلف الصالح كانوا يجلسون على الأرض ولم يستخدموا الكرسي، ولو كان فيها خير لفعله رسول الله، وثانياً أنّ هذه الكراسي صناعة غربيّة، وفي استخدامها ما يوحي بالإعجاب بصنّاعها وهم الغرب، وهذا والعياذ بالله يهدم ركناً من الإسلام وهو الولاء والبراء، وثالثاً أن جلوس المرأة على الكرسي مدعاة للفتنة، كما إنّه يؤدي إلى الكثير من الرذائل، إنّ الجلوس على الكرسي رذيلة* ***وزنا لا شبهة فيه،*** *رابعاً إنّ الجلوس على الأرض يذكّر المسلم بخالق الأرض...)*، دون أن يفسّروا لنا علاقة الكرسي بالزنا الذي ضيّق الإسلام شروطه

واشترط أربعة شهود ودخول الخائط في المخيط، وهل يشمل ذلك كراسي السيارة وكراسي الطائرة وكرسي طبيب الأسنان وغيرها، ناهيك عن الاختراعات الغربية الأخرى كالهاتف النقّال/ الموبايل، والتلفزيون، وكل الأجهزة الحديثة الأخرى التي يسّرت حياتنا، وكلّها صناعات الغرب، لا إبداعاتنا، والتي لم يحرّموها كيلا يحرموا أنفسهم من استخدامها، ربّما تحت ذريعة أن الضرورات تبيح المحظورات.. أليسوا يفصّلون الأمور على مقاسهم وهواهم؟...

لاحظوا تعبير «أمتنا العظيمة» في بداية الفتوى...

وإذا كان هؤلاء الفقهاء يعتبرون أن مصافحة المرأة للرجل هي زنا، وجلوسها على الكرسي أو الكنبة زنا لا شبهة فيه، فإنّ نظراءهم من شيوخ المسلمين في مناطق القبائل في الباكستان (الطرف الآخر من الأمّة العظيمة)، الذين يؤمنون بهاتين الفتويين، هم أنفسهم مَن أقنع تابعيهم بأنّ ترك سراويلهم لدى زوجاتهم، حين السفر للعمل فترات طويلة في الخارج، ييسر حمل زوجاتهم، في غيابهم، والرزق بأولاد، غيابيّاً، وعادة يحتفل العامل الباكستاني في بلد اغترابه، بمولود أو أكثر، رُزِقَهم خلال غيابه الطويل... (1)

وفتوى أخرى، للشيخ عبد الله النجدي في 36 صفحة *تحرّم كرة القدم، وتضع 15 شرطاً للعبها على الطريقة الإسلاميّة، منها منع وجود متفرّجين، ومنع ارتداء لباس اللعب، وضرورة عدم وجود حكم، واعتراف اللاعب بخطأه، وتشاور باقي اللاعبين في عقوبته،*

(1) صحيفة المصري اليوم - عدد 13/ 2/ 2008.

وتوبته، وأن لا يكون عدد اللاعبين أحد عشر لاعباً، ومنع استخدام التعابير المألوفة مثل كلمة هدف أو غول واستبدالها بعبارة دخول الكرة بين القائمتين والعارضة، إلى آخره من هذه الترهات...

وأخرى للشيخين عثمان الخميس وسعد الغامدي *بتحريم الانترنت على المرأة*، بسبب خبث طويّتها، *وأنّه لا يجوز لها فتحه إلاّ بحضور محرم مدرك لعهر المرأة ومكرها*..... تصوّروا هذا الإطلاق، كلّ امرأة عاهرة ماكرة.. أمهاتنا وأمهاتهم، زوجاتنا وزوجاتهم، بناتنا وبناتهم؟؟؟...

وفتوى للشيخ عبد الله بن جبرين *أباح فيها الجهاد ضد الشيعة وأوجب البصق في وجوههم*...

وفتوى للشيخ ابن تيميّة بتحريم *علم الكيمياء ووصفه بالسحر*.... (وعلم الكيمياء أساس لعلم الأدوية التي أنقذت البشريّة من الأمراض)...

وفتوى حديثة للشيخ محمد المنجّد، هاجم فيها الفئران، معتبراً أن الشريعة الإسلامية سمّت الفأر بالفويسقة، وأنّه يجب أن يُقتل في الحل والحرم، وأنه يضرم على أهل البيت النار، وأن الشيطان يسيّر الفأر، وأنّه من جنود إبليس، وتحذّر الفتوى الغريبة الأطفال من الإعجاب بشخصيّات الفئران الكرتونيّة أمثال ميكي ماوس، وجيري(؟)، متجاهلةً بكلّ عنت أن الفئران ساهمت في إنقاذ البشريّة من الأمراض حين كانت دائماً ضحيّة التجارب المخبرية، وأنّها أضحكت أطفال العالم لأجيال عديدة، وهم ذات الأطفال الذين يريد الشيخ تعكير حياتهم،

بما ترفضه أبسط العقول... ويبقى الإنجاز الأكبر للشيخ (المفتي) أنّه أضحك العالم على المسلمين، وجعلنا مسخرة لصحافة وتلفزيونات العالم ومواقعها الاليكترونيّة، بكل لغاتها، ورسّخ اتهامنا بالإرهاب، حتّى ضد الحيوانات المسكينة...

وفتوى للشيخ عبد العزيز بن باز، ومثلها للشيخ ابن عثيمين، تقرّر *(إنّ القول بدوران الكرة الأرضيّة قول باطل، والاعتقاد بصحّته مُخرجٌ عن الملّة (كفر)، لمنافاته ما ورد في القرآن الكريم من أنّ الأرض ثابتة لا تدور (؟)، قد ثبّتها الله بالجبال أوتاداً، قال تعالى «والجبال أوتاداً»، وقال «وإلى الأرض كيف سطحت»، وهي واضحة المعنى، فالأرض ليست كرويّة ولا تدور...)*، وهي الفتوى التي أكّدها الأزهر (الشريف) حين أعطى موافقته رقم 7043 لعام 2000 بإجازة كتاب «قصّة الخلق»، الذي روّجت له الأهرام (؟) على أنّه «كتاب القرن»، وهو اشتمل على فصول مثل «الأرض ثابتة لا تدور»، و«أكذوبة الجاذبيّة الأرضيّة»، و«نظريّات باطلة لأينشتاين ونيوتن وغاليليو وداروين».. تصوّروا أن يقال هذا الكلام في مطلع الألفيّة الثالثة، عصر الاكتشافات العلميّة المذهلة، الذي ينكره فقهاؤنا ويريدون لنا الإمعان في الجهل والتخلّف وراء أمم الأرض، ناسين أنَّ الله علّم الإنسان ما لم يعلم..

أمّا أحدث الفتاوى الطازجة (أكتوبر 2008)، فهي فتوى الشيخ صالح الفوزان عضو هيئة كبار العلماء في السعوديّة، التي اعتبر فيها «البوفيه المفتوح» حراماً وغير جائز شرعاً..... وهو من بيوع الغرر

المنهي عنها في الشريعة، لأنك تأكل ما تريد دون تحديد للكميّة مقابل مبلغ محدّد من المال، وقد ردّ عليه الشيخان محمد الطبطبائي ومحمد العنزي من الكويت، بما ينقض فتواه، ويحلل ويجيز «البوفيه المفتوح»، مستندين إلى جواز أجرة الحمّام، التي أباحها العلماء قديماً، رغم علمهم باختلاف حال الداخلين للحمّامات من حيث فترة المكوث فيه واستعمال الماء الذي يختلف من شخص لآخر..

تمعنّوا، يرحمكم الله، علام تختلف هذه الأمّة العظيمة في القرن الواحد والعشرين....

يبقى أنّ أقبح الفتاوى، وأخطرها مدلولاً، هي ما نشرته الصحافة السعودية في أواخر نيسان/ ابريل 2009، يقول الخبر: الرياض - د،ب،أ: أوقفت فتوى دينية مشروع إنارة مقابر في السعوديّة، وتسبّبت في التراجع عن تنفيذه، وأكّد المتحدث الرسمي لبلدية المويه شرقي الطائف في غرب المملكة لصحيفة عكاظ: أنّ البلدية سعت لإنارة المقبرة لتخفيف معاناة الأهالي عند دفن موتاهم ليلاً، وبدأت في تركيب أعمدة الإنارة، إلاّ أنّها تراجعت عن ذلك بعد أن وردت فتوى من أحد العلماء يؤكّد فيها عدم جواز إنارة المقابر، وأشار المتحدث إلى تعميم صدر من وزارة الشؤون البلدية والقروية يؤكّد منع إنارة المقابر....

أيّ إسفاف وفجور وضلال وتجنٍّ على الإسلام أكثر من هذا؟ ولنلاحظ أن الفتوى صدرت عن أحد العلماء لا عن المفتي الرسمي للمملكة، أي إنّ كلّ من هبّ ودبّ وادعى العلم بالدين بات صاحب

قول ملزم، يغيّر من قرارات وزارات الدولة ومؤسساتها، دون أن يجرؤ أحدٌ على مراجعة ضلاله وتجنّيه وتخريفه. . .

يقول الكاتب وليد الرجيب: *وسوق الفتاوى مليء بالفتاوى الغريبة حول تحريم ربطة العنق، والملابس الرياضيّة، وبعض ألعاب الأطفال، والكعب العالي، وغيرها من الفتاوى العجيبة، إنّ مثل هذه الفتاوى جعلت «سوق الفتاوى» أمراً مباحاً لكل من هبّ ودبّ، ولم تترك في حياة المسلم شيئاً حلالاً. . . .*

أمّا الكاتب جعفر رجب، فيقول: *«نبحث وسط عالمنا اللامعقول عمَّن يعيد للناس عقولها. . . فمَن يتصوّرون أنفسهم عقلاء الأمّة، ومخرجيها من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، يمارسون استخبالها واستهبالها واستحمارها، عبر الخطابات والنصائح الغريبة على العقل والوجدان. . يتعاملون مع الناس كأنّهم قطيع غنم تبحث عن كلأ، أو كأنّهم حمر تركض هائمة، تائهة، خائفة من افتراسها من قبل وحوش الغرب، أو أنّهم أمّة قاصرة بحاجة إلى ولي أمر يأخذ بيدها، بعيداً عن طريق التهلكة. . . لماذا يصرّ (رهباننا) على ممارسة دور رجل السياسة، والاقتصاد، والناقد السينمائي، والمهندس الفضائي، وعالم المايكروبيولوجي، والممثل المسرحي. . . فينتقد ويتحدّث في كل شيء، ويعرف تفسير كلّ شيء وأيّ شيء، من مبطلات الوضوء إلى حل أزمة النظام المصرفي العالمي؟. . . لماذا يصرّون على أنّهم وحدهم عقلاء الأمة؟ في مقابل بحر الجهلة الذين يتابعون برامجهم؟ ولماذا يحتكرون وكالة تفسير*

الدين دوناً عن الخلق؟... (فعاقل) يريد قتل الميكي ماوس في الحل والحرم، بالسيف والسم، ويعلن الحرب على الفأر جيري، تأييداً للقط توم... وأعقل منه يعلّم المشاهدين كيفيّة ضرب الزوجة وتربيتها، بطريقة علميّة... وآخر يقدّم درساً عملياً لكيفية الأكل باليمين، ولو كنت أعسر، فتضع يدك اليسرى تحت رجلك اليسرى، وتقطع اللحم أولاً، ثم تأكل باليمين فقط.. وآخر رفع أكمامه، وقد جمع حوله الشباب، ممسكاً بيده إبريق الحمّام، يعلّمهم كيفيّة غسل الموتى..

أليسوا جميعاً فقهاء الظلام وقاتلي نور الإسلام....

تقول الدكتورة آمنة نصير أستاذة العقيدة الإسلاميّة بجامعة الأزهر، في حديث نشر بتاريخ 29/ 9/ 2008: *«نحن نعاني خلال هذه الفترة من فوضى في كلّ شيء، وليس في الفتوى فقط، فهناك حالة عامّة من الترهل والتفلّت والتشرذم يعاني منها المجتمع العربي والإسلامي، وهذه الفوضى سببها أن الإنسان العربي عموماً والمصري خصوصاً، فهم الانفتاح والعولمة والدنيا المفتوحة سماءً أو أرضاً بأنّها فرصة لأي شخص لكي يفعل ما يريد من دون ضوابط، ما أدى إلى حدوث فوضى عارمة في جميع الجوانب، المسؤول عن ذلك هي المؤسسة الدينيّة، لأنّها، بلا شك، مؤسسة ضعيفة في هذه المرحلة، وبكل صدق وشجاعة أدبيّة، فإنّ هذه المؤسسة تعيش أسوأ فترات ضعفها، ولا يوجد أي نوع من الحزم أو الضوابط منها تجاه ما يحدث من تجاوزات في سوق الفتوى... كما أدى غياب المؤسسة الدينيّة إلى دخول شخصيّات غير مؤهّلة، وليس كل من تعلّم علماً أو درس درساً يستطيع*

أن يستوعب أسرار وضوابط النصوص، وهذا مفهوم خاطئ للحريّة أن تقول ما تشاء. . . . إنّ دخول الغرباء مجال الفتوى، وعدم وجود المظلّة القويّة التي تحوي الفكر الديني بشكل منضبط أدى إلى قيام البعض باستغلال الدين استغلالاً خاطئاً، وبالتالي نرى هذه الفوضى وهذا التفلّت».

صدقت الأستاذة، لكن ربّما فاتها أن جذور وأسس هذه الفوضى وهذا التفلّت تمتد عميقاً في تاريخ موروثنا، إلى منتصف القرن الهجري الأول، وربّما إلى عشيّة وفاة محمد بن عبد الله. . .

رحم الله هذه الأمة التي خَرَّبَ فقهاؤُها السابقون واللاحقون دينَها السمح، فباتت آخر الأمم. . . . .

الإضاءة العاشرة

لمسُ الذَكَر

(علاقة الإله بلمس الباه)

نموذج مخجل ثالث

الثقافة ليست إلاّ التعبير المصغّر للمجتمع بشكل عام....

عزيز إسماعيل



يبدو أن ثمّة فوبيا عانى منها فقهاؤنا السابقون، تصل إلى حدود العقدة النفسيّة التي احتاجت إلى علاج لم يتوافر لهم في حينه، وإذ توافر العلاج في عصرنا الحاضر، فإنَّ فقهاءنا المعاصرين لم يلجأوا إليه لأن المريض النفسي لا يعرف أو لا يعترف بمرضه..

هذه الفوبيا هي فوبيا اللمس، فقد ترك لنا السابقون ذخراً وفيراً من اجتهاداتهم حول هذا الأمر، وجاء اللاحقون فكرّسوها وبذلوا جهدهم لإقناعنا بها، وفرضها على سلوكيّاتنا...

وتبدو ثنائيّة اللمس - الوضوء موقعاً لإشكاليّة كبيرة، تحتل حيّزاً من معتقداتنا ومفاهيمنا....

لا يجوز لمس المصحف دون وضوء، وقد أشرنا إلى ما جاء به أئمتنا الكبار حوله....

لمس المرأة، أو الغلام الأمرد الجميل، ولو بطرف اليد، بقصد أو بغيره، ينقض الوضوء، وقد أشرنا للاجتهادات المخجلة حول هذا الموضوع، التي تملأ كتب فقهنا...

لمس الذكر ينقض الوضوء.. الجانب الثالث من مكونات فوبيا اللمس.... وقد اختلف فيه الأئمة اختلافاً بيّناً، فعمل به الشافعية والمالكية والحنبلية، ورفضته الحنفيّة..

بداية، ما هو الوضوء، أحد طرفي الإشكالية هنا؟...

النظافة والطهارة واجب الإنسان تجاه نفسه، وهي في الغالب غريزة فطريّة منذ أن رأى الماء لأول مرّة وتعرّف إلى فوائده، قبل أن توجبها كلُّ الأديان السماوية، وغير السماوية، وهي ليست ابتكاراً إسلامياً صرفاً....

والوضوء جانب من الطهارة جاء به الإسلام، كطقس ملزم، ليؤكد أن الوقوف بين يدي الإله يتطلب طهارة الجسد والروح، وهو ما يمارسه كلّ أتباع الأديان الأخرى فيغتسلون قبل أداء طقوسهم وصلواتهم...

لكنّه في النتيجة عملية رمزية ككل الطقوس الأخرى، تجسّد احترام العبد لربّه، أكثر ممّا هي عملية تنظيف لبعض أجزاء الجسم دون بعضها، والدليل على ذلك:

1 - أباح الله استخدام تراب الأرض أي التيمّم، عند فقدان الماء، والتراب لا يفيد في تحقيق النظافة، والحكمة الإلهية كانت كبيرة في هذا المقام، فالغرض هو تأكيد الإحساس بالطهارة حين الوقوف بين يديه، ولو كان الوضوء عملية تنظيف فعلية لبعض أجزاء الجسد لما أباح الله التيمّم..

2 - الوضوء يشمل بعض أجزاء الجسد دون غيرها، وهذا دليل آخر على رمزية العملية، فغسل اليدين إلى المرفقين استبعد الطرف الأعلى من اليدين، وغسل القدمين إلى الكعب، أو مسحهما، استبعد الساقين والفخذين، ومجرّد إباحة المسح على الخفين كافٍ لاستنتاج الرمزية، وليس منطقياً أن نقول إن الوضوء انحصر بالأجزاء الظاهرة

من البدن، فالله عَزَّوَجَلَّ يرانا حين نقف بين يديه، ورؤيته ليست بالعين تلحظ الظاهر ويخفى عليها المستور. . .

3 - إذا أحدث أحدنا، أي أخرج من دبره ريحاً أو صوتاً، وجب عليه الوضوء قبل أداء الصلاة، (وهذه لم ترد في القرآن الذي حصر الأمر بإتيان الغائط)، ونسأل: لِمَ لم يُفرَض هنا شطف الدبر؟ أليس هو مصدر الإخراج؟، وما علاقة إخراج الريح أو الصوت من الدبر بمسح الرأس أو الأذنين أو كعب القدم؟ وهل إخراج الريح من الدبر يفعل فعل قنبلة غازيّة تنتشر إلى الأجزاء الظاهرة من البدن، ويصعب عليها النفاذ إلى الأجزاء المستورة؟. . . . ألسنا هنا أمام دليل آخر على رمزيّة الوضوء؟. . .

4 - إذا استحمّ أحدنا بالماء والصابون، وهو ما يعيض عن الوضوء، وأحدث حدثاً صغيراً، كأن يخرج ريحاً من دبره، وجب عليه الوضوء، أي غسل الوجه واليدين ومسح الرأس وغسل القدمين، وهي أجزاء نظيفة أصلاً كباقي البدن كلّه الخاضع تواً لاستحمام شامل. أليست إذن عملية الوضوء رمزية؟.

هذه العملية الرمزية، التي أرادها الله لخلق الإحساس لدى عبده بفعل الطهارة حين يقف بين يديه، تقديراً لجلاله وعظمته، حوّلها أئمتنا الصالحون إلى عملية معقّدة، وطقساً مربكاً يستلزم أداؤه التعمق في دراسة اجتهاداتهم المتضاربة حوله. .

يخصّص كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» لعبد الرحمن الجزيري 92 صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير (الصفحات 7 - 99)، لتفاصيل الطهارة والوضوء.

أمّا كتاب «فقه السنّة» للسيد سابق فيخصّص له 77 صفحة (الصفحات 21 - 98).

وتشمل التفاصيل التي توسّع فيها أئمتنا الأربعة ما لا يكتب عن العمليات الجراحيّة المعقّدة، ويحتاج معها المسلم إلى دراسة مستفيضة لإتقان وضوئه وتجنّب فساده، وهو ما لا يمكن تحقّقه لاختلاف الأئمة في كلِّ تفصيل من تفاصيله، فما يجعلك متوضّئاً على أحد المذاهب، يجعلك منقوض الوضوء على المذاهب الثلاثة الأخرى. . . .

وتقبّل الله لصلاتك سيكون مرهوناً بصلاحيّة اجتهاد مَن تتّبعه من الأئمّة، ألم نجعل من هؤلاء الأئمة وسطاءنا إلى الله، يحدّدون لنا شكل الطقوس ويمنحوننا تذاكر عبادته، في تكريس للرهبانيّة والكهنوت اللتين حرّمهما الإسلام. .

نعود إلى الذَكَر. . لماذا ينقض لمسُه الوضوء تبعاً لاجتهادات أئمتنا العظام؟

في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة»، المبحث الثامن في نواقض الوضوء، يستطرد المؤلف في ذكر هذه النواقض واستعراض اجتهادات الأئمة الأربعة حول كلِّ جزئيّة صغيرة منها، وهو يقسم نواقض الوضوء إلى أقسام، الأول منها: *ما خرج من أحد السبيلين، الذي ينقسم بدوره إلى قسمين، معتاد وغير معتاد، والثاني منها: ما قد يترتب عليه الخروج من أحد السبيلين، وهذا ينقسم بدوره إلى أربعة أقسام: الأول غيبة العقل، والثاني: لمس امرأة تُشتهى، ومثلها لمس الغلام الأمرد (؟)، والثالث: مسّ الذكر بدون حائل، والرابع: ما يخرج من غير القبل أو الدبر كالدم.*

وكيلا نستهلك صفحات الكتاب في عرض الاجتهادات العبقرية المفصّلة لكل جزئية، نكتفي بإيراد ما تعلّق بلمس الذكَر ونقضه للوضوء، في إيجاز لم يوَفّق في تجنب ملل الاستطراد... نقرأ:

القسم الثالث: من النواقض التي يترتب عليها الخروج من أحد السبيلين: المس باليد (ما علاقة المس بالخروج من أحد السبيلين؟)، وحكم هذا فيه تفصيل، وهو أنّه لا يخلو إمّا أن يمس بها نفسه أو غيره، فإن مسّ غيره كان لامساً تجري عليه أحكام اللمس المتقدّمة (لاحظوا التعميم)، أمّا إن مسّ نفسه، فإنَّ المعتاد في مثل ذلك أنَّ الإنسان لا يلتذ بمس جزء من أجزاء بدنه (إقرار بأساس الاجتهاد)، ولكن قد ورد في الأحاديث ما يدلّ على أن مَن مَسَّ ذكَر نفسه انتقض وضوؤه، وورد في البعض الآخر أن ذلك المس لا ينقض الوضوء، ولذا اختلفت المذاهب في ذلك (؟)، فمَن قال: إنَّ مس ذكر الإنسان نفسه لا ينقض، استدل بأحاديث، منها ما رواه أصحاب السنن إلاّ ابن ماجه، وهو أنّ النبي سئل عن رجل يمس ذكَره في الصلاة، فقال: «هل هو إلاّ بضعة منك» (أي جزء من أجزاء بدنك)، *وهذا الحديث رواه ابن حبّان أيضاً في صحيحه، وقال الترمذي: إنَّ هذا الحديث أحسن شيء يروى في هذا الباب، أمّا الذين قالوا: إنّ مس الذكَر ينقض الوضوء، فقد استدلوا بأحاديث كثيرة، منها قوله: «مَن مَسَّ ذكَره فليتوضأ»، وقد أجمع الأئمة الثلاثة على أنَّ مَس الذكَر ينقض، وخالف الحنفية في ذلك فقط فقالوا: إنَّه لا ينقض،* (لاحظوا أن الاختلاف بين المذاهب ليس مرجعه القرآن، الذي لم يأتِ على ذكر

الأمر برمّته، ولكن تضارب الأحاديث الكاذبة حكماً لتناقضها)، *وإليك تفصيل مذاهبهم*. . .

(لنلاحظ أيضاً أنّ سؤال الرجل للنبي هو حول مس الذكَر في الصلاة، وليس خارجها، وهو ما تجاهله الفقهاء فاسترسلوا فيما لا سند له). . .

قبل الاستطراد في تفصيل المذاهب في هذا الأمر الجلل، نشير إلى ما أوردناه في فصل سابق، حول الجريمة الكبيرة التي اقترفها كتبة الأحاديث، بعد رواتها المشكوك في أمرهم، إذ وثّقوا في (صحاحهم وسننهم) أحاديث متضاربة، هي ما أشرنا إلى أنّها أساءت إلى الرسول ورسمت صورة النبي المشوّش الذهن، الذي جعلوه ينسى ما يقول، فيناقض نفسه بأحاديث متضاربة حول الموضوع ذاته مهما كان تافهاً. . . ./ حاشاه/

فما الذي جاءت به مذاهبنا الجليلة حول لمس الذكَر؟

الحنفيّة قالوا: إنَّ مس الذكَر لا ينقض الوضوء، ولو كان بشهوة، سواء كان بباطن الكف، أو بباطن الأصابع، لأنَّ رسول الله جاءه رجل كأنّه بدوي، فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل مسَّ ذكَره في الصلاة؟ فقال: «هل هو إلاّ بضعة منك» أو «مضغة منك»؟ .. ولكنّه يُستَحَب منه الوضوء خروجاً من خلاف العلماء، لأنَّ العبادة المتّفق عليها خيرٌ من العبادة المختلَف فيها (فلماذا اختلفتم؟)، *بشرط أن لا يرتكب مكروه مذهبه* (فماذا عن مكروهات المذاهب الأخرى؟). . . .
هذا وقد حمل بعض الحنفية المسَّ في قوله/ «مَن مسَّ ذكَره فليتوضأ»

على الوضوء اللغوي، وهو غسل اليدين، فيندَب له أن يغسل يديه من المس عند إرادة الصلاة، وكذلك لا ينتقِض الوضوء لمس أي جزء من أجزاء بدنه، فلو مسَّ حلقة دبره، فإنَّ وضوءه لا ينتقض، وكذا إذا مسّت المرأة قبلَها، ولكن لو أدخل إصبعه أو شيئاً - كطرف الحقنة - وغيّبها انتقض وضوؤه، لأنّها تكون بمنزلة دخول شيء في الباطن ثم خروجه، فإن أدخل بعضها ولم يغيّبه، فإن أخرجها مبتلّة، أو بها رائحة انتقض وضوؤه، وإلاّ فلا، وكذلك المرأة إذا وضعت إصبعها أو قطنة ونحوها في قبلها، فإن خرج مبتلاً انتقض الوضوء، وإلاّ فلا . . . (؟) . .

المالكية قالوا: ينتقض الوضوء بمس الذكر بشروط: أن يمس ذكر نفسه المتصل به، فلو مسَّ ذكَر غيره كان لامساً، يجري عليه حكمه، وأن يكون بالغاً، ولو خنثى، فلا ينتقض وضوء الصبي بذلك المس، وأن يكون المس بدون حائل، وأن يكون المس بباطن الكف، أو جنبه، أو بباطن الأصابع، أو جنبها، أو برأس الإصبع، **ولو كانت** زائدة إن ساوت إحدى الأصابع الأصليّة في الإحساس والتصرّف، فلا ينتقض إذا مسّه بعضو آخر من أعضاء بدنه، كفخذه أو ذراعه، كما لا ينتقض إذا مسّه بعود، أو من فوق حائل، وينتقض الوضوء بالمس المستكمل للشروط المذكورة، سواء التذّ أو لا، وسواء كان عمداً أو نسياناً، ولا ينتقض بمس امرأة فرجها، ولو أدخلت فيه إصبعها، ولو التذّت (لاحظوا التفريق بين الذكر والأنثى دون مستند قرآني)، ولا ينتقض بمس حلقة الدبر (تمييز آخر بين ذكر المرء ودبره دون مستند)،

ولا بإدخال إصبعه فيه على الراجح، وإن كان حراماً (كيف لفعل الحرام أن لا ينقض الوضوء؟)، إذا كان لغير الحاجة، ولا ينتقض بمس موضع الجب - أي موضع قطع الذكَر؟ - ولا بمس الخصيتين، ولا العانة، ولو تلذّذ، أمّا مس دبر غيره، أو فرج امرأة، فإنّه لمس يجري عليه حكم الملامسة (؟)...

الشافعيّة قالوا: ينتقض الوضوء بمس الذكر المتصل والمنفصل إذا لم يتجزأ بعد الانفصال فلا يطلق عليه الاسم، وينتقض بمس محل القطع، وإنّما ينتقض ذلك المس بشروط، منه: عدم الحائل، ومنها أن يكون المس بباطن الكف أو الأصابع - وهو ما يستتر عند انطباقهما بعضهما على بعض - مع ضغط خفيف (؟)، فلا ينتقض بالمس بحرف الكف وأطراف الأصابع وما بينهما.

والشافعيّة كالحنابلة، لا يخصّون المس بمس الشخص ذكر نفسه، وإنّما يقولون: إنَّ المس يتناول مس ذكر الغير، فلذا قالوا: إنَّ مس الذكر ينقض الوضوء، سواء كان ذكر نفسه أو ذكر غيره، ولو كان ذكر صغير، أو ميّت (؟)، وإنّما ينتقض وضوء الماس دون الملموس، وكذا ينتقض وضوء المرأة إذا مسّت قُبُلَها، كما ينتقض وضوء مَن مسّه طبعاً، وحلقة الدبر لها حكم الفرج عندهم بخلاف الخصية والعانة، فلا نقض بمسّها.

الحنابلة قالوا: ينتقض الوضوء بكلّ خارج نجس من سائر البدن، غير القبل والدبر المتقدّم حكمه، بشرط أن يكون كثيراً، والكثرة والقلّة تعتبر في حق كل إنسان بحسبه، بمعنى أنّه يراعى في تقدير ذلك حالة

الجسم قوّة وضعفاً، ونحافة وضخامة، فلو خرج دم من نحيف، وكان كثيراً بالنسبة إلى جسده نقض، وإلاّ فلا، ومن ذلك القيء عندهم.. (لا نرى هنا علاقة بمسّ الذكر، وقد وردت هكذا في المرجع القيّم)...

تمعّنوا يرحمكم الله، في المدى الذي وصلت إليه التفاصيل والترهات، بما لم يَرِد في قرآن ولا كتاب... فذهب فقهاؤنا للحديث عن لمس ذكرٍ مقطوع، وذكر الميّت، والإصبع الزائدة، ومقدار الضغط، وميّزوا بين ذكر الرجل وقُبل المرأة، وبين ذكر الرجل ودبره، وأدخلوا اللذة والشهوة في الحسبان....

وكنّا لاحظنا محوريّة موضوع اللذة والشهوة لدى مناقشتنا أمر لمس المرأة والغلام الأمرد الجميل، فالمسلم - بحسب أئمته - حيوانٌ شهواني يستثيره أي عارض، حتى لو كان متجهاً إلى الصلاة والوقوف بين يدي خالقه.

فإن سلّم على امرأة ولمسها بأطراف أصابعه، فهذا يحتّم لدى الأئمة، أن تتحرك شهوته الحيوانيّة، ويرغب في النكاح، وربّما رجف رجفة النشوة، أكثر من ذلك، هذا الحيوان بداخله يتحرك لو لمس غلاماً أمرد، فهو محكوم عليه بسوء الطويّة ونذالة النفس، وتوقّع فعال الأنذال كلّها أن تصدر عنه، ومثل هذا المسلم الحيواني لا بدّ أن تتحرك شهوته إذا لمس ذكرَ نفسه، ولو كان مقطوعاً،... يا للخزي!.....

هل يعكس هذا الأمر سلوكاً كان سائداً أيّام هؤلاء الأئمّة استلزم منهم الاختلاف حول معالجته؟ ربّما، لكنّ هذا ما كان في أذهانهم من

تقييم لعباد الله، والأغلب شكّهم في مقدرة الدين على تشذيب نفس العبد وروحه، فأكثروا عليه من المحرّمات، وتقصّدوا دفعه في مسالك الضياع والتوهان في اجتهاداتهم المتناقضة في التوافه من الأمور.

أليس انتقاصاً من جلال الله وعظمته، اختزال علاقته بالعبد بلمس جزء من البدن، أو امرأة، أو غلامٍ أمرد، أو ذكر مقطوع، أو ذكر ميّت؟. . . . وهل فرض الله علينا طقوس عباداته لتسمو أرواحنا باتصالها بعزّته، أم هي ساديّة منه - حاشاه - فطلب منّا المشي على العجين دون لخبطته؟. .

أليست هذه جناية الرواة الكاذبين للحديث، كأبي هريرة وغيره؟، وكتبة (الصحاح) المغرضين، كالبخاري وزمرته؟، والأئمة والفقهاء اللاحقين الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1].

لا نتحيّز لرأي الحنفية هنا برفض نقض الوضوء بمس الذكر، فكلّهم سواء، لكنّنا نريد إعمال العقل، ونصرّ على سموّ العلاقة مع الخالق، ونرفض ابتسارها وتسفيهها على مذاهب أئمّة بُنيت اجتهاداتهم على فرد مسلم سيّئ الطويّة، منحط المشاعر، يحكمه ذكَرُه، لا تقواه. . .

---

(1) سورة التوبة، الآية: 87.

الإضاءة الحادية عشرة

الجانب الآخر
جناية المسلمين على أهل البيت

نموذج رابع

حين يتواجد الجهل على ضفتي النهر،
يصبح من العسير أن تشرب ماءً رائقاً



يتفقُ كلُّ المسلمين، بكافةِ مذاهبهم، على ما كانَ لعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين من مكانة عليّةٍ ومقام رفيع، بحكم صلتهم بالنبي، وسيرتهم المتميّزة..

هذه المكانة العليّة والمقام الرفيع، يكفيان لإيفائهم حقّهم من التقدير والتبجيل، لدى المسلمين كافّة، بسنّتهم وشيعتهم وفرقهم الأخرى.

ومن هنا يكون مبرّراً أن نتساءل بصدرٍ رحبٍ وعقلٍ متفتح، لماذا حاول بعض فقهاء وعلماء المسلمين من الشيعة والسنّة إضفاء هذا الكم من القداسة عليهم، يقترب من الألوهية لدى غلاتهم، دونما حاجةٍ لذلك، ودون أن يزيد ذلك أو يُنقِص من مكانتهم الرفيعة أو مقامهم العالي؟.

ثمَّ، أليس من باب الإساءة إليهم، الاستناد في إضفاء هذه القداسة إلى روايات ضعيفة مغلوطة، متناقضة، تخالف الطبيعة البشريّة، وتخالف التاريخ، وتستهين بالعقل؟.

أليسَ ما ساقوه يدفع إلى التشكيك والاستهانة أكثر مما يدعو إلى الاقتناع واليقين؟.

أليس فيما ترك لنا الطرفان من هذا الغثاء، أكبر دليل على الجهل، والكذب والتزييف للإسلام ديناً وتاريخاً؟..

قبل أن نفتح بابَ المناقشة مع هؤلاء الأفاضل شيعة وسنّة، وندعوهم لإعمال بعض العقل الذي كرّم الله به عباده، دعونا نعود قليلاً إلى الوراء. . .إلى البدايات. .

اختزل العقل الجمعي لشعوب بلاد الشام والعراق، قبل الفتح الإسلامي، ديانات وأساطير هذه الشعوب وكذلك الشعوب التي تداولت حكمهم واستعمارهم، أو التي خالطوها بالمعاش أو التجارة، بدءاً بالفينيقية والأكادية والأمورية، ثم اليونانية فالرومانية، في بلاد الشام، متبوعة بالمعتقدات اليهودية والمسيحية التي ولدت في المنطقة ذاتها، والبابلية والآشورية والسومرية، ثم الهندية والفارسية في العراق، وحين دخلت هذه الشعوب في دين الإسلام، كان من البديهي أن يظهر تأثر أفرادها بهذا المخزون من المعتقدات والموروث الشعبي، لا سيّما وأن الإسلام لم يحرم أتباع الديانات والمذاهب الأخرى من ممارسة عباداتهم ومعتقداتهم، مما أتاح استمرارها جنباً إلى جنب مع الدين الجديد، واستمرار تمازجها واختلاطها في أذهان المسلمين الجدد الذين صعب عليهم، الانسلاخ من معتقدات مارسوها مئات السنين، وطبعت مجتمعاتهم بطابعها، والانتقال كليّة إلى مفاهيم ومعتقدات جديدة، وهذا أمر طبيعي مفهوم، ولعلنا نلاحظ أن الطابع الإسلامي الصرف تركّز في العراق مثلاً في البصرة والكوفة، المدينتين الجديدتين اللتين بناهما المسلمون بعد الفتح، واستوطنهما المقاتلون القادمون من الجزيرة العربية، دون أن نلحظ أي أثر أو حتى ذكر تاريخي هام للمدن الأخرى التي كان يسكنها سكان البلاد .

ويؤكد لنا التاريخ أن أهم قاسم مشترك لكل هذه الديانات

والمعتقدات، كان تأليه الأنبياء والمبشّرين وحتى أبطال الأساطير، الذين أعطي كل منهم مسحة إلهية بشكل أو بآخر..

لتأكيد هذه الفكرة، نلجأ إلى جرجي كنعان[1] وننقل عنه ببعض التصرف، يقول: *«في التراث الذي وصلنا من منائر سومر وبابل وأشور، ومن ماري وإيبلا وأوغاريت، ومن غيرها من منائر سورية الطبيعية (الشام وفلسطين والعراق)، نجد أنفسنا أمام مجموعة ضخمة من النصوص - المعتقدات التي تعبّر عن نضجهم الروحي المبكر، وعن سمو نظرتهم إلى الخالق والكون والإنسان، فمنذ الألف الثالث قبل الميلاد، وربّما قبل ذلك بكثير، رفع الإنسان القديم في هذه الأرض نظره إلى الأعالي، فبهره جلالُ «العالي» وعظمتُه وقدرتُه، وتكشفت له الصورة الحقيقية لمفهوم «عل، العالي» - (إيل - الله) أو «آن» - (السيّد)، أو «مارديخ - ماردوك» - (السيّد العظيم)، أو «أشور» - (السيّد)، كانت الصورة الأروع لأسمى مفهوم حمله إنسان في داخله وتغنّى بعظمته، وأنشد علويته، واغتبط بقربه منه.*

و«السيّد» «العالي» لجلاله وعظمته وسموّه، بقي متعالياً وبعيداً، لا يرافق الإنسان في اهتماماته اليومية، ولا يهتم بمشكلات البشر الحياتية بمعناها العادي والمعبّر، «إنّه فوق والإنسان تحت، الله هو الله، والإنسان هو الإنسان» كما جاء في الإلياذة.

من هنا كان شعور الإنسان القديم في هذه المنطقة من العالم بالحاجة إلى قوّة أو قوى أخرى «سيّدة» و«عالية» أيضاً، ولكنها تستمد

(1) جرجي كنعان - والمسيح هو المشكلة.

سلطتها أو قوتها من القوّة العليا المطلقة (السيّد العالي المطلق)، ترافق الإنسان في اهتماماته اليومية، وتهتم بمشكلاته الحياتية بمعناها العادي المعبّر.

هذه القوى العالية الأخرى هي البعل، والرب، وأدون، ونبو، وملقارت، وأشمون، ويثع، وشيع القوم، وذو غابة، وذو الشرى، وذو الخلصة، والعزيز، وكرب، ويغوث، ورضى، وعطر سم، ونن (السيّدة)، وعناة، وعشتروت، واللات..

وهي أيضاً قوى الطبيعة وفواعل الوجود مشخّصة: دموزي (تموز)، شمش، سن (القمر)، داجون (سيّد الحنطة)، نهر، يم، موت، هدد (الرعد)..، وكل من هؤلاء كان لا بد أن يضحّي بذاته بطريقة فاجعة دراميّة، تؤدي في الطبيعة إلى عملية خلق جديدة، وفي الإنسان إلى تسليحه بأمل جديد بحياة جديدة ومستمرة ما بعد الموت، كما استمرت حياة الإله الذي قَبِلَ الموت ليُبعث من جديد.

وربّما كان بعضهم أبطالاً أو تجسيداً أسطورياً لأبطال قوميين، مثل كرت الصيدوني، وهرقئيل وأليسار الصوريين، ودانئيل الأوغاريتي، وهب إيل، وحم ون، فالبطولة شمول وعظمة، والبطل في نظر مقدّريه، إن لم نقل عابديه، هو رمز للقدرة الغلاّبة الفائقة، وكثيراً ما يبلغ تمجيد الأبطال الدينيين أو الوطنيين، عن غير وعي، مرتبة التأليه، خاصّة بعد موت البطل، لأنّ النفس البشرية شديدة الميل إلى تقديس الموتى.

وربّما كانوا أجداد بيئة معينة، صنعوا خيراً في حياتهم، وبعد

موتهم خلع عليهم الناس نعوتاً خارقة، أو أضفوا عليهم صفات الأولياء والقديسين، وحين تعاظم قدرهُم، انثنى قومُهم يطلبون شفاعَتهم ورعايتَهم لبعض الأمور الحياتية الغامضة، ولدرء الأخطار والمصاعب، وتيمنوا بأسمائهم، وقدّموا على أضرحتهم القرابين والنذور، وأخيراً جرى تأليهُهم في بيئتهم أو في بيئات أخرى..» انتهى. ونضيف:

آخر من جسَّدَ هذا المفهوم، قبل الإسلام، كان السيّد المسيح الذي أكّد الآباء كَتَبة الأناجيل أن موتَه وانبعاثَه ضروريان من أجل استمرار الحياة المتجدّدة دائماً وأبداً، وقد كرّس القرآن صورة المسيح في أذهان المسلمين، وإن أتى برواية مختلفة لموته وقيامته، إلاّ أنّه أكّد الأسطورة في أذهان العامّة الجاهلة منهم، وانسحب ذلك إلى تأكيد الأساطير الأخرى السابقة بالمعيّة، .... وقد انعكس هذا المفهوم فيما بعد لدى أكثر من فرقة من فرق المسلمين، وبات مرتكزاً أساسيّاً في معتقداتها وأدبياتها.

الإله العالي المتعالي البعيد في السماوات العليا، والإله الوسيط، أو وكيل الإله الذي لابد من إحاطته ببعض القدسيّة، القائم على الأرض، ليكون وسيط العالي إلى الإنسان الذي هو تحت، على الأرض...

وفور أن استدعت الظروف وسنحت الفرصة، فرض السؤال نفسه، لماذا لا يكون للمسلمين ما كان لغيرهم من الشعوب التي سبقتهم؟ أليست هذه أكثر العقائد ثبوتاً على امتداد العصور السابقة، سواء منها

ما صدّقها القرآن، أو ما نفاها أو ما تجاهلها؟ وهل يمكن أن نقصي ما هو مترسخ في عقول هؤلاء حديثي العهد بالإسلام؟

ولكن، كيف يتم تشكيل هذا الإله الوسيط في المجتمع الإسلامي؟ ثمّة عناصر لا بدّ من توافرها، والبداية يجب أن تكون من الحلقة الضيّقة الأقرب إلى النبي لتوفير سندٍ ما، يتكفّل بالإقناع، وقربى الدم وقربى الولد كافيتان ومعقولتان، ويجب أن تكونا مترابطتين لتنظيف الساحة من علاقات القربى الأخرى المترافقة معها التي لا تحكمها القربتان معاً، والتي قد تشوّش العقيدة الجديدة، ثمّ لابد من تدعيم الأمر بنصوص إلهية في القرآن، وإن استُخدمت في غير معناها ومقامها ومدلولها، وببعض الأحاديث الداعمة التي لا مانع وربّما لا مناص من نسبها إلى نبيّ الله، ألَم ينسب من هبّ ودبَّ آلاف الأحاديث إلى النبيّ، كلٌّ حسب غرضه؟؟؟.

والفرصة باتت سانحة بأجلى وجوهها، الخلاف على الخلافة. . . .

إذا ابتعدنا عن الغلو، فهل ننكر أن الخلاف بين عليّ ومعاوية كان في جوهره سياسيّاً، أي خلافاً على المُلك، لا على الدين، إذ لم يجرِ الاختلاف على أحد أركان العقيدة، أو على أمر تشريعي يخص العبادات أو حياة الناس، كان خلافاً على الحكم، استخدم الدين بأبشع الصّور، وإن كان أحد طرفيه أكثرَ نبلاً في الغاية والهدف، وأكثرَ إخلاصاً لدين الله، وأكثرَ شرفاً في النسب إلى النبي، وأكثرَ حقاً في التصدي لرعاية الإسلام والمسلمين.

انتهى الصراع إلى ما انتهى إليه، وكان يتوجب إبقاؤه ونتائجه في إطار صراع آني مرحلي، مألوف في كلّ مراحل تشكّل الدول على امتداد التاريخ، ووضعه وراء الظهور.

لكنّ ما حصل كان غير ذلك، وتحوّل الصراع الآني المرحلي إلى أعمق خلاف تاريخي دائم، يخفت حيناً، ثم يعود ليشتدّ أحياناً كثيرة، دون أيّ مبرّر لدى طرفي الخلاف للإصرار على العيش في عباءة الموتى...

أليست حكمة كبيرة كان يحتاج إليها المسلمون لتجاوز الصراع التاريخي، ما قاله مَن سمّاهُ أحد دعاة التشيّع وهو الشيخ حسن مشيمش بالأبله:

«هذا قبر حجر بن عدي رضي الله عنه ..

الذي قتلَه معاوية رضي الله عنه ......

لأنَه من أصحاب عليٍّ رضي الله عنه ....»

أما كان الإسلام أفضل حالاً الأمس واليوم وغداً، لو تمتّع كل المسلمين بهذا البَلَهِ الخلاّق؟ وإن كان هذا بَلَهاً فأين العقل، والنتائج جليّة واضحة أمامنا وخلفنا؟

ولماذا تناسى وأهمل المسلمون، وعصوا ربَّهم الذي قال لهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

(1) سورة آل عمران، الآية: 105.

نستخدم هنا تعبير ديتر تسمرلنغ[1] : *أين كان يمكن اكتشاف معنى في هذا اللامعنى، وهل كان هناك أي معنى على الإطلاق في الكارثة؟* .

لكنَّ بعضَ العوامل كان لا بدَّ أن تفرض نفسها في التربة التي باتت خصبة. . . لتحوّل الخلاف على الحكم إلى أكبر انشقاق في تاريخ الإسلام، ولتعمل إفرازاته على تشويه هذا الدين السامي.

العامل الأول، هو حقيقة أن السياسة لا بدّ أن تفسد كلَّ ما تدخل عليه، خاصّة إذا شكّلت عقليّة التخاصم المتوارَثة والراسخة، منبعاً ثريّاً لإنتاج العناصر اللازمة.

ولعله من الصحيح، وفقاً لإبراهيم محمود[2] أنّ:

(عقليّة عليّ كانت تقوم على عالمين متضادين في الغالب الأعم، عالم الإسلام الذي التقى فيه مع مَن كان معه منذ بدايته تاريخياً، وعالم المنافقين والفارضين أنفسَهم على المسلمين، وكان هذا التصّور مرتبطاً بمحور مركزي ديني إسلامي مثالي، لا تغيّر فيه متحولات التاريخ، ولا تؤثّر فيه الأحداث الجسام) .

ولكن ماذا عن الطرف الآخر، معاوية، ألَم يفرض اللعبة السياسية في مواجهة المثالية الدينية، وهو المسكون بانتماء قبلي أرستقراطي، وبرغبة عارمة في امتلاك مفاتيح السلطة التي تخصُّ إمبراطورية باتت تغدو عظيمة في زمانها؟

(1) ديتر تسمرلنغ - النهايات - ترجمة ميشيل كيلو.
(2) إبراهيم محمود - الفتنة المقدسة.

يساعدنا هنا إبراهيم محمود، مرّة أخرى على رسم صورة معاوية التي فرضت نفسها على الصراع:

(يظهر معاوية بن أبي سفيان الذي حكم الدولة العربية الإسلامية بصورة فعلية من 660 - 680 م، الشخصيّة المتفردة في التاريخ، إنّه يكاد يكون شخصيّة أسطورية، دون أن يكون في هذه الشخصيّة عنصر أسطوري، وتظهر الأحداث التي تشير إليه بخرافات، دون أن يكون هناك حضور للخرافة في علاقاته مع الآخرين، ويتجلى بمظهر المنبوذ والمرفوض على صعيد التواصل الخلقي، أو من معيار قيمي، دون أن تتم تنحيته، وتبلورت شخصيته بمسحة من القداسة، دون أن يكون هناك مَن ساعد على قدسنة شخصيّته هذه، أو ساعد على تقديمها بشكل مثالي،... إنّه مرفوض ومقبول به، مدنَّس، لما قام به من تصرفات أساءت إلى الكثيرين من المقربين من النبي، وخاصّة علي وعائلته، ومقدّس في الوقت نفسه، نظراً لعظيم الأعمال التي قام بها، وُحّدَت فيها أمة اجتمعت فيها وعبرها أجناس شتّى وتوحدت، كان للعرب فيها المنزلة الأولى والسيادة الأولى، أمّة إمبراطورية، عربيّة السلطة والثقافة.. وليس هناك مَن يستطيع ذكره دون شعور بالرهبة وهو يلفظ اسمه، وبالتقدير لأنّه استثمر كل قواه في تحقيق أهدافه، ذات التوجّه العربي بشكل عام، لقد تسجّل تاريخ كامل باسمه، وتحددت مرحلة مؤثرة به، لم يترك سيّئةً إلاّ وحاول استغلالها في تحقيق مآربه، ولا حسنة إلاّ وسعى إلى تجسيدها بشكلٍ ما، لإعلاء مركزه السلطوي، لقد فهم لعبة السلطة على أكثر من صعيد، ومارس هذه اللعبة، في أكثر

ممارساتها خطورة، ونجح فيها، واستطاع أن يكون رجل تاريخ حافل بالمغامرات، والمفاجآت، والمواجهات الساخنة، ونجمه الأكبر بامتياز).

هذه الشخصيّة المكيافيليّة هي الطرف الأساس في الصراع... فهل مَن ينكر أن الصراع كان سياسياً مفسِداً؟ استخدمه هذا والذين ادّعوا اتّباع ذاك في التشنيع بالإسلام.

العامل الثاني، هو المؤامرة، نعم المؤامرة، المدعومة والمستندة إلى المفهوم المترسخ في أذهان حديثي الإسلام الذي سلفنا الإشارة إليه، وإلى المناخ الذي فرضه الصراع والانشقاق..، وإلى وضوح أحقيّة علي وقناعة معظم المسلمين بذلك، وكيلا يطالنا الاتهام الرائج حول اتباع نظرية المؤامرة الذي يتمترس وراءه ضعيفو الحجّة، نعود إلى الثابت والمتواتر في كتب التاريخ، حول دور عبد الله بن سبأ في بذر البذور الأولى للمؤامرة الكبرى، ثم متابعة الأمر إلى نهاياته.

يقول ابن عساكر في «تهذيبه»: *كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أمّة سوداء، أظهر الإسلام، وطاف بلاد المسلمين ليفتنهم عن طاعة الأئمة ويلقي بينهم الشر، وقد بدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم بالكوفة، ثم دخل دمشق أيام عثمان، وعنه أُخذ حلول الإله في الأئمة.*

كما يورِد المقريزي: *وأحدث ابن سبأ القول بوصيّة رسول الله لعليّ بالإمامة من بعده، فهو وصي رسول الله وخليفته على أمته من بعده بالنَص، وأحدَثَ القول برجعة علي بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة الرسول أيضاً، وزعم أنّ علياً لم يقتل، وأنّه حي، وأن فيه الجزء*

الإلهي»، وأنّه هو الذي يجيء في السحاب، وأنّ الرعد صوته والبرق سوطه، وأنّه لا بدَّ أن ينزل الأرض فيملأها عدلاً كما مُلِئت جوراً.

(إسقاط لما في التوراة والأناجيل).

هذا الدور المحوري لعبد الله بن سبأ، أكّده هؤلاء، وغيرهم كثير، بلغ عددهم تسعة وأربعين من علماء السنّة وكتّابهم..

ولم يقتصر الأمر على علماء السنّة، فقد توافق واحد وعشرون من علماء وكتّاب الشيعة على هذا الأمر، هم: لوط بن يحيى، والأصفهاني، والناشئ الأكبر، والنوبختي، وأبو حاتم الرازي، والكشي، وابن بابويه القمّي، والمفيد، وأبو جعفر الطوسي، وابن شهر، وابن أبي الحديد، والحسن الحلّي، وابن المرتضى، والأردبيلي، والمجلسي، ونعمة الله الجزائري، وطاهر العاملي، والمامقاني، والمظفّري، والخوانساري.

يقول الناشئ الأكبر[1]: *«وفرقة زعموا أنَّ علياً حيٌّ ولم يمت، وأنّه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، وهؤلاء هم السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ، وكان رجلاً من أهل صنعاء، يهودياً وسكن المدائن.*

ويذكر النوبختي[2]: *أنّه لمّا بلغ ابنَ سبأ نعيُ عليٍّ في المدائن، قال للذي نعاه: كذبتَ، لو جئتنا بدماغه في سبعين صرّة، وأقمت على قتله سبعين عدلاً، لعلمنا أنّه لم يمت، ولم يُقتل، ولا يموت حتى يملك الأرض.*

---

(1) الناشئ الأكبر - مسائل الإمامة.
(2) النوبختي - فرق الشيعة.

ويورد الجزائري[1]: *قال عبد الله بن سبأ لعلي بن أبي طالب: أنتَ الإله حقاً. فنفاه علي إلى المدائن، وقيل إنّه كان يهودياً فأسلم، وكان في اليهوديّة يقول في يوشع ابن نون وفي موسى ما قال في علي.*

دون أن نهمل، بداعي الأمانة، الإشارة إلى مَن شكّك في وجود عبد الله بن سبأ، واعتبره شخصية أسطورية، وهم من المحدثين، فيمن نعرف، من السنّة تسعة، هم: طه حسين، وعلي النشّار، وحامد حنفي داود، ومحمد كامل حسين، وعبد العزيز الهلابي، وجواد علي، ومحمد عماره، وحسن المالكي.

ومن الشيعة سبعة، هم: محمد حسين كاشف الغطاء، ومرتضى العسكري، ومحمد جواد مغنية، وعلي الوردي، وعبد الله الفيّاض، وكامل مصطفى الشيبي، وطالب الرفاعي.

وإذا كانت أمانة البحث تستلزم منا عدم الركون كليّة إلى عبد الله بن سبأ هذا، لوجود ستة عشر مشكّكاً، وإن قابلهم سبعون مؤكّداً من الطائفتين، فمن المؤكد أن ما نُسب إليه من أفكار قد ترددت في حينه، وباتت أساساً لغلوّ وتطرّف وجدا تربة خصبة في خلاف قائم، وعقول لم يتمكن منها الإسلام، وإذا لم يكن عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية، فثَمَّةَ عبد الله آخر كان واضعاً للفكرة ومروّجاً لها، بدليل ما تؤكّده كتب السير من وجود فرقة دعيت «بالسبئيّة».

وهنا اكتملت العناصر، وتهيأت الأرضية لتشويه الدين، وتقطيعه، وضخ السموم في العقول الجاهلة، في الاتجاهين وتفرعاتهما.

---

(1) الجزائري - الأنوار النعمانيّة.

بعد هذه الخلفية التاريخية، دعونا الآن نفتح باب الحوار والمناقشة، مؤكدين ضرورة إعمال العقل في قراءتنا لأدبيات الطرفين.

ولنخصص هذا المقام للطرف الأول، ونأتي على الثاني في مقام آخر...

ولنبدأ بالأقرب إلى النبي:

أ - السيّدة فاطمة الزهراء

صغرى بنات النبي، وقرّة عينه، وأول اللاحقين به من أهله إلى دار الخلود، الطاهرة المطهّرة، زوج أمير المؤمنين حبيب النبي، وأمُّ الحسنين الشريفين أحب الأنام إلى خير الأنام...

هذه الجليلة العظيمة، هل أجاد المسلمون الحديث عنها بما تستحق، أم عملوا - عن حسن نيّة أو سوئها - على الإساءة إليها، بالتلفيق والتوليف المخالف للعقل، خدمة لنزاع مرير لم تكن طرفاً فيه؟.

دعونا نتحرّىَ ذلك....

أ - ١ - الولادة:

يورِد الشيخ حسن مشيمش[1] ما يردُ في الكثير من كتب الشيعة والسنة، حديثاً عن النبي يقول: «**والله لو لَم يكن عليٌّ في الوجود، لَما**

(1) حسن مشيمش - حوارات ساخنة.

كان لفاطمة كفؤٌ في الحياة، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها..، فاطمة حوراءُ إنسيّة.. كلّما اشتقت إلى رائحة الجنّة شممتُ رائحتها، لأنَّ ربّي لَما عرَج بي إلى السماء وأدخلني الجنّة، وأكلت من طعامها، وشربت من ماءها (مائها)، أمرني أن أهبط إلى الأرض وأواقع خديجة حتّى تولد فاطمة من نطفةٍ تكوّنت في صلبي من طعام الجنّة وشرابها».

ويرد الأمر ذاته، بصياغة أخرى لدى أحد الأئمة المعتبَرين لدى السنّة هو الإمام الطبري[1] نقلاً عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله مالَكَ إذا قبّلت فاطمة جعلتَ لسانك في فيها؟ كأنك تريد أن تُلعقها عسلاً؟ فقال «إنّه لما أُسري بي أدخلني جبريل الجنة، فناولني تفاحة، فأكلتها فصارت نطفة في ظهري، فلما نزلت من السماء واقعت خديجة، ففاطمة من تلك النطفة، فكلّما اشتقت إلى تلك التفاحة قبلتها» خرّجه أبو سعد في «شرف النبوّة».

ويبدو أنَّ واضع الحديث الذي نقله الطبري بكلّ سذاجة، لم يكن مجيداً، فاستخدم تعبيراً خاطئاً وقال «لمّا أسري بي»، والإسراء كان إلى المسجد الأقصى، أما المعراج فهو إلى السماء...

وقد رويت أحاديث كثيرة أخرى حول الموضوع ذاته، بروايات مختلفة، وكلّها نسبت إلى عائشة (؟).

ومع أنّ الثابت ولادة السيّدة فاطمة في العام 18 قبل الهجرة، أي قبل البعثة بخمس سنوات، إلاّ أنّنا نرغب في الذهاب مع هؤلاء

---

(1) الطبري - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى.

المزوّرين الكاذبين على لسان النبي الكريم، بغية إيقاظ العقل النائم لدى المسلم المسكين الذي يتقبّل هذه الترهات اللامعقولة. . . . .

ونسأل:

1 - 1 - لماذا تكون السيّدة فاطمة الوحيدة من عباد الله التي يربط الله غضبه ورضاه بمزاجها؟، أيّ إلهٍ جليلٍ قدّوس يربط غضبه ورضاه بأمزجة العباد؟ أليس في هذا الكلام تسفيه لمقام الإله العزيز الجليل؟ وهل تجوز الإساءة إلى مقام الألوهية لمجرد إضفاء مسحة من القداسة إلى السيّدة الزهراء، وهي لا تحتاج إليها؟.

ألأنّها ابنة النبي؟ وهل ينطبق الأمر على بناته الأخريات زينب ورقية وأم كلثوم؟ أم أن الله والرسول ميّزا بينهنَّ دون سبب معقول؟

نشير إلى أنّ الطبري نسب إلى عليّ قوله، قال رسول الله: «يا فاطمة إنّ الله عزّ وجلّ يغضب لغضبك ويرضى لرضاك» أخرجه أبو سعد في «شرف النبوّة» والإمام علي بن موسى الرضا في «مسنده».

1 - 2 - هل الجنة والنار موجودتان ككيانين قائمين في السموات؟ هل خلقهما الله منذ بدء الخليقة وأغلق بابيهما بانتظار يوم الحساب؟ وهل هما مجسدتان في حيّز جغرافي محدّد؟

وهل طعام الجنّة كطعام الأرض؟ أي مادة تُهضم وتتحوّل في الجسم، فيمتص منها حاجته، ويتشكّل منها النطاف، ثم يخرج ما يتبقى من فضلات بعملية البراز والتغوط، وأين يتبرز أهل الجنّة؟ وهل هذه الوجبة التي تناولها الرسول هي بذاتها التي تحوّلت إلى نطفة جاءت بفاطمة؟.

1 – 3 – هل عرج النبي بجسده إلى السماوات العليا؟ وهل السماوات العليا حيّز جغرافي محدّد في مكان ما، يتلقى جسد الرسول الكريم؟ إذا كان ذلك، أليس هذا تحديداً لكينونة الله عزّ وجلّ، فما دام وجد في حيّز محدّد فهو محدّد بطول وعرض؟ ألا نلمح هنا تأثير الإسرائيليات التي قالت بتجسيم الله؟، حاشا لله . . . .

يقول الدكتور صالح عضيمة الأستاذ في جامعة السوربون في باريس، ونائب رئيس مركز الأبحاث الإسلامية في فرنسا[1]، *«فالمسلمون جميعهم إلاّ قليلاً منهم (؟)، متفقون على أنّ الله سبحانه أسرى بعبده بالجسد والروح معاً، وفي ذلك دلالة واضحة كلّ الوضوح أن جسدَه الطاهر الشريف كان له صفاته الخاصّة التي تميزه عن بني البشر، كما كان له صفات تميزه عنهم»*. انتهى

لكنّنا نشير إلى حديث السيّدة عائشة «ما فُقِدَ جسدُ رسول الله ولكنّ الله أسرى بروحه».

ونضيف إنّ الدليل الأكبر بأن الإسراء والمعراج لم يكونا بالجسد، وإنّما كانا رؤية، هو قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[2] فهل بعد قول الله كلام، و«قوله الحق»؟.

1 – 4 – في الحديث المنسوب إلى النبي عن معراجه، إن صحّ، أخبرنا عن ملاقاته الأنبياء الرسل، وعن تلقيه أوامر ربّه، وفرض

---

(1) صالح عضيمة – ذلك فضل الله.
(2) سورة الإسراء، الآية: 60.

الصلوات الخمس، ولم يذكر تناوله وجبة عشاءٍ متأخرة، ومتى تسنّى له ذلك؟؟

1 - 5 - لماذا يشاء الله العزيز الجليل في حواره مع رسوله الكريم، في مناسبة استثنائية لم تتكرر، أن يترك أمور الدين والدنيا، ليأمر رسوله بمواقعة خديجة؟ أليس هذا إسقاطاً ضعيفاً مهلهلاً لطريقة ولادة السيّد المسيح بكلمة من الله؟.

1 - 6 - تؤكّد كلّ كتب السيرة النبوية، أن السيّدة خديجة ماتت قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقد قالت عائشة إن خديجة: «ماتت قبل أن تفرض الصلاة يعني قبل أن يُعرَج برسول الله»، وقال الواقدي: «إنّها توفيت لعشرٍ خَلَونَ من رمضان، وهي بنت خمس وستون سنة، وذلك سنة عشر من البعثة بعد خروج هاشم من الشعب».

فكيف يأمر الله محمداً بمواقعة خديجة المتوفية؟

وإذا شكّك أحدٌ في التاريخ والروايات عن موت خديجة قبل الإسراء والمعراج، فهل واقعها النبي وحبلت وولدت وهي ابنة خمس وستين؟.

1 - 7 - آخر المقال، من الثابت أنّ الإسراء والمعراج قد تمّا قبل الهجرة بستة عشر شهراً، فَلَو استبعدنا خبر وفاة خديجة قبل ذلك، وتجاوزنا كبرَ سنِّها، وصدّقنا أن النبي واقعها لدى عودته، فحملت تسعة أشهر بفاطمة، ثم ولدتها، فإنّ ذلك يقودنا إلى أنّ الولادة حصلت قبل الهجرة بسبعة أشهر، وفاطمة كانت رضيعاً عام الهجرة، ونعلم أن النبي أقام في المدينة عشر سنوات قبل أن يتوفاه الله، فكم كان عمر

فاطمة حين زوّجها من عليّ، وكم كان عمرها حين ولدت الحسن والحسين، وشهدهما النبي في حياته وكان يحملهما ويلاعبهما، هل تمّ كلُّ ذلك في عشر سنين؟

ثمّ إن السيّدة فاطمة توفيت بعد النبي ببضعة أشهر، فهل كان عمرها حين ماتت أحد عشر عاماً فقط؟.

ومما يثير الاستغراب، والاستنكار، أن المصادر ذاتها تورد أحاديث متناقضة، ففي كتاب ذخائر العقبى للطبري، الذي يبدو لنا غير مدقق فيما يكتب وينسب، يورد حديثاً عن ابن مسعود أنّه قال: ما رأيت رسول الله دعا على قريش غيرَ يوم واحد، فإنّه كان يصلي ورهط من قريش جلوس، وسلى جَزور قريب منه، فقالوا مَن يأخذ هذا السَّلى فيلقيه على ظهره، فقام رجل وألقاه على ظهره، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها فأخذته عن ظهره... الحديث[1].

أي إن فاطمة رضي الله عنها كانت في عمر يسمح لها بما قامت به خلال وجود النبي في مكة وتعرّض مشركي قريش له، قبل الإسراء والمعراج بسنين.

كما يورد الطبري ذاته حديثاً عن علي قال: كنّا مع النبي في حفر الخندق، إذ جاءته فاطمة بكسرة من خبز، فدفعتها إليه، فقال: «ما هذه يا فاطمة؟» قالت من قرص اختبزته لابنيَّ، جئتك منه بهذه الكسرة، فقال: «يا بنيّة أمّا إنّها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث» أخرجه الإمام علي بن موسى الرضا.... إذن ففي غزوة الخندق، في شوّال

(1) أخرجه البخاري.

سنة خمس من الهجرة، أي بعد حوالى ست سنوات من الإسراء والمعراج كانت فاطمة متزوجة ولديها أبناء تخبز لهم، فهل يُعقَل أنّها كانت حينها ابنة سبع سنين؟؟.

أخيراً، تؤرِّخ كتب السيرة ولادة الحسن بن عليّ في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وقال الدولابي: لأربع سنين وستّة أشهر، فإذا أضفنا تاريخ المعراج ستة عشر شهراً قبل الهجرة، يكون عمر فاطمة حين ولدت الحسن، أربع سنوات وستّة أشهر، أو خمس سنوات وعشرة أشهر حسب الدولابي.

وما دمنا في الحديث حول ولادة السيّدة فاطمة، نذكر ما يثير الاستغراب بدرجة أكبر، وهو الحديث الغريب المناقض للحديثين السابقين، الذي أورده الملاّء في «سيرته»، هذا الحديث الذي يتجاهل الربط مع الإسراء والمعراج ودخول الجنّة، لكنه يذكر واقعة أكل النبي لتفاحة الجنّة، ويضيف بعض التفاصيل العجيبة حول واقعة الولادة.

يقول: إنّ النبي قال: «**أتاني جبريل بتفاحة من الجنة** (دون ذكر مروره على الجنة بنفسه)، **وواقعت خديجة** (دون ذكر أمر الله له بذلك)، **فحملت بفاطمة، فقالت: إنّي حملت حملاً خفيفاً، فإذا خرجتُ** (؟) **حدَّثني الذي في بطني، فلمّا أرادت أن تضع بعثَت إلى نساء قريش ليأتينها فَيَلِينَ منها ما يلي النساء ممَن تَلِد، فلم يفعلن، وقلنَ: لا نأتيك وقد صرتِ زوجة محمد، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربعُ نسوة عليهنَّ من الجمال والنور ما لا يوصف، فقالت لها إحداهنَّ: أنا أمُّكِ حوّاء، وقالت الأخرى: أنا آسية بنت مزاحم،**

وقالت الأخرى: أنا كلثم أختُ موسى، وقالت الأخرى: أنا مريم بنت عمران أم عيسى، جئنا لنلي من أمرك ما يَلي النساء. قالت: فولدت فاطمة، فوقعت (دون أن تمسك بها إحدى النسوة الأربع) حين وقعت على الأرض ساجدةً رافعةً إصبعها».

وحيث أنَّ النبي لا يناقض نفسه، ولا تتوه عنه الأمور وتختلط فينسى حديثاً له ويأتي بقصّة مغايرة، فلا بدَّ أن نجزم بوجود واضعين مختلفين للأحاديث السابقة كلِّها، والمصيبة أنّهم لم يراعوا بعضهم بعضاً، كما لم يكلّفوا أنفسهم عناء التنسيق بين اختلاقاتهم.

أ - ٢ - الصفات غير البشريّة

أورد الطبري في كتابه المشار إليه، حديثاً عن أسماء قالت: قَبِلتُ أي ولَّدتُ فاطمة بالحسن فلم أرَ لها دماً، فقلت يا رسول الله، إنّي لم أرَ لفاطمة دماً في حيض ولا نفاس، فقال: «أما علمت أنّ ابنتي طاهرة مطهّرة لا يرى لها دم في طمثٍ ولا ولادة؟»[1]..

وينسب الطبري أيضاً إلى ابن عباس أنّه قال: قال رسول الله: «ابنتي فاطمة حوراء آدميّة، لم تحِض ولم تطمث، إنّما سمّاها فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها عن النار» أخرجه الغسَّاني، والغريب أنّه يشرح كلمة الطمث بالحيض، لكنّه يستشهد بالآية الكريمة من سورة الرحمن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ متجاهلاً أن يطمثهنَّ وردت هنا بمعنى يواقعهنَّ أو يضاجعهنَّ، دون أي علاقة بالحيض..

---

(1) أخرجه الإمام علي بن موسى الرضا.

كما يورد الدكتور عضيمة في الصفحة ذاتها من كتابه آنف الذكر: *«ويكاد المسلمون جميعهم يتفقون أنّ الطاهرة المطهّرة السيدة فاطمة الزهراء ما عرفت في حياتها ما عرفته النساء من النجاسات من مثل الحيض والنفاس، ولا غرابة في الأمر ولا عجب فيه، ولا يحتاج إلى دليل آخر بعد آية التطهير، وهو قول الحق في سورة الأحزاب:*

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، *وهذا الرجس الذي أذهبه الله عنهم يشمل أجسادهم وأرواحهم»*.

وهنا لا نملك إلاّ أن نتساءل:

2 - 1 - أَلَم تكن السيّدة فاطمة بشراً سويّاً ككلِّ النساء منذ أمّنا حواء حتى يرث الله الأرض؟

2 - 2 - أليس الحيض والنفاس من العمليات الفيزيولوجيّة التي أنعم الله بها على تكوين المرأة حفظاً لصحّتها؟ فلِمَ حرّم منها حبيبةَ رسوله؟.

2 - 3 - هل ينطبق الأمر على النجاسات الأخرى كالتبوّل وإتيان الغائط؟ وأيُّ بشرٍ لا يحتاج إليهما؟.

2 - 4 - لِم لَم ينطبق الأمر على خير نساء العالمين الأخريات، أمهات الأنبياء والرسل، كالسيّدة مريم العذراء التي اختصّها الله بتلقي روحه وكلمته فحملت حملاً أكرم من حمل فاطمة، من روح مَن هو أكرم من محمد وعلي، أو أم سيدنا إبراهيم، أو موسى، أو حتّى أم محمد؟ ألم تحمل كلٌّ منهن حملاً كريماً؟.

2 - 5 - إذا كان هذا التمييز، المعتبر هنا تكريماً، لكونها ابنة

محمد، فهل ينطبق الأمر ذاته على بناته الأخريات زينب ورقية وأم كلثوم؟ ألَسنَ من ظهر الأب ذاته ورحم الأم ذاتها؟ أَلَسنَ من أهل البيت أيضاً؟ وهل مَن يشكّ في نسبهن الكريم؟ ولماذا خلت كتب المسلمين من أيِّ ذكر لهنَّ واقتصرت على فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؟ ألم يسمِّ الرسول عثمان بذي النورين لأنّه تزوج ابنتيه رقية وأم كلثوم، بمعنى اعتباره لكل منهما نوراً؟.

وقد أدهشني أن يصل الغلو لدى البعض إلى التصريح، دفاعاً عن هذه النقطة، بأن زينب ورقية وأم كلثوم لم يكنّ بنات النبي، فهل هذا تشكيك في عفة الطاهرة خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أم هو نسبٌ لهنَّ إلى زواج سابق لها، دون أي سند، وفي مخالفة لكل كتب التاريخ والسيرة؟؟؟.

2 - 6 - وإذا كان دليل الدكتور على أنّ السيّدة فاطمة لم تعرف الحيض والنفاس، هو الآية33 من سورة الأحزاب:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وهي الآية التي تتردد، دون غيرها، في أدبيات الشيعة وبعض السنّة لتأكيد عصمة أهل البيت جسداً وروحاً، فكيف يفسّر لنا مخاطبة الله عَزَّ وَجَلَّ للمسلمين المقاتلين:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[1]؟ نلحظ استخدام الكلمات ذاتها، يطهّركم، يذهب عنكم الرجس...

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 11.

فهل كل كوكبة المسلمين التي خاطبها الله هنا هي من المعصومين وطاهري الأجساد والأرواح؟..

وألا يتوجب - بهذا المفهوم - أن نضع أهل البيت في الخانة ذاتها مع هؤلاء كلّهم فلا يعود من معنى للتخصيص والتمييز؟...

والآيات عديدة، تمتلئ بها صفحات القرآن الكريم:

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾[1].

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[2].

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]... الخ، وغيرها كثير، لكن تغييب العقول كفيل بصنع الأعاجيب.

نشير إلى نصيحة الشيخ حسن مشيمش في كتابه السابق، بالعودة إلى قاعدة من أهم قواعد التفسير التي أضاء نورها في معالم المدرسة الإسلامية الإمام جعفر الصادق وهي: فسِّروا القرآن بالقرآن. وإن كنّا لم نجد في كل كتب الشيعة والسنّة حول تفسير آية الطهارة السابقة لمدلول (أهل البيت)، أيّ استناد إلى هذه القاعدة، واقتصر الأمر دوماً على الاستناد إلى عشرات الأحاديث مختلفة الصياغة، دونما حاجة لتوليف معظمها، ما دام النص واضحاً وصريحاً في إن الآية نزلت في نساء بيت النبي، وإن اختلف البعض على مدلولها وأبعادها، بعد اقتطاعها من السياق الذي وردت فيه، إذ يقول الله:

(1) سورة المائدة، الآية: 6.
(2) سورة الأعراف، الآية: 82.
(3) سورة الأنعام، الآية: 125.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾[1].

2 - 7 - ألا يكفي السيّدة الزهراء شرفاً ومكانةً وعظمةً أنها بنت محمد وزوج عليّ، وأم الحسنين؟ وهل تحتاج لتوليف وتأليف ما لا يقبله العقل؟ وهل من العقل أن تقوم العقائد على أكاذيب واختلاقات ممجوجة؟......

أ - ٣ - مكانتها وفضلها وعجائب أخرى

نكرّر القول بالمكانة السامية الشريفة العليّة للسيّدة فاطمة، وبتميزها عن غيرها نسباً وانتساباً وقرباً من أبيها الحبيب، وهذا أمر لا نراه بحاجة إلى تأكيد، بل نجد أن محاولات التأكيد المقصودة، باختلاق وتوليف أحاديث غريبة، هي أدنى إلى التشويه والإساءة منها إلى التكريم ورفعة المكانة. ولنتابع...

3 - 1 - نسب الطبري إلى عبد الله بن مسعود، عن النبي قال: «**إنَّ فاطمة أحصنت فرجَها فحرَّم الله ذريّتها على النار**» أخرجه تمّام في فوائده، وأورده ابن حبان في «المجروحين» وابن عساكر في «مختصره» والهيثمي والشوكاني.

---

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 32/ 34.

ويأبى العقل إلاّ أن يسأل: ألم تُحصِن كلُّ نساء المؤمنين فروجَهُنَّ، فهل حرِّمت النار على ذرياتهنَّ؟ وهل لنا أن نركن ونطمئِن إلى مصيرنا إلى الجنّة متى تأكدنا من تحصين أمّهاتنا لفروجِهِنَّ؟ وحين سمّى لنا الفقهاء أسماء أبواب الجنّة، هل فاتهم أن يذكروا باباً لأبناء المحِصنات لفروجهنَّ؟......

يبدو أن واضع الحديث لم يكن متمكناً من صنعته فجاء به ضعيفاً غيرَ مقنع، فأساء إلى فاطمة وإلى ذريّتها المحصّنة من النار لصلاحها وإيمانها وتقواها، لا لمجرّد انتسابها، وإلاّ لنال والدا النبي وأعمامه الجنة، دون أن ننسى أب سيّدنا ابراهيم الذي لم يقبل الله فيه شفاعة نبيّه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[1].

وألا يمكن أن نضيف بالتحليل التراجعي، ما دامت ذرية فاطمة محرّمة على النار، وهي بذاتها ولاشك محرّمة على النار، وما دامت من ذرية خديجة فيجب أن تكون خديجة هي الأخرى قد أحصنت فرجها وحرّمت على النار، وبالتالي فذريّتها محرّمة على النار، وبنات النبي الأخريات من خديجة محرّمات على النار، فأين التميّز هنا؟ وما الداعي للتخصيص في الحديث؟.

---

(1) سورة التوبة، الآيتان: 113/ 114.

3 - 2 - هذا غيضٌ من فيضٍ، والفكرة باتت واضحة، فمن اكتفى فحسْبُه، ومن لم يكتفِ فليبحر في الأوراق الصفراء التي تملأ المكتبة الإسلاميّة. . .

ب - عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه

الإمام، الرضيّ، مكرّم الوجه، الأول إسلاماً، فادي النبي، حامل الرايات، خادم الدين، ذو الفضل السابق، واسع العلم، قاضي الإسلام والمسلمين. .

أيُّ شرفٍ ناله علي، وأيُّ تكريم أنعمه الله ورسوله والمسلمون عليه.

ألم ينقل عمر بن الخطاب، عن النبي - إن صحَّ - أنّه قال: «**ما اكتسب مكتسِبٌ مثلَ فضلِ عليٍّ، يهدي صاحبَه إلى الهُدى، ويردُّهن الرَّدى، ولا استقام دِيْنُهُ حتى يستقيمَ عَمَلُهُ**»[1]. .

ألم تكفِ صفحته الزاهرة وتاريخه الناصع لمنحه المقام الجليل؟!

وهل كان بحاجة إلى غير الحقائق حوله؟!

وهل كان هذا المؤمن الأكثر مثاليّة ونزاهة ليرضى بهذا الإسفاف الذي أقحم على سيرته؟؟؟.

ب - ١ - ولادته

نجد في كتاب الشيخ حسن مشيمش المذكور آنفاً، سرداً للقصّة المتداولة في أدبيات الشيعة حول حوار الحجّاج بن يوسف مع الأمَةِ

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير.

النبيهة التي أثبتت له أن علياً أفضل من آدم، ونوح، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، فيروي على لسانها عن ولادة عليّ، يقول قالت: *وفي عيسى يقول الله فحملته (أي أمُّه مريم) فانتبذت به مكاناً قصياً (أي بعيداً عن المسجد الأقصى حيث كانت تقيم فيه بصورة دائمة) امتثالاً لأمر الله، حيث قال لها: يا مريم هذا بيت عبادة لا بيت ولادة (؟)، «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة»، أمّا فاطمة بنت أسد (أمُّ علي)، فلمّا أجاءها المخاض، طافت حول بيت الله في مكّة، وتضرّعت إليه أن يساعدها في ولادتها، فاستجاب دعاءها بشق جدار البيت فدخلت منه إلى جوفه (رغم أنّه دار عبادة لا دار ولادة)، ومكثت فيه ثلاثة أيام (؟) وخرجت بعليّ في حضنها.*

أي إسقاط ممجوج هذا؟ ولماذا الإساءة إلى عليٍّ المؤمن بكتاب الله وما فيه؟ وهل كان ليرضى بالكفر وتفضيله على آدم ونوح ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى؟ وهل استُثنيَ محمد منعاً للحرج، أم خوفاً من ردة فعل باقي المسلمين؟

وهل يتفضل أَحَدٌ فيشرح لنا علاقة المسجد الأقصى في القدس بولادة مريم؟ ألم تحصل الولادة في بيت لحم لا في القدس؟ أم أن الركون إلى جهل المسلمين كفيل بتمرير الأكاذيب؟

ثم، كيف يمنع الله خيرَ النساء مريم من الولادة في بيت العبادة، ويسمح بذلك لفاطمة بنت أسد؟ وأين حديث النبي بأن «**سيّدة نساء أهل الجنّة مريم بنت عمران، وفاطمة، وخديجة، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون**»؟ لِمَ لَم يذكر فاطمة بنت أسد، أم تراها هي المعنية هنا،

لا فاطمة بنت محمد؟ أم لا مانع من اعتبارها إشارة إلى الاثنتين طالما أن ليس من يدقق أو يعقِل؟

ويحار العقل في رواية أوردها الشيخ مشيمش، دون أن يحدّد كونها حديثاً أم لا، يقول: *كفّن رسول الله فاطمة بنت أسد، أم الإمام علي في قميصه بعد ما فرغ النساء من غسلها، وحمل جنازتها على عاتقه، فلم يزل تحت جنازتها حتى أوردها قبرها، ثم وضعها ودخل القبر واضطجع فيه، ثمّ قام فأخذها على يديه ووضعها في قبرها، ثمّ انكبَّ على قبرها، فسمعوه يقول: «اللهم إنّي أستودعها إيّاك» ثمّ انصرف... فقال له المسلمون: يا رسول الله إنّا رأيناك صنعت اليوم شيئاً لم تصنعه قبل اليوم؟ فقال: «اليوم فقدت برَّ أبي طالب، إنّها كانت حينما يكون عندها الشيء كانت تؤثرني به على نفسها وولدها.. وإنّي ذكرت يوم القيامة يوماً وأنّ الناس يحشرون عراة، فقلت: واسؤاتاه، فضمنتُ لها أن يبعثها الله كاسية، وذكرت ضغطة القبر، فقلت: واضعفاه، فضمنت لها أن يكفيها الله ذلك، فكفنتها بقميصي، واضطجعت في قبرها لذلك، وانكببت عليها فلقنتها ما تُسأل عنه. وإنّما سُئلت عن ربّها فقالت الله ربّي، وسُئلَت عن نبيّها فأجابت محمّدٌ نبيّي، وسُئلَت عن وليّها وإمامها فارتجَّ عليها، فقلت لها: ابنك.. ابنك، فقالت ولدي وليّي وإمامي.. فانصرفا عنها وقالا: لا سبيل لنا عليك نامي كما تنام العروس في خدرها، ثمّ إنّها ماتت ميتة ثانية.*

انتهى.

ونترك لأبسط العقول النظر في هذه الرواية العجيبة التي تم توليفها لفاطمة بنت أسد، ونسيَ المولفون ذكر شيءٍ عما فعله النبي عند دفنه

لغيرها من أحبّتِهِ، عمّه أبي طالب، زوجه خديجة، ابنته رقية، عمّه حمزة، ولده القاسم.. الخ.........

ونسأل: لِمَ لم يكلِّف أحدٌ نفسه عناء ذكر بعض الروايات عن آمنه بنت وهب، أُمِّ النبي التي ولدت خيرَ الأنام؟ ونجيب أن النبي لم يكن بحاجة للتلاعب بسيرته لإضفاء ما لا يحتاج إليه، فلم يكن من خلاف عليه، ألم يشهد الله به وكفى؟

ثُمّ، هل كان النبي قد عيَّن علي وليّاً قبل وفاة أمه؟، نسمع إجابة تكاد تتهم النبي بالمراوغة، حاشاه، ومَن أرادها فليرجع إلى كتاب الشيخ، ويستعن بالصبر على قراءته.

وقد أورد الطبري هذه الرواية عن أبي عمر النمري، دون ذكر للجزء الأخير حول تلقينها مَن ربّها ومَن نبيّها ومَن وليّها، الذي يبدو أنّه أضيف بفعل فاعل عن قصد.

نشهد في كلٍّ هذا الذي سبق، محاولات مهلهلة ضعيفة، لاختلاق بدايات قداسيّة، بل أسطورية تستثمر عقائد ومعتقدات سابقة، إنّما في إطار إسقاطات ركيكة وغير مقنعة...

ب - ٢ - مكانته

هل نتدرج في مناقشة الاختلاقات المسيئة إلى الإمام، من البسيط منها إلى الكبير الكبير، أم نذهب بالعكس؟

ذانك سيّان، فكلٌّ فيه العجاب، وكلٌّ تختلف العقول في خطورته ومدى إساءته...

2 - 1 - نعود إلى ما أشرنا إليه في تقديمنا حول عقائد وديانات الشعوب السابقة للإسلام، ولنتذكر أن الآباء البطاركة جاءوا في الديانة المسيحية بمبدأ التثليث، كمرتكز أساسي للعقيدة.

جميل، ألا يصلح هذا المعتقد للإسقاط أيضاً؟ ألم يؤمن به مليارات من المسيحيين منذ مجمع نيقية 325 م، ثمَ مجمع القسطنطينية 381م حتى اليوم؟

لنقرأ معاً هذه الرواية العجيبة التي أوردها الشيخ مشيمش دون سند، يقول:

(يخرج أبو ذر من بيت الرسول، فيلتقي بعمر، وإذ به يسأله عمَّن في بيت الرسول، فيجيبه أبو ذر: يوجد عنده رجلٌ لا أعرفه، يدخل عمر إلى منزل الرسول فيرى عنده علياً عليه السلام، وسرعان ما يطعن بقوله للرسول: يا رسول الله، لقد التقيت قبل لحظات بأبي ذر، وسألته عمَّن عندك، فأجابني بقوله: عنده رجل لا أعرفه.. هل أبو ذر لا يعرف علياً عليه السلام، أم أنَّه يكذب؟ أجابه الرسول: «كلاّ يا عمر، إنّ أبا ذرٍ لا يكذب، ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدقَ لسانٍ من أبي ذر.. لأنّه لا يعرف اللهَ إلاّ أنا وعليّ.. ولا يعرفني إلاّ الله وعلي... ولا يعرف علياً إلاّ الله وأنا»).

لسنا ندري كيف ندير هذه القصّة في عقولنا ونتدبرها، أننزل بعقولنا إلى درك لا نرتضيه ونناقشها؟ أم نتجاوزها محتسبين أمرنا لله عزّ وجلّ؟ فلنكتف بالتساؤل المشوب بالاستغراب...

- هل كان علي متخفياً بصورة أخرى لم يحددها الراوي؟ ولماذا،

ما دام في حضرة النبي؟ هل كانا (حاشاهما) يتباريان في الخوارق؟ .

- لماذا خفيت الشخصيّة المتنكرّة لعلي على أبي ذر الذي ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدقَ منه، وانكشفت لعمر؟ هل يسوّغ ذلك لغلاة السنّة وجهّالهم اعتبار الغطاء مكشوفاً عن عمر، فندخل في دوامة تأليه وتقديس لعمر؟ أم نصحح للنبي . . ولا يعرف عليّاً إلاّ الله وأنا وعمر؟.

- كيف لا يعرف اللهَ إلاّ النبي وعلي؟ وما بال المؤمنين والأنبياء والرسل السابقين كلّهم لم يعرفوا الله؟

ولَم كلَّف الله نفسه إرسال عشرات الأنبياء منذ آدم حتى محمد دون أن يجدوا نفعاً في معرفة الله؟

وما جدوى كلمات القرآن وآيات الله في خلقه إن لم تعرّفنا على الله؟

وهل الله عَزَّوَجَلَّ إله محمد وعلي فقط، أم إله الناس أجمعين؟

و. . . و. . .

- كيف لا يعرف النبيَّ إلاّ الله وعلي؟

وما حال المسلمين من الصحابة والتابعين والآخرين من المليارات الذين تعاقبوا مسلمين منذ الرسالة حتى اليوم؟

وكيف آمنوا وآمنّا معهم برجل لم يعرفوه ونعرفه؟

وإذا كنّا وهؤلاء جميعاً بمن فيهم مولفو الرواية لم نعرف الله ورسوله، فما الذي ندين به؟

وإلى أين نحن سائرون؟.

- إذا كان لا يعرف عليّاً إلا الله ورسوله، فلماذا احتفظا بهذا السر لنفسيهما؟

ما الحكمة في ذلك؟

وهل ينفع عليّاً جهل الجميع به، عدا الله ورسوله؟

أليس الجهل بالشيء داعياً إلى نكرانه بدل الإيمان به؟.

- ألسنا نرى هنا عقيدة جديدة تقوم على التثليث المسيحي الآب - الابن - روح القدس، بعد أسلَمَتها إلى الله - محمد - علي؟ وربّما الله - علي - محمد؟ وربّما أبعد من ذلك...

ولعله كان في أذهان مؤسسي هذه العقيدة، ومولفي هذا الحديث الربط مع المقولة المسيحيّة، فلجأوا إلى توليف حديث آخر لإبعاد الشبهات فنسبوا إلى النبي قوله:

«لولا خوفي على أمَّتي أن تصنع في علي ما صنع النصارى في عيسى المسيح، لقلت فيه اليوم حديثاً جعلَها تأخذ التراب من تحت نعليه تبّركاً»، مع أنّهم في الوقت ذاته صنعوا في علي أكثر مما صنع المسيحيون في المسيح، بل فضّلوه عليه.

2 - 2 - ربّما لم يسمع البعض بهذه المقولة أن النبي قال عن علي «إنّه نفسه»، كيف يكون أحدُ الآخر نفسه؟ ولماذا؟ هل من مبرر؟ ألا يكفي القول مثلاً إنّه حبيبه، أو قريبه، أو حتى شبيهه؟

لا، لا يكفي... تحتاج الفلسفة حصراً إلى كلمة (نفسه)

بالذات. . . ألا تبنى الفلسفة وعلم المنطق على المقدمات المفضية إلى نتائج؟

لكن، ألا يفترض أولاً إثبات المقدمة؟

بَلى. . . الإثباتُ جاهز إن لم تُعمل عقلك، وتترك الفقهاء يعرضون عليك (آية) من القرآن مرفقة بتفسيرهم الذي لا يصحّ سواه، يقولون: *وهذا المعنى حكاه الله في كتابه عند قوله: «**فمَن حاجَّك فيه - أي المسيح - من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوا ندع أبناءنا** (أي الحسن والحسين) **وأبناءكم، ونساءنا** (أي فاطمة الزهراء) **ونساءكم، وأنفسنا** (أي أنا وعلي) **- وأنفسكم**».*

لندقق فيما بين قوسين من تفسير مطلوب منّا أن نقبله بهذا الحصر وهذا التخصيص، فإن شكّكنا وأردنا التعميم وتوسيع الدائرة، فهناك العشرات من الأحاديث الداعمة للتفسير الأوحد، ولا إمكانيّة للخوض في صحتها فهذه سلسلة لن تنتهي.

والسكوت هنا على سلامة المقدمة خطِرٌ جداً، لأنه ببساطة يقود أي جاهل إلى نتيجتين خطيرتين. . .

الأولى، (ولمّا كان المسلمون يعتبرون النبي أفضل الأنبياء فإنَّ عليّاً نفسه كذلك). . . أي أفضل الأنبياء أيضاً.

والثانية، (فدرجة الإيمان بمحمد هي عينها بعلي). . . لا زيادة ولا نقصان.

وتصبح العبارة (لمّا قال محمد أفضل الأنبياء، عن علي إنّه نفسه، فعلي أفضل الأنبياء، والإيمان به من درجة الإيمان بمحمد). . .

ألا تذكّرنا بفلسفة مسيلمة الكذاب التي أقنع بها قومه بنبوته (إذا كان ظَهَرَ في قريش نبيٌّ، ولستم أقل شرفاً من قريش، فقد ظهرتُ فيكم نبياً).

وإن الله كريمٌ، وحاتم الطائي كان كريماً، بل أكرم العرب، فهل من استنتاج كافرٍ هنا؟ ومثلها يمكن لسيّئ الطويّة استخلاص نتائج غريبة من أسماء الله الحسنى الأخرى، الله عادل والقاضي فلان كان عادلاً، والله رحيم وكثيرون رحماء، . . . هل تُختَزَل الصفات في حرفيّة الألفاظ؟.

والنتيجتان لا تُترَكان بإطلاقهما، لابدّ من تأكيدهما لتعميق الاقتناع بالفكرة الخطيرة، وذلك هيّن وميسور، فالأحاديث تزودنا بمعين لا ينضب من الذخيرة في كلِّ اتجاه، وقد تكفّل من هبَّ ودبَّ في اختلاق الأحاديث ونسبها إلى الرسول، والخزانة كبيرة وتتسع، وأكبر منها مساحة الجهل في عقول المسلمين الكفيلة بابتلاع كل ما يُلقى إليها مقروناً بعبارة قال رسول الله.

في تأكيد النتيجة الأولى، يُلقى إلينا - بكل استخفاف - براوية الأَمَة النبيهة مع الحجاج بن يوسف، وهي بالطبع ليست حديثاً عن النبي الذي لحق بربّه قبل ذلك بفترة طويلة، ولكن مَن يهتم، ما دمنا أقصينا العقل؟

فعليّ حسب النبيهة أفضل من آدم، لأن الله قال عن آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[1]، في حين قال علي: والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما

(1) سورة طه، الآية: 121.

تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جُلبَ شعيرة ما فعلته.

وعليّ أفضل من موسى، لأنَّ الله قال في موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، في حين قال في عليّ الذي فدى النبي دون خوف ليلة الهجرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[2]، (فهل علي خير من النبي محمد الذي اختبأ في الغار لينجو من قومه الظالمين؟).

وعليّ أفضل من عيسى الذي قال الله فيه: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[3]... الآية، وقد ذكرنا القصة قبلاً في سيرة فاطمة بنت أسد.

وعليٌّ خير من ابراهيم، لأن الله قال فيه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[4] أمّا علي فيقول: والله لو كُشِفَ لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً.

وعليّ أفضل من نوح ولوط اللذين قال الله عنهما: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[5]، وأمّا امرأة عليّ فهي فاطمة الزهراء التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها..

(1) سورة القصص، الآية: 21.
(2) سورة البقرة، الآية: 207.
(3) سورة مريم، الآية: 22.
(4) سورة البقرة، الآية: 260.
(5) سورة التحريم، الآية: 10.

(أليس كل من كانت له امرأة صالحة لا تخونه خير من نوح ولوط بهذا المفهوم القاصر؟).

وإذا كان متداولاً أن النبي قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنَّه لا نبي بعدي»، فهل كان هارون خيراً من موسى، ما دام أن علي خيراً من موسى؟.

ولعلّنا لا بد أن نشكر الشيخ مشيمش، لأنَّه جزاه الله خيراً، لم يفترضنا جميعاً جاهلين، وتوقع أن لدى البعض - وإن ندر - شيئاً من عقل، فافترض أن هذا البعض قد يسأل: كيف يكون عليّ أفضل من الأنبياء وقد حباهم الله بالوحي، وتلك خصوصيّة تفضلهم على سائر العالمين؟.

يعطينا الجواب سريعاً بمقدمة ونتيجة، متوقعاً منّا قبولهما بدون تردد أو تفكير، يقول: *(إن كان الله حبا الأنبياء بالوحي، فقد حبا عليّاً عليه السلام **بالإلهام**، وإنَّ الإلهام لا يختلف عن الوحي من حيث الجوهر والمضمون، أي إنَّ الوحي عبارة عن علم الغيب، والإلهام كذلك)*.

أليس هذا مفهوماً جديداً فتح الله به على عقل الشيخ المتنوِّر؟...

الإلهام لا يختلف عن الوحي... استخدام غريب للمفاهيم في غير سياقاتها.. لكن هذا هيّن، لأنَّ الأدهى قادم في الإشراقة الكبيرة للشيخ: الوحي عبارة عن علم الغيب؟؟؟ وهذه عبارة خطيرة، لأنَّها تكذِّب الله ورسوله - نستغفر الله - وتكذّب عليّاً نفسه، ألم يقل الله مخاطباً الرسول: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ

أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴿٥٠﴾﴾[1]. ، وهنا الرسول يوحى إليه، ومع ذلك لا يعلم الغيب..

ثمَّ ألم يقل الله أيضاً: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2]. ، كذلك، ألم يقل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3]. وهنا يتحدث الله عن خطاب يتم نقله مباشرة منه عَزَّوَجَلَّ إلى (أذن) مَن يشاء عن طريق الوحي، دون أي ذكر لـ (الإلهام) الذي جاء به الفقهاء، والذي لا يعتبر من باب الخطاب المباشر ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[4]...

أكثر من ذلك، ألم يعبّر القرآن عن الوحي بأنّه «إلقاء القول»، في السورة الثانية نزولاً ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[5]؟.

ألم يستشهدوا تواً بقول علي (والله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً)؟ فكيف يُلهَم مَن لا يُكشف له الغطاء؟

وهل كان عليٌّ ليرضى هذا الكفر؟

أمّا في تأكيد النتيجة الثانية، فالإسفاف أكثر، وهو يملأ الكتب الغريبة ومواقع الانترنت العجيبة...

(1) سورة الأنعام، الآية: 50.
(2) سورة النمل، الآية: 65.
(3) سورة الشورى، الآية: 51.
(4) سورة الشمس، الآية: 8.
(5) سورة المزمل، الآية: 5.

نشير إلى أنّ أحمد بن حنبل[1] أدلى بدلوه فلم يضع عليّاً في مقام أفضل من الأنبياء، واكتفى به في مقام الصّديقين، يقول إن النبي قال: «الصّديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يونس الذي قال: ﴿يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ﴾، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، وعلي بن أبي طالب، وهو أفضلهم»[2]..

والفارق كبير بين أفضل الأنبياء وأفضل الصّديقين... دون أن ننسى أن النبي سمَّى أبا بكر بالصدّيق، وليس عليّاً....

أكثر من ذلك، أخرج أحمد في المناقب أيضاً، أنَّ أسماء بنت عميس، الذي كان علي زوجها الخامس، روَت أنَّها سمعت النبي يقول: «اللهم إنّي أقول كما قال أخي موسى: واجعل لي وزيراً من أهلي - أخي عليّاً - أشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبّحكَ كثيراً ونذكرك كثيراً، إنَّك كنتَ بنا بصيراً»[3]......

(ربّما فات ابن حنبل أنّ أسماء كانت زوجاً لأبي بكر، زواجها الرابع، حين مات النبي، ولم يتزوجها علي إلاّ بعد وفاة أبي بكر، فمتى سمعت من النبي حديثاً يخصّ عليّاً؟...) لا تعليق، ولكن...

وزير، نبي، أم أفضل من نبي؟ اختلطت الأمور..

ولتزيد حيرتنا في موقع علي، أخرج الخلعي، والذهبي، والمؤلف، حديثاً منسوباً إلى أنس بن مالك، أنَّ النبي قال «ما من نبي

---

(1) أحمد بن حنبل - المناقب.

(2) رواه ابن عساكر في مختصره.

(3) رواه ابن عساكر أيضاً.

إلاّ وله نَظيرٌ في أمَّته، وعلي نظيري»، فمن كان نظير عيسى، ونظير نوح ونظير إبراهيم؟.

وأين نضع علياً؟ هل مَن يتبرع في حسم الأمر رحمة بنا وبعقولنا؟

2 - 3 - ثمَّة كفرٌ لا تحتمله العقول، أو قل جريمة في حق الإله عَزَّوَجَلَّ ونبيه، يشارك فيها من نعدّهم علماء وفقهاء هذا الدين المبتلى، فقد أخرج الملاّء في سيرته، والمتقي الهندي في كنز العمال، وعزاه للطبراني في الكبير، وساقه المؤلف في الرياض النضرة، عن أبي الحمراء قال، قال رسول الله: «**ليلة أُسري بي إلى السماء نظرتُ إلى ساق العرش الأيمن**، فرأيت كتاباً فهمته: **محمد رسول الله، أيَّدتهُ بعلي ونصرته به**».

ونتساءل، مستغفرين الله، ومستسمحين نبيّه:

- يميّز النبي وأي عاقل بين الإسراء والمعراج، فالإسراء هو انتقاله إلى المسجد الأقصى، والمعراج هو عروجه أو انتقاله إلى السماء، وكلاهما بالرؤية، فكيف يستخدم النبي تعبيراً خاطئاً، **أسريَ بي إلى السماء**؟ مع الإشارة إلى تكرار هذا الخطأ في العديد من الأحاديث المختلَقة.

- كان النبي أمّياً لا يقرأ، فكيف يدّعي أنه قرأ ما هو مكتوب؟

- كلا السؤالين مشروع، وهيّن لن يعسر توليف إجابتين لهما، لكن هل يكفر النبي؟

كيف يكون للعرش ساق أيمن وساق أيسر بالمعنى الحرفي للكلمات؟ نستغفر الله، هل العرش كرسي عادي ذو قوائم ترتكز على

أرضيّةٍ ما، والإله عَزَّوَجَلَّ محدود البنية والشكل يجلس على هذا الكرسي ويمد رجليه؟ وهل غشّنا الله، حاشاه، حين قال «وسع كرسيُّه السموات والأرض» البقرة؟ أم أن هذا الحديث من الإسرائيليات التي سعت لتجسيم الله، وشربها المسلمون الجهلة؟..

يبدو أنَّ مختَلِق الحديث كان جاهلاً، أو هو اعتمد على جهلنا، ولو وضع الحديث في صيغة أخرى:

«ليلة عُرِجَ بي إلى السماء، قال لي جبريل، يقول الله عَزَّوَجَلَّ إنَّك يا محمد رسوله، أيَّدك بعلي ونصرَكَ به» ربَّما كان أكثر واقعيّة وإقناعاً.

نقول لعلمائنا الأفاضل سنّة وشيعة: اختلقوا لعليّ ما شئتم من الصفات، ولكن لا تكفروا بالله، ولا تكذبوا على لسان نبيّه، ولا تسيئوا إلى عليّ...

2 - 4 - أخرج ابن السمّان في كتاب «الموافقة» حديثاً غريباً منسوباً لاسم غريب هوَ قيس بن أبي حازم، قال والكلام على ذمتّه، إن وُجِد: *التقى أبو بكر وعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فتبَسّم أبو بكر في وجه عليّ، فقال له: مالَكَ تبسمت؟ قال: سمعت رسول الله يقول: «لا يجوز أحدٌ الصّراط إلاّ من كتَبَ له علي الجواز».*

- هل من المثير للسؤال أن يتبسّم أبو بكر في وجه من يلاقيه؟ ألم يأمر الله بذلك؟ أم كان لا بدَّ من اختلاق الحادثة قبل توليف السيناريو؟

- إذا كان كذلك، فلِمَ تولّى أبو بكر الخلافة، ولم يتركها لعليّ، فيحوز رضاه، ويكسب بذلك دخول الجنة؟ ربّما لم يوَفَّق مختلق الحديث حين أقحم أبا بكر بالذات في قصّته.

- الخطورة في مضمون الحديث، لا في صياغته، سيجلس علي قريباً من الله يوم القيامة، على أحد جانبي الصّراط، وسيكون هو الحكم، وكاتب جوازات المرور، لمَن؟ وعلى أيِّ أساس؟ وإلامَ سيستند في حكمه على الأولين والآخرين؟..

وهل سيكون دور الله عَزَّوَجَلَّ حيادياً، ينتظر انتهاء عليّ من الحساب لينفّذ ما جاءت به جوازات المرور فور انتهاء عليّ منها؟ وكيف يردد علينا الله في القرآن أنّه مَن سيحاسبنا؟ هل هذا تضليل من الله لعباده؟ وأين دور الأنبياء الذين أخبرنا القرآن أنّهم سيأتون شفعاء لأقوامهم، وسيأتي محمدٌ شفيعاً عليهم، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1]؟ وهل كان هذا الخطاب موجّهاً لمحمد أم لعليّ؟.

- هل نستغني عن عبارة «نستغفر الله ربّ العالمين» ونستبدلها بعبارة «نستغفر عليّاً كاتبَ جوازات المرور»؟ ضماناً لآخرتنا.........

- كيف فات واضع الحديث أن يعطي دوراً للنبي في هذا السيناريو؟ ربّما لم يقرأ حديثاً آخر، منسوباً إلى ابن عمر قال: سمعت رسول الله يقول لعليّ: «**يا عليّ.. يدُكَ في يدي، تدخل معي يومَ القيامة حيث أدخل**»، ترى أين سينتظر النبي انتهاء عليّ من كتابة جوازات المرور ليدخلا سوّيةً؟ أم هو مشمول، وغيره من الأنبياء، فيمن سيقف في الطابور؟ أليست العبارة مطلقة (لا يجوز أحد الصراط) بالمطلق، دون استثناء؟

(1) سورة النساء، الآية: 41.

كما لم يقرأ الحديث الآخر، المنسوب إلى أنس بن مالك، أن النبي قال لعلي «تؤتى يوم القيامة ناقة من نوق الجنة، تركبها وركبتك مع ركبتي، وفخذكُ مع فخذي حتى تدخل الجنة»(1)..

والحديث الآخر الذي أخرجه علي بن موسى الرضا، عن علي بذاته، قال: قال رسول الله: «يا عليّ، إنّكَ أولُ مَن يقرع باب الجنَّة فتدخلها بغير حساب بعدي»(2)..

وقد اختلط علينا في مشهد يوم القيامة، هل عليٌّ على أحد جانبي الصراط، أم بمحاذاة النبي ركبة بركبة وفخذاً بفخذ، أم بعده؟ أليس في كل منها حديث منسوب إلى النبي؟.

ثمّ، هناك الحديث الأكثر غرابة وكذباً صريحاً، المنسوب إلى ابن عمر نفسه، أنّ النبي قال لمعاوية بن أبي سفيان: «يا معاوية، أنت منّي وأنا منك، لَتزاحمني على باب الجنّة»(3)، فلمن قال النبي ما قال، أم هو قالها للرجلين، أم أنّه الكذب والتلفيق على لسان النبي، كلٌّ حسب هواه ومصالحه؟.

دون أن يفوتنا هنا، ملاحظة مدى مصداقيّة (الإمام) الطبري الذي يورد أحاديث متناقضة، دون التوقف والتفكير في صحّتها، وتوافقها من عدمه، أليست مصيبة الإسلام كبيرة في هؤلاء؟.

ولابدَّ أن نسأل: هل كان الذين وضعوا واختلقوا هذه الأحاديث

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل في المناقب، وابن عساكر في مختصره.
(2) أورده الطبراني والهيثمي والبزار.
(3) سير الأعلام والنبلاء 3/ 131.

من المسلمين المؤمنين، أم نعود إلى أنّها المؤامرة التي أسّس لها عبد الله بن سبأ، أو يهودي آخر؟ وعزّزها معاوية وخلفاؤه باستخدام فقهاء السلطان، وكرّسها دعاة المدرسة الصفويّة في التشيع.

نرجّح الرأي الثاني، لماذا؟ ببساطة لأنّ علياً بنفسه قال: «إذا حدّثتكم عن رسول الله حديثاً، فوالله لأن أخرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أكذبَ عليه، أو أقولَ عليه ما لم يَقل»[1]..

وما كان لمؤمنٍ صادق من أتباع علي أن يفعل ذلك.....

ولسنا نستغرب أن يساهم في هذه المؤامرة مَن يدعوهم أهل السنّة علماء وفقهاء كالبخاري وابن حنبل والطبري وغيرهم، ألم نرَ جرائمهم في الإضاءات السابقة.... ألم يشترك الجميع في قتل الإسلام؟....

آخر المقال... كان الإمام علي المؤمن الأكثر نقاءً وصدقيّةً والتزاماً بجوهر الدين الصحيح، وهو النموذج الأمثل والقدوة الأصلح لكل مَن آمن بالله ورسله، لكنّ الغلاة والجهلة شوّهوه وأخرجوه إلى عوالم الخرافة والإسفاف، فكانوا أول المسيئين إليه في سياق إساءاتهم للإسلام الصحيح.

(1) أخرجه البخاري ومسلم منسوباً إلى سويد بن غفلة.



صناعة الغباء

قامت مجموعة من العلماء بوضع خمسة قرود في قفص، في وسطه سلّم، وفي أعلى السلّم وضعوا بعض الموز...

في كل مرّة كان أحد القرود يتسلّق السلّم لأخذ الموز، يقوم العلماء برش باقي القرود بالماء البارد..

بعد فترة بسيطة، وكلّما حاول أحد القرود تسلّق السلّم لأخذ الموز، تقوم القرود الباقية بمنعه وضربه، حتى لا ترش بالماء البارد..

بمرور الوقت، لم يعد أيّ من القرود يجرؤ على تسلّق السلّم خوفاً من الضرب..

قام العلماء بتبديل أحد القرود الخمسة بقرد جديد، سارع إلى محاولة تسلّق السلّم لأخذ الموز، إلاّ أن الأربعة الباقية قامت بضربه وإجباره على النزول..

بعد عدّة محاولات، وضرب، فهم القرد الجديد أنّ عليه أن لا يتسلّق السلم، دون أن يعرف السبب..

قام العلماء، مرّة ثانية، بتبديل أحد القرود القدامى بقرد جديد آخر، واجه نفس المصير بالضرب، وقد شارك القرد البديل الأول بضربه، وهو لا يدري لماذا يضرب..

وهكذا حتّى تمّ تبديل القرود الخمسة الأوائل بقرود بديلة تباعاً، وصار في القفص خمسة قرود بديلة لم يتعرّض أيّ منها للرش بالماء البارد..

مع ذلك استمرّت القرود تضرب مَن منها تسوّل له نفسه صعود السلّم، دون أن تعرف السبب..

افترض العلماء أنّهم سألوا القرود: لماذا تضربين القرد الذي يصعد السلّم؟...

واستنتجوا أنّ جواب القرود الوحيد، لو نطقت، كان: لا ندري ولكنّا وجدنا أسلافنا له ضاربين..

هكذا تشكّل أساس «تراث» قرود القفص.......

الضحك على الذقون

مقال رائع للشيخ الدكتور عائض القرني

كثرة عدد السكان مع الجودة فضيلة عند الأمم، لكن الخطأ أن يكثر العدد بلا نفع ولا إنتاج، والإسلام يحث على طلب الذرية الطيبة الصالحة، ولكن إذا تحولت كثرة النسل إلى عبء اجتماعي صار هذا خطأ في التقدير، ونحن في الشرق أكثر الأمم نمواً سكانياً مع ضعف في التربية والتعليم، فقد تجد عند الواحد منّا عشرين ابناً لكنه أهمل تأديبهم وتعليمهم فصار سهرهم في دبكة شعبية مع لعب البلوت وأكل الفصفص بلا إنتاج ولا عمل، بل صاروا حملاً ثقيلاً على الصرف الصحي والطرق والمطارات والمستشفيات، بينما الخواجة ينجب طفلين فيعتني بهما فيخرج أحدهما طبيباً والآخر يهبط بمركبته على المريخ...

أنا ضد جلد الذات لكن ما دام أن الخطأ يتكرر والعلاج يستعصي فالبيان واجب.

لا زال بعض العرب يرفع عقيرته عبر الشاشات ويقول: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، ثم تجده في عالم الشرع لا يحفظ آية الكرسي،

وفي عالم الدنيا لم يسمع بابن خلدون وابن رشد، وتجد الغربي ساكتاً قابعاً في مصنعه أو معمله يبحث وينتج ويخترع ويبدع، أرجو من شبابنا أن يقرأوا قصة أستاذ ثورة اليابان الصناعية «تاكيو اوساهيرا» وهي موجودة في كتاب «كيف أصبحوا عظماء؟» كيف كان طالباً صغيراً ذهب للدراسة في ألمانيا، فكان ينسل إلى ورشة قريبة فيخدم فيها خمس عشرة ساعة على وجبة واحدة، فلما اكتشف كيف يدار المحرك وأخبر الأمة اليابانية بذلك استقبله عند عودته إلى المطار إمبراطور اليابان، فلما أدار المحرك وسمع الإمبراطور هدير المحرك قال: هذه أحسن موسيقى سمعتها في حياتي!

وطالب عربي في المتوسطة سأله الأستاذ: الكتاب لسيبويه مَنْ ألَّفه؟ قال الطالب: الله ورسوله أعلم...

والتمدد في الأجسام على حساب العقول مأساة، والافتخار بالآباء مع العجز منقصة، لن يعترف بنا أحد حتى نعمل وننتج، فالمجد مغالبة والسوق مناهبة، وإن النجاح قطرات من الآهات والزفرات والعرق والجهد، والفشل زخّات من الإحباط والنوم والتسويف، كن ناجحاً ثم لا تبالي بمن نقد أو جرّح أو تهكم، إذا رأيت الناس يرمونك بأقواس النقد فاعلم أنك وصلت إلى بلاط المجد، وأن مدفعية الشرف تطلق لك واحداً وعشرين طلقة احتفاء بقدومك.

لقد هجر الكثير منّا الكتاب وأصبح يعيش الأمية فلا يحفظ آيةً ولا حديثاً ولا بيتاً ولم يقرأ كتاباً ولم يطالع قصة ولا رواية، ولكنه علّق في مجلس بيته شجرة الأنساب؛ ليثبت لنا أنه من أسرة آل مفلس من قبيلة الجهلة، والوحي ينادي: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، والتاريخ

يخبرك أن بلال مولى حبشي، وهو مؤذن الإسلام الأول، وأن جوهر الصقلي فاتح مصر وباني الأزهر أمازيغي أمهُ تبيع الجرجير في مدينة سبته، ولكن النفس الوثّابة العظيمة لا تعتمد على عظام الموتى، لأن العصامي يشرّف قبيلته وأمته وشعبه ولا ينتظر أن يشرفه الناس، لقد كان نابليون شاباً فقيراً لكنه جدّ واجتهد حتى أخذ التاج من لويس الرابع عشر، وفتح المشرق وصار في التاريخ أسطورة، وهو القائل: «الحرب تحتاج إلى ثلاثة: المال ثم المال ثم المال، والمجد يحتاج إلى ثلاثة: العمل ثم العمل ثم العمل».

لقد أرضينا غرورنا بمدح أنفسنا حتى سكِرَ القلب بخمر المديح على مذهب جرير: أَلَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا؟ وقد ركب الآخر بساط الريح وإف 16 والكونكورد. ولو اجتمعنا ما أنتجنا سيارة «فولكس فاغن» فضلاً عن «كراسيدا». ورحم الله امرُؤًا عرف تقصيره فأصلح من نفسه ولابد أن تقنع المريض بمرضه حتى يستطيع أن يعالج نفسه على أني اعترف بأن عندنا عباقرة ونوابغ يحتاجون لمراكز بحوث ومؤسسات لرعايتهم ومعامل ومصانع لاستقبال نتاجهم.

لقد تركت اليابان الحرب وتابت إلى الله من القتال وتوجهت للعمل والإنتاج، فصارت آيةً للسائلين، وكدّس العراق قبل الغزو السلاح واشتغل بحروبٍ مع الجيران، فانتهى قادته إلى المشنقة، وجُوِّع الشعب ثم قُتِل وسُحِق.

سوف نفتخر إذا نظر الواحد منّا إلى سيارته وثلاجته وتلفازه وجواله فوجدها صناعةً محلية. وأرجو أن نقتصد في الأمسيات الشعرية فإن عشرة دواوين من الشعر لا تنتج صاعاً من شعير. . .

يقول نزار قباني:

وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا   متى البنادق كانت تسكن الكتبا؟

علينا أن نعيد ترميم أنفسنا بالإيمان والعمل وتهذيب عقولنا بالعلم والتفكر، وهذا جوهر رسالتنا الربانية الخالدة وطريق ذلك المسجد والمكتبة والمصنع، والخطوة الأولى مكتبة منزلية على مذهب الخليفة الناصر الأندلسي يوم ألزم الناس بإنشاء مكتبة في كل منزل وقراءة يومية مركزة، وهذا خير من مجالس الغيبة والقيل والقال وقتل الزمان بالهذيان!

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(1).

(1) سورة التوبة، الآية: 105.

خاتمة لا تغلق النص

أمّا بعد..... هل من نتيجة نخلص إليها؟.........

نعم.......

كلُّ أتباع الديانات مسلمون لله.. كلٌّ منهم على كتابه... وكلُّهم إخوتنا في الإسلام الشامل...

كان ثمّة مؤامرة كبرى جرت بحق الإسلام.......

لم يكن كلّ الصحابة عدولاً، ثقاتاً، منزهين عن الأهواء والمصالح........

كان معظم رواة الأحاديث عن النبي كاذبين ..

وكان جلّ كتبة وموثقي أحاديث النبي جهلة عصاة لأمر النبي، أو مغرضين مسيئين إلى الدين، ثبّتوا أكاذيب السابقين...

أمّا الأئمة الكبار، من كلّ المذاهب، فجزاهم الله عاقبة اجتهاداتهم التي فرّقتنا وبعثرتنا، وأساءت إلى ديننا.........

وما وصلنا تحت مسمّى «سنّة رسول الله» لم يكن سنّته الصحيحة...

بل هو ما سوّقوه لنا، وما وجدنا عليه آباءنا...

وما توارثناه على أنّه فقه إسلامي، هو ببساطة بدائل مميتة عن الفقه الإسلامي الصحيح. . . .

وما نعيشه هو كذبة كبيرة، أو مجموعة أكاذيب فصّلت على مقاس جهلنا، وقتلت نقاء الإسلام الذي عاشه محمد وأتباعه خلال حياته. . . . . .

وما اتهمنا به الآخرين من تحريف لكتبهم، مارسناه بأبشع صوره بتحريف شرعنا، حين اعتبرنا الأحاديث المنسوبة إلى النبي أساساً لعقيدتنا . . . .

وإذ سلّمنا أنّ الكتابيين أشركوا بالله إذ اعتبروا عزيراً والسيّد المسيح ابنين له، فقد تجاوزناهم في الإشراك بالله حين منحنا نبيّنا الكريم دوراً لم يرده لنفسه، ولا أراده له الله، فجعلنا ممّا نُسب إليه من أحاديث كاذبة ناسخاً مقصياً لكلام الله . . .

وقد فاتنا قول السيّد المسيح: مَن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر. . . . . .

وإذا كنّا قد أقمنا دولة في الماضي الغابر، مثل كلّ الآخرين، فقد خسرنا ديناً ومستقبلاً. . . . .

وقد كانت مساهمة الموالي من غير العرب، كبيرة في هذا المجال، سنيّاً وشيعياً. . .

فما الذي بقي لنا؟

كتاب الله، وحده لا رفيق له، كما الله وحده لا شريك له. . . . .

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[1].

شريطة القراءة الواعية التي تُسقِط الكثير ممّا حمّله إيّاه الموروث الذي ابتلينا به قروناً.......

والعقل، المنفتح على الكون الواسع....

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2].

وصدق الله العظيم

للبحث صلة........

(1) سورة الفرقان، الآية: 30.
(2) سورة محمد، الآية: 24.



المراجع

1 - القرآن الكريم.
2 - الكتاب المقدس.

أ - مراجع من التراث

3 - الصحاح والسنن.
4 - تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن.
5 - تفسير ابن كثير.
6 - تفسير الجلالين.
7 - ابن منظور - لسان العرب.
8 - الشوكاني - إرشاد الفحول في علم الأصول.
9 - ابن حجر العسقلاني - الإصابة في تمييز الصحابة.
10 - تاريخ اليعقوبي.
11 - الغزالي - المستصفى في علم الأصول.
12 - ابن قتيبة - تأويل مختلف الأحاديث.
13 - السيوطي - الإتقان في علوم القرآن.
14 - ابن الجوزي - نواسخ القرآن.
15 - أبو جعفر النحّاس - الناسخ والمنسوخ في القرآن.
16 - الواحدي النيسابوري - أسباب النزول.

17 - السيوطي - لباب النقول في أسباب النزول.

18 - ابن كثير - البداية والنهاية.

19 - ابن هشام - السيرة النبويّة.

20 - الطبري - محمّد خاتم الأنبياء.

21 - ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة.

22 - ابن عبد البر - الاستيعاب في معرفة الأصحاب.

23 - ابن سعد - الطبقات الكبرى.

24 - ابن تيميّة - منهاج السنّة النبويّة.

25 - ابن الجوزي - مناقب الإمام أحمد بن حنبل.

26 - الطبراني - المعجم الصغير.

27 - ابن عساكر - مختصر تاريخ دمشق.

28 - الحافظ الذهبي - سير الأعلام والنبلاء.

29 - الطبري - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى.

30 - الجزائري - الأنوار النعمانيّة.

31 - النوبختي - فرق الشيعة.

32 - الناشئ الأكبر - مسائل الإمامة.

ب - مراجع معاصرة

33 - ديتر تسمرلنغ - النهايات - ترجمة ميشيل كيلو.

34 - محمد سعيد العشماوي - الإسلام والسياسة.

35 - محمد سعيد العشماوي - الخلافة الإسلاميّة.

36 - محمد سعيد العشماوي - جوهر الإسلام.

37 - هشام جعيط - الوحي والقرآن والنبوّة.

38 - إبراهيم فوزي - تدوين السنّة - دار الريّس.

39 - د. عماد الدين خليل - مدخل إلى التاريخ الإسلامي.

40 - حسن العلوي - عمر والتشيّع.
41 - د. ماهر الشريف - تطوّر مفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي.
42 - الصادق النيهوم - إسلام ضد الإسلام - شريعة من ورق.
43 - نصر حامد أبو زيد - مفهوم النص.
44 - معروف الرصافي - الشخصيّة المحمديّة.
45 - عبد الإله بلقزيز - النبوّة والسياسة.
46 - د. بكر شيخ أمين - أدب الحديث النبوي.
47 - حمادي ذويب - السنّة بين الأصول والتاريخ.
48 - طيّب تيزيني - من اللاهوت إلى الفلسفة العربيّة الوسيطة.
49 - مالك مسلماني - عمر بن الخطاب، السيرة المتوارية.
50 - خليل عبد الكريم - مجتمع يثرب.
51 - حسين علي اللوباني - ملف الهبل العربي.
52 - هشام جعيط - الفتنة.
53 - طه حسين - الفتنة الكبرى.
54 - هادي العلوي - فصول من الإسلام السياسي.
55 - خليل عبد الكريم - الصحابة والصحابة.
56 - د. مصطفى بو هندي - التأثير المسيحي في تفسير القرآن.
57 - يوسف حسني الأطير - البدايات الأولى للإسرائيليات في تفسير القرآن.
58 - الصادق النيهوم - الإسلام في الأسر.
59 - نيازي عز الدين - من حقائق القرآن المسكوت عنها.
60 - يحيى محمد - مشكلة الحديث.
61 - فرهاد دفتري - المناهج والأعراف العقلانيّة في الإسلام.
62 - السيّد سابق - فقه السنّة.
63 - أبو نواس - النصوص المحرّمة - تحقيق جمال جمعة - دار رياض الريّس.

64 - جرجي زيدان - المسيح هو المشكلة.
65 - إبراهيم محمود - الفتنة المقدسة - دار رياض الريّس.
66 - حسن مشيمش - حوارات ساخنة.
67 - د. صالح عضيمة - ذلك فضل الله.
68 - مجلة الوعي الإسلامي.

لا تهدف هذه الإضاءات إلى زلزلة أركان وجوانب «الموروث» الذي ساد طويلاً تحت مسمّى « التراث»، بقدر ما تسعى لإخضاع هذه الأركان والجوانب إلى نقاش عقلاني واعي، يستهدي بكتاب الله، ليتحرّى صحتّها ومدى صدقيّتها وشرعيّتها، مشرّعاً الأبواب لإعادة النظر فيما اعتبره السلف مسلّمات وبديهيّات، وما هو كذلك...

وهي تطرح للبحث والمناقشة مفاهيم أساسيّة قام عليها هذا الموروث، بدءاً من تحديد مفهوم الإسلام كما أراده الله، فمفهوم عدالة الصحابة ومدى موثوقيّتهم، والجنايات التي ارتكبها رواة الحديث الكاذبون، وكتبة الأحاديث المغرضون أصحاب الصحاح والمساند والسنن، ثمّ الاجتهادات المتناقضة واللاعقلانيّة والمخجلة لأئمة الفقه، وأخيراً جناية المسلمين، سنّة وشيعة، على أهل بيت النبي، وانقسام الأمّة الكارثي، وتشويه الدين الذي جاء به محمد بن عبدالله (ص)..

هي حجر يُلقى في بركة الموروث التي أسنت، وحان أوان شطفها...